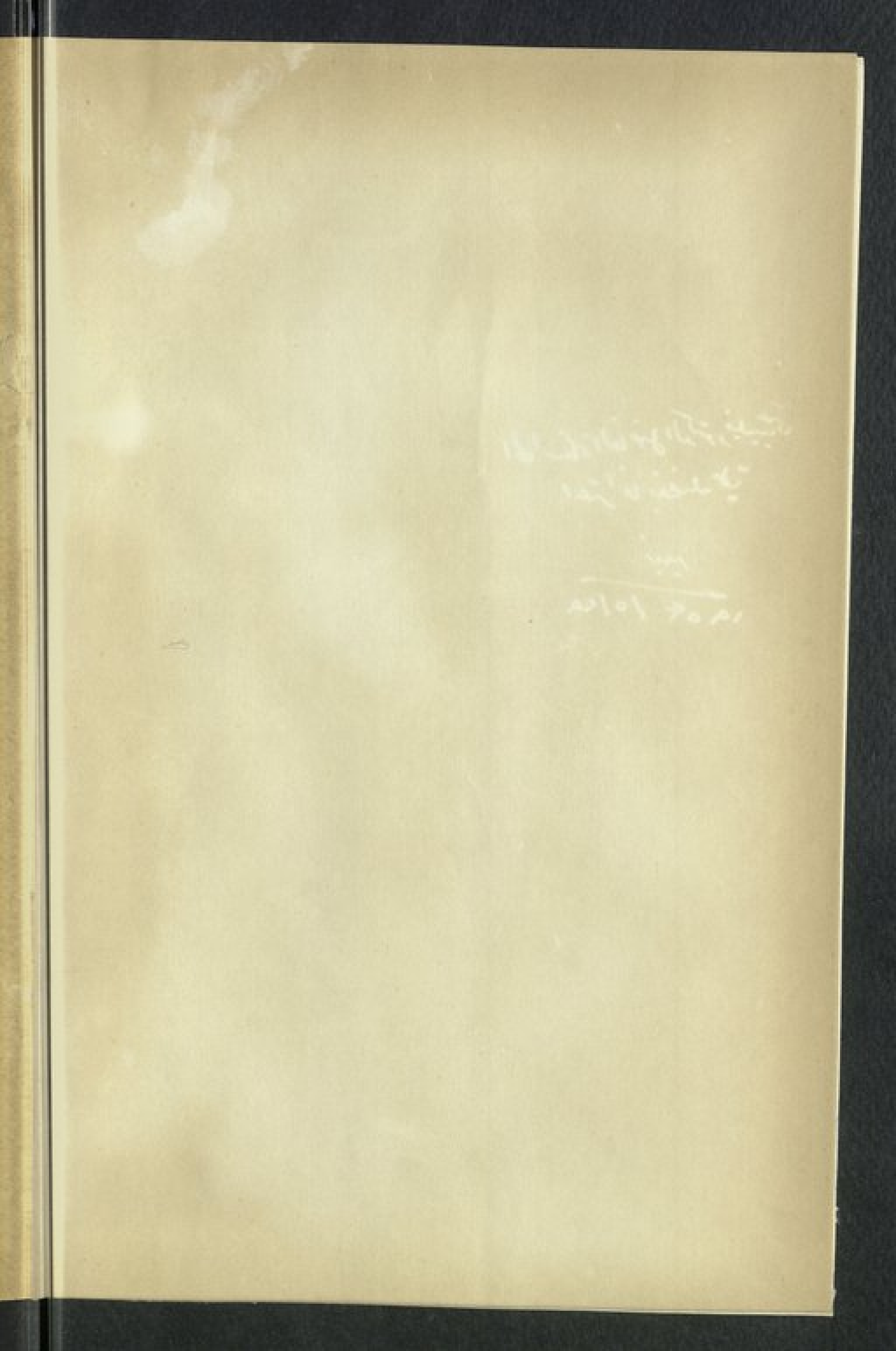



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY
PHILIP HITTI COLLECTION



Philip K Hitti

هذا العالم العربي

دراسة في القومية العربية وفي عوامل التقدم والتأخر والوحدة والتفريق في العالم العربي

الى الاستاذ الفاضل الدكتور فيليب حتي
اعترافا بفضله علي
نبيه
٢٩/٥/١٩٥٤

تأليف

نبيه أمين فارس
رئيس دائرة التاريخ
في جامعة بيروت الأميركية

محمد توفيق حسين
مدرس الفلسفة الاسلامية
في جامعة بيروت الأميركية

دار العلم للملايين
بيروت

١٩٥٣

الطبعة الاولى

بيروت ، نوار ، ١٩٥٣

مقدمة

كانت غايتنا ، عندما بدأنا تأليف هذا الكتاب ، ان نبين العوامل التي تقرب بين الاقطار العربية وتسير بها في طريق التعاون والوحدة ، والعوامل التي تفرقها وتباعد بينها . وقد اضطرتنا طبيعة الموضوع ان نبحث كل عوامل التقارب والتباعد بحثاً متقصياً يشمل العوامل الرئيسية والفرعية ، الاصيلة والمصطنعة ، الداخلية والخارجية . وعلى هذا فقد تشعب الموضوع وكاد ان يمتد الى معالجة كل مشاكل العالم العربي الاساسية القائمة التي يؤدي وجودها الى تقوية هذا العامل او ذاك من عوامل التقارب والتباعد ، بحيث اصبح الكتاب، على ايجازه ، بحثاً في مشاكل العالم العربي المختلفة : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقومية. وقد تتبعنا كل مشكلة في التاريخ، حين اقتضت طبيعة البحث تتبعها في التاريخ ، وبينّا ارتباطها بالمشاكل الاخرى ، لنضع يد القارىء على جذورها الاصلية وعلاقاتها العضوية بالمشاكل الاخرى ، ولنيسر على من يبغي لها الحلول الصحيحة سبيل فهمها فهماً موضوعياً صحيحاً . إذ بدون الفهم الموضوعي الصحيح للمشاكل لا يمكن ايجاد الحلول الصحيحة لها .

ولقد بدأنا البحث بعد ان تجردنا من كل فكرة سابقة ، بقدر ما يستطيع الانسان ان يتجرد من افكاره السابقة وميوله السياسية والاجتماعية ، وتركنا حقائق الموضوع تقودنا الى نتائجها الحتمية . فما كانت غايتنا من هذا البحث ترويج فكرة ، وتحبيذ مبدأ ، وانتصاراً لقضية على اخرى ، وانما غرضنا ، كل غرضنا ، ان نظهر مشاكل العالم العربي بشكلها الصحيح ، وان نضعها في موضعها الحق من الواقع القائم .

ولم ننطلق ، في بحثنا لمشاكل العالم العربي وفي بحثنا للقومية العربية ولمقومات الامة العربية ، عن افكار مجردة ، ونظريات غيبية ، وانما كانت نقطة انطلاقنا ، ومحور بحثنا ، الانسان العربي : كفرد له ذاتيته الخاصة وكرامته الانسانية ، وكعضو في امة لها مقوماتها المميزة وحقوقها الثابتة . فليست القومية ، في نظرنا ، فكرة يسبق وجودها وجود « القوميين » ، ويعلو على افراد « الامة » وانما هي تلخيص لكل ما في هؤلاء الافراد من خصائص ، ومنهاج لكل ما يؤدي الى اسعادهم والحفاظ على كرامتهم : افراداً ، ومجموعاً ، وشعباً يعيش في وطن .

ليس الموضوع الذي نعالجه في هذا الكتاب جديداً . فقد عالجته اقلام الكتاب والمفكرين والقادة منذ فجر النهضة القومية ، وما زالت تعالجه وتبحث فيه . واغلب الظن انه سيبقى غرضاً لأقلام الكتاب والمفكرين والقادة يعالجونه فيتفقون في معالجته ويختلفون ، ويفكرون فيه فيطيلون التفكير ، حتى يبلغ الكتاب اجله . والجديد في كتابنا هذا ، إن كان فيه جديد ، هو اننا بحثنا

الموضوع بحثاً تحليلياً ، تركيبياً ، يشمل العالم العربي بأسره . ولقد اعتمدنا في تحضير هذا البحث على عـــدد لا يحصى من الكتاب والمفكرين الأفاضـل ، اشرنا الى بعضهم في هوامش الكتـــاب وتركنا ذكر الكثيرين خشية الاطالة . على ان اعـتمادنا الاساسي كان على ملاحظاتنا الخاصة ودراستنا الموضوعية المباشرة لهـــذه المشاكل . فلكل من تقدمنا في بحث هذا الموضوع ، بمن ذكرنا اسماءهم ومن لم نذكر ، خالص شكرنا وصادق اعترافنا بالجميـل .

الجامعة الاميركية – بيروت
١٩٥٣/٤/٢

المؤلفان

القسم الاول

التعريف بالعالم العربي

١ . تحديد العرب والعالم العربي

•

العالم العربي هو مجموعة البلاد التي يؤلف العرب اغلبية السكان فيها . ويمتد من المحيط الاطلسي غرباً ، الى حدود ايران شرقاً ، ومن جبال طوروس وسواحل البحر الابيض المتوسط الجنوبية شمالاً ، الى المحيط الهندي ومشارف افريقيا الوسطى جنوباً . ويشمل مراكش ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس (ليبيا) ، ومصر ، والسودان ، وسورية الطبيعية (لبنان ، وسورية ، وفلسطين ، وشرقي الاردن) ، والعراق ، وشبه جزيرة العرب .

من هم العرب ؟ على اي اساس تطلق عليهم صفة « العرب » ؟ أعلى اساس تحدّرهم من جنس واحد ، نقي الدم ؟ أم على اساس اللغة ؟ أم على اساس الدين ؟ أم على اساس الحضارة الواحدة والتكوين العقلي المتشابه ، والنظم الاجتماعية المشتركة؟ أم على هذه الاسس جميعاً ؟ لقد تغير محتوى كلمة « عرب » ، وتطور بتقدم الزمن ، واختلف الباحثون ، القدماء والمحدثون ، في تعريف المحتوى الحقيقي لهذه الكلمة [١] .

---

(١) يقول H. A. R. Gibb, **The Arabs,** (Oxford, 1944) p. 3
من هم العرب : مها قال علماء السلالات البشرية ، فلا يوجد غير جواب واحد »

ويتحتم علينا ، لكي نتوصل الى المفهوم العصري لهذه الكلمة الذي تعتمده اغلبية المشتغلين في القضايا القومية ، ان نتتبع نشوء العرب الاحياء في التاريخ .

يقارب الواقع التاريخي ، عن هذا السؤال ، الا وهو : « العرب هم كل من يعتبرون رسالة محمد وذكرى الامبراطورية العربية، الحقيقة المركزية في التاريخ، بالاضافة الى اعزازهم اللغة العربية، وتراثها الثقافي، واعتبارهما ملكهم المشترك». ويروي Bernard Lewis, **The Arabs In History** (London, 1951), p. 9 « ان جماعة من الزعماء العرب ، قبل بضع سنوات، عرفوا « العرب » بهذه الكلمات : كل من يعيش في بلادنا ، ويتكلم لغتنا ، وقد نشيء على ثقافتنا ، ويعتز بامجادنا ، فهو منا » . ويقول ساطع الحصري وهو من اقدم المشتغلين في القضية العربية نظرياً وعملياً، في مقال نشره في جريدة « الحياة» البيروتية بتاريخ ٥ آب ١٩٥١ : « ان الفروق التي تظهر لنا الآن بين اهالي هذه الدول (العربية) العديدة انما هي فروق عارضة سطحية ، لا تبرر قط اعتبارهم منتسبين الى امم مختلفة ، بمجرد انتمائهم الى دول مختلفة ، تكونت كلها ، من جراء المناورات والمساومات التي قامت بها الدول الاجنبية ... فلا مجال للشك في ان مصر من البلاد العربية ، طالما تشترك مع جميع تلك البلاد (العربية) في اللغة ، وفي الثقافة ، وفي هذا التاريخ الطويل ، فضلاً عن اشتراكها في المصائب والمخاطر . وفضلاً عن اتصالها بها اتصالاً جغرافياً مباشراً ، يجعلها في موضع القلب من هذا العالم العربي الفسيح ... هناك شعوب عربية عديدة ، ولكن هذه الشعوب كلها تنتسب الى امة واحدة ، هي الامة العربية ... ان كل من ينتسب الى شعب من هذه الشعوب العربية هو عربي ، واما اذا لم يعرف هو ذلك ، فعلينا ان نبحث عن الاسباب التي تحمله على الوقوف هذا الموقف . فقد يكون ذلك ناتجاً عن الجهل فعلينا ان نعلمه الحقيقة ، وقد يكون ناشئاً عن الغفلة والانخداع ، فعلينا ان نوقظه ونهديه سواء السبيل، وقد يكون ناتجاً عن فرط الانانية فيجب ان نعمل للحد من انانيته. انه عربي شاء هو ام لم يشأ ، اعترف هو ام لم يعترف بذلك في الحالة الحاضرة ، انه عربي جاهل ، او غافل ، او عاق، او خائن... » ويبحث W. B. Fisher

كانت شبه جزيرة العرب ، منذ اقدم العصور ، مأهولة باقوام من جنس البحر الابيض المتوسط ، او الاسمر ، الذي يتصف ابناؤه بالرؤوس المستطيلة ، والبشرة السمراء ، والشعور الجعدة

The Middle East (London, 1950), pp. 77-91 في الاجناس (Races) المختلفة التي ينتمي اليها سكان الشرق الادنى ويقول ، ص ٩١ ، « والخلاصة اننا نستطيع القول ، من وجهة نظر علماء الانثروبولوجيا ، انه يستحيل التكلم بدقة ، عن « شعب عربي » او عن « شعب سامي » . فالتعبيران يعنيان مزيجاً من الناس، يختلفون اختلافاً كبيراً في الخصائص الجسمانية والاصول الجنسية،وهما في انقى استعمالاتهما لا يعدوان كونهما تعبيراً لغوياً وثقافياً.»ويتكلم George Antonius, **The Arab Awakening,** (London, 1945), pp. 13-19 عن تكون العرب الاحياء تاريخياً ، نتيجة لامتزاج العرب بشعوب البلاد الاصلية ، وتعريبهم اياها . ويستخلص ان العرب هم اغلبية المواطنين في العالم العربي ، الذين يتكلمون اللغة العربية، والذين طبعهم العرب بطابعهم الجنسي، وشكلوا سجاياهم وتقاليدهم بقالب عربي،بغض النظر عن الدين الذي يدينون به . ويتتبع لويس ، المتقدم ذكره ، ص ٩ — ١٧ ، تطور مفهوم كلمة « عرب » في التاريخ ، فيذكر ان الكلمة كانت تستعمل خلال قرون عديدة قبل الاسلام ، وصفاً للبدو ، وانها توسعت في الاستعمال الاغريقي والروماني بحيث تشمل معناها عرب الجزيرة العربية الرحل،والمستقرين حول الواحات ، وحضارة القسم الجنوبي الغربي . واصبحت ، بعد الفتح العربي ، تطلق على العرب الفاتحين تمييزاً لهم عن سكان البلاد المفتوحة . وبعد ان تحولت الدولة العربية الى دولة اسلامية عالمية اصبحت الكلمة تعني ثقافة الامبراطورية المختلفة الاصول،التي انتجها اناس ينتمون الى اجناس وثقافات مختلفة ، باللغة العربية ، متأثرين بالذوق العربي والتقاليد العربية ، وبعد ان تم امتزاج العرب بالشعوب المغلوبة ، وبعد خضوع هؤلاء لعناصر حاكمة جديدة،فقدت الكلمة تدريجياً محتواها القومي واصبحت عبارة عن اصطلاح اجتماعي فقط يطلق على البدو الذين حافظوا اكثر من سواهم على نقاوة اللغة والتقاليد العربية ، وصار يطلق على الشعوب المستقرة الناطقة باللغة العربية

السوداء ، والقامة المتوسطة ، والبنية المعتدلة . وقد اطلق على هؤلاء الاقوام اسم « الساميين » . وكان منهم المستقرون في الاراضي الخصبة ، ومنهم البدو المتنقلون . وكان هؤلاء البدو يندفعون الى بلاد الهلال الخصيب في الشمال ، عندما تشح موارد الجزيرة الضيقة عن اعاشتهم ، على شكل هجرات واسعة فيستقرون فيها ، ويمتزجون بسكانها الاصليين . هاجر الاكديون واستقروا في جنوبي العراق ، وامتزجوا بالسومريين ، مكونين الحضارة

اسم المسلمين او « ابناء العرب » تمييزاً لهم عن باقي المسلمين الذين لا يتكلمون اللغة العربية. ويخلص لويس، ص ١٧ ، الى القول : « بينما ظلت هذه الاستعمالات المختلفة للكلمة باقية الى الوقت الحاضر ، اصبح لها معنى جديد ، تولد تحت وطأة الغرب ؛ واخذت اهميته تتعاظم خلال خمسين السنة المنصرمة ، هو هذا المعنى الذي يعتبر الشعوب المتكلمة باللغة العربية، شعباً واحداً ، بحسب المفهوم الاوروبي ، او مجموعة من الشعوب الشقيقة ، يوحدها اشتراكها في الموطن ، واللغة ، والثقافة ، والطموح الى الاستقلال السياسي . »

يظهر مما تقدم من هذه الآراء المتعددة ان المقياس المعتبر في تحديد من هو « العربي » هو وحدة الموطن ، واللغة ، والتاريخ ، والتقاليد والعادات ، والثقافة ، والنظم الاجتماعية . واما العامل الديني الذي أشار الية (جب) ، فيعتبره بعض العرب ، وخاصة في البلاد التي لا يزال فيها أمر الدين قوياً والوعي القومي ضعيفاً كالجزيرة العربية وشمالي افريقية ، احد الروابط الأساسية الجامعة بين العرب . على ان اتجاه تطور الوعي القومي ؛ الذي يتعاظم بسرعة نتيجة لانتشار الثقافة العصرية؛ يدل على ابعاد العامل الديني ، والتقليل من شأن نقاوة الدم ؛ والنظر الى الشعب نظرة تاريخية واقعية ؛ ولا يقل اعتزاز القوميين العرب برسالة النبي محمد ، وآثار العرب المسلمين في الثقافة والحضارة والعمران ، عن اعتزاز المسلمين الدينيين ؛ الا انهم ينظرون اليها كثمرة من ثمرات العقلية العربية الخلاقة .

السومرية الاكدية ، ثم حل محلهم العموريون الذين امتدوا الى شمال سورية ، ثم الاشوريون الذين اسسوا في شمال العراق امبراطورية امتدت الى ضفاف النيل ، ثم الفينيقيون الذين استقروا في السواحل الشرقية من البحر الابيض المتوسط ، والعبرانيون الذين سكنوا في فلسطين ردحاً من الزمن .

لم يعمر الساميون بلاد الهلال الخصيب وحدهم . فقد كانت هذه البلاد منذ أقدم العصور ، مطمح انظار الشعوب الفاتحة الغازية ، ومعبراً للشعوب المختلفة ، ولمنتجاتها المادية والثقافية . حل فيه السومريون الذين قدموا من بلاد عيلام ، والكاشيون من ايران ، والحثيون من مرتفعات الأناضول ، والماديون من شمال غربي ايران ، والأكراد من الجبال الشمالية الشرقية . ثم فتح كورش الفارسي البلاد الممتدة من دجلة الى النيل ، وحل محل الفرس الاغريقُ يقودهم الاسكندر المقدوني . وتلا ذلك انقسام هذه البلاد بين الدولتين الساسانية والرومانية المتنازعتين ، الى زمن الفتح العربي الكبير . ولكن بلاد الهلال الخصيب ، بأغلبية سكانها ، كانت قد اصطبغت ، قبيل العهد المسيحي ، بالصبغة الساميه ، جنسياً ، ولغوياً ، وحضارياً ، فما كان أثر الفرس ، والاغريق ، والرومان ، ليمتد خارج المدن الكبيرة بعيداً .

منذ أوائل الألف الأول ق.م ساد احد فروع الجنس السامي ، العرب ، جزيرة العرب . وقد والى هؤلاء العرب الهجرة الى الهلال الخصيب ، فاستقر فيها منهم جماعات وأسسوا دولاً ذات حضارة اهمها تدمر وغسان في سورية ، والأنباط في شرقي الأردن ،

والمناذرة في العراق ، كما ظل قسم منهم على اتصال دائم بها . على ان هجرات العرب تلك كانت محدودة ، خفيفة ، لم تؤثر في اغلبية السكان تأثيراً بيّناً ، بل لقد اصطنع العرب المهاجرون اللغة الآرامية ، وتحضروا بحضارتها .

وقد اختلط سكان مصر القدماء ، الحاميون ، الذين ينتمون الى جنس البحر الأبيض المتوسط ، بعناصر شمالية وعناصر زنجية من الجنوب . وكانت صحراء سيناء معبراً بين الهلال الخصيب ومصر . على ان اتصال مصر بافريقية الوسطى ، وسواحلها الشمالية كان أشد . وقد استقر الاغريق ، خلفاء الاسكندر ، في مصر طوال ثلاثة قرون ، ليحل محلهم الرومان الذين ظلوا فيها حتى اخرجهم العرب منها في القرن السابع .

وكان الشمال الافريقي آهلاً بالبربر الحاميين ، كما استقر فيه أقوام عديدون آخرون . فقد أسس الفينيقيون مستعمرات تجارية عامرة أشهرها قرطاجة في تونس . واخذت جماعات من الاغريق تفد الى برقة فأسست ، منذ أواسط القرن السابع ، مستعمرات اهمها قيريني . ثم احتل الرومان هذه السواحل حتى الفتح العربي . وهاجم الوندال طرابلس واستقروا فيها اكثر من قرن (٤٢٧ — ٥٣٣) . على ان تأثير هذه المستعمرات كان محدود الأثر ، فقد اقتصر على المدن الكبرى ، الواقعة على السواحل ، وبقي معظم اجزاء البلاد آهلاً بالبربر .

وحدث في مطلع القرن السابع حدثٌ ادّى الى تغيير في تكوين سكان هذه الأقطار الشاسعة تغييراً اساسياً . فقد وحد النبي

محمد وخلفاؤه من بعده عرب شبه الجزيرة فاندفعوا يفتحون الأقطار المتاخمة لبلادهم ، ويتقدمون الى ما وراء حدودها بسرعة ، حتى امتدت فتوحاتهم ، قبل مضي قرن واحد على وفاة محمد ، من المحيط الأطلسي غرباً الى حدود الصين شرقاً .

وكانت نتائج الفتوحات الاسلامية ، الاجتماعية والدينية والحضارية ، أهم ما فيها . فقد أقبلت الشعوب المغلوبة تدخل في الاسلام جماعات ، تدفع بعضها الرغبة في التخلص من الجزية المفروضة على غير المسلمين ، والتمتع بالميزات التي يتمتع بها المنتمون الى دين سادة البلاد الجدد ، وتدفع بعضها الرغبة في الخلاص من هذه الانشقاقات المذهبية في الكنيسة المسيحية ، وما تبع هذه الانشقاقات من اضطهاد فرقة لأخرى ، ويجذبها جميعاً ما في هذا الدين الجديد من بساطة ، ووضوح ، وقرب من افهام الجماهير ، واهتمام بامور الناس في هذه الدنيا ، وخلو من شعائر الأديان القديمة المتحجرة ، ورموزها الغامضة المعقدة .

ولم يقتصر تأثير العرب في الأمم المغلوبة على إعطائها الاسلام ديناً ، بل امتد الى أبعد من ذلك ، فقد عربوا بعضها تعريباً كاملاً ، وعربوا بعضها تعريباً جزئياً . ونعني بتعرب الأمم المغلوبة تخليها عن لغاتها الأصلية واتخاذها اللغة العربية أداة في التعبير ، مع ما تحتويه اللغة العربية من فكر ، وما تفرضه على المعبر بها من اساليب في التفكير والتعبير ، وامتزاج دمائها بالدم العربي عن طريق التزاوج ، وتخلقها باخلاق العرب وسجاياهم وعاداتهم الاجتماعية ، واخذها عنهم أنظمة الحكم ، والأسرة ، وأساليب المعيشة .

وكانت عملية التعريب اقل امتداداً من حركة إدخال الناس في الاسلام لأسباب اهمها ان استقرار العرب في البلاد المفتوحة لم يكن بأعداد متساوية . فقد استقروا في بعض الأقطار ، كسورية الطبيعية والعراق ، بأعداد كبيرة ، امتزجت بالسكان بالزواج ، فأثرت في تكوين السكان الجنسي ، إذ طبعتهم بطابع الجنس العربي . يضاف إلى هذا ان عرب الجزيرة كانوا على اتصال دائم بهذه البلاد ، قبل الاسلام ، ولم يزالوا حتى الوقت الحاضر ، وان اغلبية سكانها الأصليين هم من الساميين أقرباء العرب ، وان هذه البلاد ظلت مركزاً للحكم العربي اجيالاً طويلة . ولهذا نجد معظم ابناء هذه البلاد اقرب الى ابناء الجزيرة العربية من سواهم [٢] . واستقر العرب في مصر وشمالي افريقية بأعداد أقل ، وفي باقي اجزاء العالم الاسلامي بأعداد ضئيلة لم تستطع ان تؤثر في السكان. والحق ان حركة التعريب تمت في البلاد التي كانت اكثرية سكانها من المسلمين ، اما في البلاد الأخرى فقد حالت الفروق الأساسية العميقة في التكوين الجنسي ، واللغة ، دون نجاحها .

ولم تحدث عملية التعريب فجأة ، وانما استغرقت وقتاً طويلاً . فقد ظل أثر العنصر العربي ضعيفاً في برقة وطرابلس ، مثلاً ، الى القرن الحادي عشر ، حيث كان جنس البربر هو الغالب على سكانها ،

---

(٢) يقول انطونيوس المتقدم ذكره س ١٧ ، ج ١ : « قدر الاستاذ لويس ماسينيون في مقال بارع نشره في Revue du Monde Musulman . vol. LVII (1924) ان ما يقارب من ثلثي المسلمين الحضر في فلسطين هم من اصل عربي . وأما في شرقي الاردن فالنسبة أعلى من ذلك » .

وخاصة في الداخل . على ان هجرة قبائل بني سليم وبني هلال المضرية النجدية ، التي استقرت في مصر في أوائل الفتح العربي إلى برقة وطرابلس وتونس عجلت في تعريب جموع غفيرة من البربر ، فقوت الطابع العربي في هذه البلاد . ومما قوى عملية التعريب في الشمال الافريقي ، وخاصة في مراكش ، نزوح جماعات وافرة العدد من العرب والمعرّبين من اسبانيا بعد انحلال الحكم العربي فيها وسقوطها بايدي الاسبان .

وقد أخذ العرب يتسربون إلى السودان بعيد فتح مصر . ولكن هجرة القبائل العربية الجماعية ترجع الى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد . ومن امتزاج العرب بالحاميين الساكنين في الاقسام الشمالية والشرقية من السودان، والبربر الحاميين النازحين من افريقية الشمالية ، والزنوج الافريقيين تولد الشعب العربي المسلم الذي يؤلف اغلبية السكان في الاقسام الشمالية والوسطى من السودان . وقد كملت عملية تعريب السودانيين ، وادخالهم في الاسلام ، حوالى نهاية القرن السادس عشر الميلادي ، بزوال آخر بقايا دولة النوبة المسيحية .

استمرت عملية امتزاج العرب بالأقوام الأخرى طوال الحكم العربي والعثماني ، ولا تزال مستمرة حتى الوقت الحاضر . فقد تدفقت على العالم العربي شعوب مختلفة ، منها من أتت مسالمة كهؤلاء الفرس والهنود والأتراك والأكراد والأرمن والزنوج الذين قدموا عمالاً ، وصناعاً ، وجنوداً مرتزقين ، وجواري ، ورقيقاً ، ومنها من أتته فاتحة غازية ، كالبويهيين الفرس، والسلاجقة

الأتراك ، والتتار ، واخيراً الأتراك العثمانيين الذين حكموا البلاد طوال اربعة قرون. ولم ينسحب الصليبيون من سورية دون ان يتركوا شيئاً من آثار اجناسهم في السكان وعلى الأخص في أجزاء من لبنان وفلسطين . ان المدن ، والمدن الكبرى بخاصة ، كانت مراكز التقاء الشعوب ، وامتزاجها ، وتعربها ، اما سكان الريف عامة ، والبدو خاصة ، فقد حافظوا على خصائصهم الاصلية او كادوا .

والحق ان المواطن التي حافظ فيها العرب على نقاوتهم الجنسية لا تعدو شبه جزيرة العرب وسواحلها ، بل ان اقساماً من جزيرة العرب أدركها ما أدرك غيرها من امتزاج بالعناصر الاخرى . فآثار الجنس الزنجي ، مثلاً ، واضحة في تهامة اليمن وعسير ، وفي رأس الخليج الفارسي ، والاقسام الجنوبية من الجزيرة .

ولم يخل العالم العربي – الذي كان معبراً لانتقال الشعوب ، ومحطة لالتقائها ، في الحرب والسلم ، وامتزاجها في العنصر والحضارة والدين – من مناطق عصية المسالك نائية عن مراكز الحكم ، بقيت فيها شعوبها الاصلية ، والشعوب اللاجئة اليها في الأزمنة المتأخرة ، محتفظة بقومياتها ، ولغاتها ، واديانها . على ان هؤلاء الاقوام انما هم اقلية في وسط هذا الشعب العربي العديد .

وإذا أردنا ان نجمل ما تقدم من الحقائق عن العرب في تعريف عام ، قلنا : « العرب الحاضرون هم جميع من يسكنون العالم العربي ، ويتكلمون اللغة العربية ، ويعتزون بالتاريخ العربي ، ويشعرون بالشعور العربي العام ، وتتسم عقليتهم بخصائص العقلية العربية ، على اختلاف الاديان التي يعتنقونها ، والعناصر التي كان آباؤهم ينتمون اليها » .

٢ . الانقسامات الطبيعية في العالم العربي

●

لم تعد العوامل الطبيعية ، وحدهـا ، تعين حدود الدول ، وتتحكم في مصائر الشعوب ، بعد ان تقدمت وسائل المواصلات في هذا العصر الحديث فربطت الاقطار المتباعدة ، وطوت المسافات المتنائية ، وذللت الجبال والصحارى والبحار ، وتغلغلت في قلب المجهول من البقاع ، فاتاحت بذلك للدول الكبيرة ان تتوحد رغم ما بين اجزائها من اختلاف في طبيعة الارض والمناخ ، ورغم ما يفرق بينها من موانع طبيعية عصية . فالدول الحديثة انما تقوم على ارادة شعوبها في المعيشة المشتركة ، المستندة الى المصالح المادية المتبادلة ، والميول النفسية المتقاربة ، والآمال والمطامح الواحدة ، وليس على اسس جغرافية محضة . لقد اصبحت الطبيعة التي استعبدت الانسان دهوراً ، عبدة طيعة لارادة الانسان وذكائه . ولكن سيطرة الانسان على العوامل الطبيعية ، ومنها العوامل الجغرافية ، لم تتحقق في كل بقاع الارض بدرجة واحدة . فما زالت اجزاء من العالم العربي محرومة من وسائل المواصلات الحديثة التي تيسر لها الاتصال السريع ، المريح ، الرخيص ، باجزائه الاخرى ، وما زالت آثار العوامل الجغرافية الماضية واضحة ، قوية ، بما اوجدت

من اقطار متباعدة، طبعت سكانها بطابع الاقليمية الضيقة، واثرت في عاداتهم وسجاياهم، ولهجاتهم، وبما حددت من هجرات القبائل، وضيقت من امتزاج الشعوب، وبما منحت الاقليات القومية والدينية والاجتماعيـة من ملاجىء عاصمة، اعانتها على الاحتفاظ بخصائصها القومية وادياتها، ولغاتها. ونحب ان نذكر، قبل ان نمضي في دراسة الانقسامات الطبيعية في العـــالم العربي، اننا لا نقصد الى ابداء رأينا فيما يجب ان تكون عليه التكتلات السياسية العربية، او الاتحادات الاقليمية، في المستقبل، فما ذلك من همنا في هـذه الدراســـة. وإنما نحن نقرر واقعاً عسى ان يعيننا على فهم ما في العالم العربي اليوم من انقسامات سياسية وفروق في الحيـــاة الاجتماعية.

تتصل أقطار العالم العربي اتصالاً مباشراً مستمراً دون ان تخلّ بانسجامها الاثنولوجي دولة غريبة الشعب، ما عدا إسرائيـل التي غرست حربة في قلبها. على ان هذا العالم العربي الوسيع لم يخل من موانع جغرافية، اهمها الصحارى الرملية الواسعة، تباعـد بين اقطاره، وتقسمها الى وحدات اقليمية مختلفة في طبيعة الارض، والمناخ، والنبات.

يشطر البحر الاحمر العالم العربي شطرين: احدهما في آسيا، والآخر في افريقيا، توصلهما شقة من الارض ضيقة هي شبه جزيرة سيناء التي تخترقها قناة السويس. اما القسم الاسيوي فيمكننا ان ان نلاحظ فيه ثلاث وحدات اقليمية.

اولاً: منطقة وادي دجلة والفرات. وتشمـــل العراق

واقساماً من شمالي وشرقي الجمهورية السورية . وهي تنقسم الى منطقتين يفصلها الخط الوهمي الواصل من هيت على الفرات الى بلد على دجلة ، الى السعدية على ديالى . وتتكون المنطقة الجنوبية من اراض رسوبية خصبة . ومناخها قاري ، قليل الامطار ، شديد الحرارة . وتتألف المنطقة الشمالية من ارض متموجة (صعيدية) ، يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين ٧٠٠ و ١٢٥٠ قدماً . وهي ترتفع ارتفاعاً لطيفاً باتجـــاه الشرق والشمال حتى تنتهي بمنطقة جبال كردستان . وهي اغزر امطاراً من المنطقة الجنوبية ، واقل حرارة في الصيف ، واشد برودة في الشتاء .

ثانياً : منطقة سورية الطبيعية . وهي المنطقة المحصورة بين جبال طوروس في الشمال ، والبحر الابيض المتوسط في الغرب ، وبادية الشام وجزيرة العرب في الشرق والجنوب . وتمتد على طول القسم الغربي منها سلاسل جبلية متعددة ، تتخللها أودية وسهول صغيرة خصبة اهمها النصيرية ولبنان وسلسلة لبنان الشرقيـــة والكرمل والخليل . وتمتد بين هذه الجبال وبين البحر المتوسط سهول ساحلية ضيقة خصبة . وعلى الرغم من انقسام هذه المنطقة الى مناطق صغيرة متعددة تتمايز عن بعضها ظاهرياً من حيث طبيعة الارض ، فهي تكون وحدة جغرافية تامة من حيث تكوينها الجيولوجي ووحدة مناخها المتميز بشتاء غزير الامطار، وصيف دائم الجفاف ، ومن حيث تشابه نباتها وحيوانها . تصل بين هذه المنطقة ، والمنطقة الاولى (وادي دجلة والفرات) ، بادية الشام التي تمتد شمالاً من خـــط وهمي تقريبي يمر من خليج العقبة الى الجوف

فالكويت . وهي عبارة عن صحراء ترتفع ارتفاعاً تدريجياً من الجنوب الى الشمال حتى تبلغ اقصى ارتفاعها (٣٠٠ قدم) بين الرطبة ودمشق ، لتنحدر ، من ثم ، انحداراً لطيفاً الى وادي الفرات الوطيء . وينعم قسمها الشمالي بامطار يتراوح معدلها السنوي بين بوصتين وست بوصات ، تساعد على ازدهار انواع من الحشائش . وهذه الحشائش ، بالاضافة الى وجود عدد من الأولاد التي تحتفظ بكميات من ماء الامطار في موسم الجفاف ، جعلت من هذا القسم من بادية الشام مركزاً لتجمعات البدو . ويحتوي القسم الجنوبي من هذه البادية على خطين للآبار ساعدا على إقامة طرق للمواصلات تقطع البادية من الشرق الى الغرب يمر احدهما من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ، من الجوف الى مشارف حوران في القسم الجنوبي الغربي من سورية ، على طول وادي سرحان ، ويأخذ الثاني اتجاهاً جنوبياً غربياً من كربلاء الى حائل . وتصل صحراء بادية الشام هذه الاقسام الجنوبية الشرقية من سورية والاقسام الجنوبية الغربية من العراق بالمنطقة الاقليمية الثالثة وهي :

ثالثاً : شبه جزيرة العرب . وهي هضبة واسعة الارجاء ، تبلغ مساحتها اكثر من مليون ميل مربع . وهي تكوّن وحدة جغرافية تامة من حيث تكوينها الجيولوجي ، إذ يتألف سطحها من صخور بلورية قديمة مغطاة بطبقات رملية وجيرية ، ومن حيث مناخها المتميز بامطار قليلة لا يزيد معدلها السنوي عن عشر بوصات ، وبحرارة لاهبة ، باستثناء بعض مناطق صغيرة محدودة .

ويمكن تقسيم شبه جزيرة العرب الى مناطق اقليمية ثانوية هي :

أ - الصحراء الداخلية : وهي عبارة عن هضبة واسعة تنحدر انحداراً لطيفاً من الغرب الى الشرق . وتعرف الاقسام المرتفعة الواقعة في الاقسام الشمالية والوسطى منها بنجد . وهي (اي نجد) اراض جرداء تنتشر فيها واحات خصبة ، وفيها مناطق تصلح للزراعة عند توفر المياه . وفي هذه المنطقة جبال جرداء قليلة الارتفاع اهمها العارض ، الذي يمتد من وادي الدواسر الى القصيم ، وجبال شمر ، الواقعة شمال حائل ، واشهرها جبلا أجا وسلمى ، اللذان يبلغ اقصى ارتفاعهما ٥٥٧٤ قدماً . وتمتد بين نجد وسواحل الخليج الفارسي صحراء الدهناء الرملية، القاحلة ، التي يبلغ متوسط ارتفاعها ١٤٠٠ قدم . وتصله بصحراء بادية الشام صحراء النفود ، الواقعة بين الجوف وحائل ، وهي صحراء مكونة من رمال سائبة ، وصخور جرداء . والى جنوب نجد وجنوبه الشرقي ، تمتد صحراء الربع الخالي ، الرملية ، ذات الكثبان المتنقلة . وهي اوسع الصحارى القاحلة في العالم اذ تبلغ مساحتها نحو ربع مليون ميل مربع ، وأشدّها حرارة . وهي تفصل بين نجد وعمان وحضرموت واليمن وعسير .

(ب) المرتفعات الغربية . وهي عبارة عن سلاسل متعددة من الجبال تمتد على طول الساحل الغربي من خليج العقبة في الشمال الى عدن في الجنوب . وتتكون من سلاسل جبال السراة في القسم الشمالي ، وجبال اليمن في الجنوب . وتتكون الاقسام الشمالية منها من صخور سوداء قاحلة ، قليلة الامطار ، شديدة الحرارة ، تتخللها

اودية وسهول ضيقة، مجدبة. اما الاقسام الجنوبية فاكثر ارتفاعاً وذات جو اكثر اعتدالاً، وهي، لموقعها في مهب الرياح الموسمية، غزيرة الامطار، وافرة الغلال. وتترك هذه السلاسل من الجبال بينها وبين البحر الاحمر سهلاً ساحلياً ضيقاً، رملياً، عظيم الحرارة، شديد الرطوبة، قاحلاً، موخماً يسمى تهامة.

ج – السواحل الجنوبية. وتمتد من باب المندب الى عمان. وتنحدر من الغرب الى الشرق انحداراً تدريجياً. وهي تشبه في تكوينها الجيولوجي المنطقة الغربية من الجزيرة وهي سواحل صخرية مغطاة بطبقات رملية وكلسية. وتتخللها أودية قليلة المياه، او جافة، اهمها وادي حضرموت. ونباتاتها تختلف عن نباتات بقية البلاد العربية، وتشبه، الى حد ما، نباتات افريقية والهند.

د – منطقة عمان. وتقع في اقصى الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية. ويختلف تكوينها الجيولوجي عن باقي اقسام الجزيرة. وهي عبارة عن هضبة يبلغ ارتفاعها ٤٠٠٠ قدم. تفصلها عن الداخل صحراء الربع الخالي، وتطل على البحر باجراف عالية، مستقيمة، شديدة الحرارة والرطوبة. وينتصب في وسطها، في الناحية الجنوبية الغربية من مسقط، الجبل الاخضر الذي يتراوح ارتفاعه بين ٩٠٠٠ و ١٠٠٠٠ قدم. وتوجد في مناطق من هذا الجبل انهار ووديان وافرة المياه، تساعد على ازدهار الزراعة.

ه – السواحل الشرقية. وتمتد من شبه جزيرة المسندم الى مصب شط العرب. وهي سواحل واطئة، يقل ارتفاعها عن ٦٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتتكون على العموم من سهول متموجة

تتخللها التلال الواطئة. والاقسام الشمالية الغربية منها، القريبة من رأس الخليج الفارسي، رملية، او صخرية، كثيرة المستنقعات. وامطار هذه السواحل قليلة، لا يزيد معدلها السنوي عن اربع بوصات، وحرارتها شديدة، وهي جرداء الا حيث تتوفر الينابيع الطبيعية، او الآبار الارتوازية. والسواحل الشرقية، على الاغلب كالسواحل الجنوبية، لا تصلح للملاحة البحرية الكبيرة.

اما القسم العربي في افريقية فيقسم الى منطقتين اقليميتين: وادي النيل، وبلاد المغرب.

أولاً: وادي النيل. ويشمل مصر والسودان.

أ – مصر: تتكون مصر من السهول الضيقة الخصبة الواقعة حول ضفتي نهر النيل. وهي تنقسم الى منطقتين طبيعيتين يفصلها خط يمر جنوبي القاهرة. تسمى المنطقة الجنوبية، الممتدة من القاهرة الى وادي حلفا، مصر العليا. وتتكون من اراضي الري الضيقة، الواقعة على ضفتي النيل، وهي ذات امطار قليلة، ومناخ حار، جاف، تبلغ درجة الحرارة فيه في الظل في فصل الصيف ١٠٧ ف. وتهب على هذه المنطقة رياح الخمسين الرملية المحرقة. وتسمى المنطقة الشمالية مصر السفلى. وهي عبارة عن دلتا طموية، على شكل مثلث رأسه القاهرة، وقاعدته تمتد من الاسكندرية الى دمياط. وهي اغزر امطاراً من المنطقة الجنوبية، والطف جواً، ويتمتع القسم الشمالي منها بمناخ البحر المتوسط المعتدل. ويدخل ضمن مصر شبه جزيرة سيناء وهي الصحراء التي تصل منطقة وادي النيل بسورية عن طريق فلسطين، وبالجزيرة العربية عن طريق شمالي الحجاز.

وتمتد بين وادي النيل والبحر الاحمر هضبة صحراوية جرداء ترتفع ارتفاعاً تدريجياً من الغرب الى الشرق مكونة سلسلة من الجبال قليلة الارتفاع على طول ساحل البحر الاحمر . وتمتد الى الغرب من وادي النيل الصحراء الغربية القاحلة التي تتصل بصحراء ليبيا التي هي امتداد للصحراء الافريقية الكبرى .

ب – السودان : وبامكاننا ان نقسمه الى منطقتين تختلفان من حيث طبيعة الارض ، والمناخ ، والسكان ، تفصلهما ، على وجه التقريب ، درجة العرض الثانية عشرة شمالي خط الاستواء . وتمتاز المنطقة الشمالية بكون معظم اراضيها صحارى جافة ، وبانحصار المنطقة الخصبة ، الصالحة للزراعة ، حول ضفاف النيل ، وبجفاف المناخ ، وقلة الامطار ، وكون السكان ، في الغالب ، عرباً مسلمين . وليست هذه المنطقة ، وعلى الاخص القسم الشمالي منها ، الا امتداداً طبيعياً لمنطقة مصر العليا . اما المنطقة الجنوبية فهي ، على العموم ، سهول خصبة واسعة ، ذات تربة سوداء تكونت من ترسبات النيل ، تكثر في الاقسام الجنوبية منها المستنقعات . وهي ذات امطار غزيرة ، وحرارة مرتفعة ، وهي تشبه المناطق الاستوائية في طبيعة ارضها ، وجوها ، ونباتها . وتسكنها قبائل افريقية ، تتكلم لغات افريقية مختلفة ، وتدين باديان بدائية متعددة ، وتخضع لنظم اجتماعية تختلف عن النظم التي يخضع لها سكان شمالي السودان ووسطه . وعلى هذا يمكننا ان نقول ، على وجه الاجمال ، ان درجة العرض الثانية عشرة شمالي خط الاستواء هي حدود العالم العربي الجنوبية في افريقية الشرقية .

ثانياً : بلاد المغرب : وتشمل مراكش والجزائر وتونس . وهي وحدة جغرافية تامة . وتتألف من سهول ساحلية ، متموجة، غنية التربة ، وافرة المياه ، معتدلة الجو ، يتراوح عرضها بين ٥٠ و ١٠٠ ميل . وترتفع هذه المنطقة ارتفاعاً تدريجياً حتى تنتهي بسلسلة جبال الاطلس العليا التي هي امتداد طبيعي لسلسلة جبال اوربا الجنوبية .

وتنحدر هذه الجبال انحداراً سريعاً لتذوب في الصحراء الكبرى . ويتمتع المغرب العربي ، بصورة عامة ، بمناخ البحر المتوسط المعتدل . اما المنطقة التي تسمى اليوم ليبيا ، والمتكونة من برقة وطرابلس وفزان ، فهي جزء من هاتين المنطقتين . فبرقة جزء متمم لمصر جيولوجياً ، واقتصادياً ، ومناخياً . واما طرابلس فهي اقرب الى ان تكون جزءاً مكملاً لتونس من ان تكون منطقة اقليمية قائمة بذاتها . وتتصل صحراء مصر الغربية ، بصحراء ليبيا ، التي تدخل فيها فزان ، بالصحراء الكبرى الممتدة جنوبي المغرب ، لتكون طريق اتصال هذه الاقطار جميعاً . كما وتتصل هذه الاقطار ايضاً عن طريق السواحل الضيقة الممتدة في شمالي مصر وبرقة وطرابلس والمغرب ، وعن طريق البحر الابيض المتوسط ، الذي تشرف عليه الاجزاء الشمالية من هذه الاقطار جميعاً .

٣. الانقسامات المصطنعة في العالم العربي

•

ينقسم العالم العربي ، في الوقت الحاضر ، الى أقسام سياسية عديدة تختلف في اتساعها ، ونوع الحكم فيها ، ووضعها الدولي ، ودرجة تقدمها العمراني .

ويتكون القسم الآسيوي من العالم العربي من الاقسام التالية:

١ – **العراق** : ويقع في القسم الشمالي الشرقي ، تبلغ مساحته ١١٦،٦٠٠ ميل مربع ، وعدد سكانه ٤،٩٥٠،٠٠٠ نسمة[١] . وهو دولة ، مستقلة ، ملكية ، وعضو في هيئة الامم المتحدة ، وجامعة الدول العربية. وتفصل العراق كما مر معنا ، بادية الشام عن سورية الطبيعية المنقسمة الى الاقسام التالية :

٢ – **سورية** : وهي دولة مستقلة ، جمهورية ، عضو في هيئة الامم المتحدة وجامعة الدول العربية . تبلغ مساحتها ٦٦،٠٤٦ ميلاً مربعاً ، وعدد سكانها ٣،٣٥٠،٠٠٠ نسمة .

---

(١) لا توجد احصاءات مضبوطة بعدد سكان كل قطر من الاقطار العربية. وقد اعتمدنا على احدث الاحصاءات والتقديرات واكثرها دقة ، مستندين ، في الغالب ، على Harry W. Hazard, **Atlas of Islamic History** (Princeton, 1951) ; R.I.I.A., **The Middle East : A Political and Economic Survey** (London, 1951).

٣ـ **لبنان** : ويقع على ساحل المتوسط غربي الجمهورية السورية وهو دولة مستقلة ، جمهورية ، عضو في هيئة الامم المتحدة وجامعة الدول العربية . تبلغ مساحته ٣٤٧٠ ميلاً مربعاً ، وعدد سكانه ١،٢٣٠،٠٠٠ نسمة . والى الجنوب من لبنان تقع فلسطين التي قُسمت اراضيها ، تقسيما غير محدد تحديداً قانونياً في الوقت الحاضر بين اسرائيل والمملكة الهاشمية الاردنية ، مع وجود اقسام منها تحت ادارة الحكومة المصرية (قطاع غزة) .

٤ ـ **اسرائيل** : وهي دولة مستقلة ، جمهورية ، عضو في هيئة الامم المتحدة مساحتها ٧،٠٠٠ ميل مربع . وعدد سكانها اكثر من مليون نسمة ، اكثر من تسعين بالماية منهم من اليهود ، ولم تعترف الدول العربية بوجودها دولياً ، وما زالت في حالة حرب معها .

٥ـ **المملكة الهاشمية الاردنية** : وهي دولة مستقلة ، ملكية ، عضو في جامعة الدول العربية . تبلغ مساحتها الآن (بعد ضم ٢١٥٠ ميلاً من الاراضي الفلسطينية اليها) ٣٧،٩٠٠ ميل مربع ، وعدد سكانها (بعد ضم ٩٥٠،٠٠٠ من الفلسطينيين) ١،٣٥٠،٠٠٠ نسمة . وتنقسم الجزيرة العربية الى الاقسام السياسية التالية :

٦ ـ **الكويت** : الواقعة على الساحل الغربي للخليج الفارسي ، يحدها العراق من الشمال والغرب ، والمملكة العربيـــة السعودية (الاحساء) من الجنوب . وتبلغ مساحتها (بما فيها جزيرة بوبيان التابعة لها) ٦،٠٠٠ ميلاً مربعاً ، ويزيد عدد سكانها المستقرين عن ١٥٠،٠٠٠ نسمة .

٧ – **البحرين** : وتتألف من مجموعة من الجزر الصغيرة ، اهمها البحرين والمحرق ، تحدها شبه جزيرة قطر من الشرق ، وساحل الاحساء من الغرب . تبلغ مساحتها جميعاً ٢١٣ ميلاً مربعاً ، وعدد سكانها ١٠٩،٥٠٠ نسمة .

٨ – **قطر** : وهي شبه جزيرة صغيرة ، تتوسط الساحل العربي على الخليج الفارسي . تبلغ مساحتها ٨،٥٠٠ ميل مربع ، وعدد سكانها ٢٥،٠٠٠ نسمة . وتقع بين شبه الجزيرة هذه وبين حدود سلطنة عمان ما يسمى :

٩ – **مشيخات الساحل المهادن ، او المشيخات المحمية** : تبلغ مساحتها ١٦،٠٠٠ ميل مربع ، وعدد سكانها ١٠٥،٠٠٠ نسمة . وهي تنقسم الى المشيخات التالية :

الشارجة ، رأس الخيمة ، ام القوين ، العجمان ، دبي ، ابوضبي ، كلبة ، فجيرة .

١٠ – **سلطنة مسقط وعمان** : تبلغ مساحتها ٨٢،٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها ٥٥٠،٠٠٠ نسمة . وتقع في اقصى الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية .

١١ – **محمية عدن** : يقوم على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب بين حدود سلطنة عمان ومستعمرة عدن ، ما يعرف بمحمية عدن ، التي تبلغ مساحتها ١١٣،٠٠٠ ميل مربع ، وعدد سكانها ٦٥٠،٠٠٠ نسمة ، وهي تقسم ادارياً الى قسمين : القسم الشرقي (ومساحته حوالي ٧٠،٠٠٠ ميل مربع) ، والقسم الغربي (ومساحته حوالي ٤٢،٠٠٠ ميل مربع) ، ويحكم كل قسم وكيل بريطاني ، متصل

بحاكم عدن . وتتألف محمية عدن هذه ، بقسميها ، من اكثر من ثلاثين وحدة سياسية ، بين سلطنة ، وامارة ، ومشيخة عشائرية ، اهمها سلطنة لحج ، شمالي مستعمرة عدن ، وسلطنة مكلا والشحر في القسم الشرقي .

ان جميع هذه الأقسام من الجزيرة العربية التي عددناها ، والممتدة على طول سواحل الخليج الفارسي والبحر العربي من الكويت الى عدن ، خاضعة للحماية البريطانية ، على اختلاف اشكالها . يتمتع بعضها بحكومات منظمة ، ذات نظم عصرية نوعاً ما ، كالكويت ، والبحرين وسلطنة عمان ، والباقي منها عبارة عن عشائر يحكمها شيوخها بحسب الشريعة الاسلامية ، والعرف والعادة .

١٢ – **مستعمرة عدن** : وهي مستعمرة بريطانية تقع في اقصى الجنوب الغربي من الجزيرة العربية . تبلغ مساحتها ٧٥ ميلاً مربعاً . وتتبعها جزائر باريم ، ومساحتها خمسة اميال مربعة ، وعدد سكانها ٣٠٠ نسمة ، و كوريا موريا ومساحتها ٣٠ ميلاً مربعاً وعدد سكانها ٢،٢٠٠ نسمة ، وقمران ومساحتها ٢٢ ميلاً مربعاً وعدد سكانها ٢،٢٠٠ نسمة . اما عدد سكان المستعمرة جميعاً فهو : ٨٠،٨٧٦ . منهم ٥٨،٥٠٠ من العرب ، والباقون من الهنود ، والصوماليين ، واليهود .

١٣ – **اليمن** : وتقع في الجنوب الغربي من الجزيرة . تحدها عدن من الجنوب ، والعسير من الشمال ، ونجران من الشرق ، والبحر الأحمر من الغرب . وهي دولة ، مستقلة ، ملكية ، دينية ،

عضو في هيئة الأمم المتحدة ، وجامعة الدول العربية . تبلغ مساحتها ٧٥،٠٠٠ ميل مربع . وعدد سكانها يتراوح بين ثلاثة ملايين ونصف وخمسة ملايين نسمة .

١٤ – **المملكة العربية السعودية** : وتشمل جميع أنحاء الجزيرة العربية ، عدا ما ذكرنا . ويدخل ضمنها ما كان يعرف بالاحساء (ضمت ١٩١٣) ، وسلطنة حائل (ضمت سنة ١٩٢١) ، والحجاز (ضمت سنة ١٩٢٦) ، وعسير (ضمت سنة ١٩٣١) ، ونجد . تبلغ مساحتها ٥٨٠،٠٠٠ ميل مربع ، وعدد سكانها حوالى ٧،٥٠٠،٠٠٠ نسمة . وهي دولة ، مستقلة ، ملكية ، دينية ، عضو في هيئة الأمم المتحدة ، وجامعة الدول العربية .

اما القسم الافريقي من العالم العربي فينقسم الى الأقسام التالية:

١٥ – **مصر** : وهي دولة ، مستقلة ، ملكية ، عضو في هيئة الأمم المتحدة ، وجامعة الدول العربية . تبلغ مساحتها ٣٨٦،١٩٨ ميلاً مربعاً (بما فيها شبه جزيرة سيناء) . وعدد سكانها ١٩،٥٢٨،٠٠٠ نسمة .

١٦ – **السودان (السودان المصري – الانكليزي)** : تبلغ مساحته ٩٦٧،٥٠٠ ميل مربع ، وعدد سكانه ٧،٩١٩،٥٠٠ نسمة وهو خاضع لادارة الحكومتين المصرية والبريطانية الثنائية (Condominium) نظرياً ، أما في الحقيقة الواقعة فهو يدار من قبل الحكومة البريطانية وحدها .

١٧ – **ليبيا** : دولة مستقلة ، ملكية ، اتحادية تبلغ مساحتها ٦٧٩،٣٥٨ ميلاً مربعاً ، وعدد سكانها ١،١٦٠،٠٠٠ نسمة .

وتتكون من مناطق ثلاث : برقة ، وطرابلس ، وفزان .

١٨ - **تونس** : تبلغ مساحتها ٤٨،٣٠٠ ميل مربع ، وعدد سكانها ٣،٢٣٠،٩٥٢ نسمة . وهي محمية فرنسية ، يرأس الحكومة فيها حاكم وطني يدعى باي تونس ، ويتألف مجلس وزرائها من عدد متساوٍ من الوطنيين والافرنسيين .

١٩ - **الجزائر** : تبلغ مساحتها ٨٥١،٠٧٨ ميلا مربعاً ،وعدد سكانها ٨،٦٧٦،٠٠٠ نسمة. وتعتبر الآن جزءاً من فرنسا نفسها .

اما القسم الأخير من المغرب العربي والذي يعرف بمراكش فينقسم الى الأقسام التالية :

٢٠ - **مراكش الافرنسية** : مساحتها ١٥٣،٨٧٠ ميلاً مربعاً ، وعدد سكانها ٨،٣٠٠،٠٠٠ نسمة . وهي سلطنة ، خاضعة للحماية الافرنسية .

٢١ - **مراكش الاسبانية** : وتبلغ مساحة القسم الشمالي منها ٧،٥٩٢ ميلاً مربعاً ، وعدد سكانه ١،١٤٠،٠٠٠ نسمة . ومساحة القسم الجنوبي ١٠،٠٣٩ وعدد سكانه ١٢،٠٠٠ نسمة. وهيخاضعة بقسميها ، للحماية الاسبانية .

٢٢ - **طنجة** : تبلغ مساحتها ٢٢٥ ميلاً مربعاً ، وعدد سكانها ١٢٥،٠٠٠ نسمة ، وهي منطقة دولية .

القسم الثاني

عوامل التقارب والتوحيد

٤ . عوامل التوحيد الاصليـة

•

نقوم بين العرب – الذين رأيناهم في الفصل السابق منقسمين على انفسهم سياسياً ، موزعين في اكثر من عشرين قطراً منفصل بعضها عن بعض – عوامل عديدة ، تقرب بينهم ، وتشد بعضهم الى بعض ، ويعمل تطورها على توحيدهم في امة . من هذه العوامل الوطن المشترك الذي يعيشون فيه والذي بيّنا في الفصل الثاني انه متصل الاجزاء رغم ما يقوم فيه من عوارض طبيعية لم تعد تقوى على وسائل المواصلات الحديثة . ومنها وحدة اللغة ، والتاريخ ، والعقلية ، والدين ، وتقدم المصالح الاقتصادية المشتركة ، وعوامل فرعية اخرى تقوّي ، يوماً بعد يوم ، تأثير هذه العوامل الكبرى ، وتعينها على التطور والنمو ، سنفصلها في مواضعها .

١ – اللغة

ما هي اللغة ؟ أهي مجموعة اصوات ، وكلمات ، وعبارات ، ينطق بها الانسان للتعبير عن حاجاته ؟ أم هي وسيلة لبيان المعاني واحكامها ، واحياناً لاشكالها وابهامها ؟ أم خزانة لثقافة الشعب وتراثه الروحي ؟ أم ديوان لآدابه يصور فيها عواطفه ، ومطامحه ،

وآلامه ، واحلامه ؟ أم سجل لا يمحى لمدنيته وآثاره ؟ أم مفتاح لعواطفه ، وافكاره ، واعماله ، قبل التاريخ ؟ اللغة كل هذا واكثر . هي جزء من كيان الشعب الروحي . هي رمز وحدته الروحية ، وركنها الاعظم .

كانت اللغة العربية ، ولا تزال ، اعظم العوامل الفعالة في توحيد العرب ، وابعدها اثراً في جمع شملهم . وهي العامل المشترك بين جميع الاقطار العربية على اختلاف اللهجات . يفهم العربي ، في الجزيرة ، والبادية والعراق وسورية ولبنان وفلسطين والاردن واليمن ومصر وبرقة والقسم الحضري من المغرب الاقصى ، تعابيرها ، ويطرب لشعرها وامثالها وجوامع كلمها ، ويناجي ربه بها ، ويتغزل بحبيبه بها ، ويشتم اعداءه بها ، ويقسم أيمانه بها ، ويحلم احلامه بها . هي اول ما يسمع عندما يدخل هذه الحياة ويوضع مقمطاً في مهده ، وآخر ما يتلى فوق جثمانه عندما يمدد مكفناً في لحده . ومهما يختلف العربي عن العربي من حيث المستوى الاجتماعي والثقافي ، ومن حيث البيئة الجغرافية والدينية ، يترنح طرباً ، لا بل سكراً ، لتلاوة القرآن ، او انشاد الاشعار ، او استعمال جوامع الكلم والامثال . وهؤلاء الذين كانوا ينادون بالفرعونية في مصر ، وبالفينيقية في لبنان ، وبالقومية السورية في سورية ولبنان اليوم ، وبالاقليمية الضيقة في كل اقليم عربي ، اية لغة تراهم اصطنعوا في نشر دعوتهم ، والتعبير عن افكارهم ، والتمكين لمذهبهم ؟ أتراهم اصطنعوا الهيروغليفية ، والفينيقية ، والسريانية ؟ لا ! انهم اصطنعوا اللغة العربية ، التي لا تفهم جماهير

الشعب سواها ، ولا تصغي لمن يخاطبها بغيرها .

قد تقول : ولكن لغة الشعوب العربية غير واحدة . فابناء كل قطر يتكلمون لهجة تختلف عن لهجات الاقطار الاخرى . ان هذا الاعتراض حق لا شك فيه . وحق كذلك ان تقول : ان سكان كل قطر عربي يتكلمون لهجات محلية مختلفة . فلهجة سكان جنوبي فلسطين تختلف عن لهجة سكان شماليه ، اختلافَ لهجة فلسطين عامة عن لهجات سورية ولبنان مثلاً . والفروق القائمة بين لهجة سكان مدينتي الموصل والعمارة في المملكة العراقية اعظم من الفروق القائمة بين لهجات سكان فلسطين وسورية او لبنان . ولكن هذا الاعتراض ليس الحق كله . فان هذه اللهجات لم تتطور الى لغات مستقلة ، قائمة بنفسها ، مختلفة في تراكيب جملها ، ومعاني مفرداتها اختلافاً اساسياً . ذلك ان وحدة الامة الروحية، القائمة على القرآن، بقيت سليمة بعد ان تجزأت الامة سياسياً . لقد استمر العرب المسلمون ، في عهد انقسامهم السياسي كما كانوا في عهد وحدتهم ، يتلون القرآن كل يوم خمس مرات في صلواتهم . وظل القرآن والحديث ، وما الف حول القرآن والحديث من كتب في مختلف المواضيع بالاضافة الى كتب الادب القديم ، تتلى في المساجد والمدارس، وحيثما كان الناس يجتمعون للدراسة او السمر. وبقي الخطباء يخطبون الناس ايام الجمع والاعياد باللغة العربية الفصحى. وبهذا ظلت عامة الشعب على اتصال بالفصحى ، يفهمونها، ويتأثرون بها في احاديثهم وتعابيرهم وفيما ينظمه شعراؤهم [1] . وهذا

(١) يقول الشاعر رشيد نخله ، في مقدمة قصته الزجلية محن الهزان (الطبعة

هو اهم عامل اوقف اللهجات العامية عن التطور الى لغات مستقلة ، قائمة بذاتها ، علاقتها باللغة العربية الفصحى الأم علاقة الافرنسية ، والاسبانية ، والايطالية الحديثة ، باللغة اللاتينية الميتة .

وقد زاد قيام النهضة القومية العربية ، في العصر الحديث ، على النهضة الادبية ، في اهمية اللغة الفصحى ، وضاءل من تأثير الفوارق الحادة في اللهجات العامية . وقد ساعدت ترجمة الكتاب المقدس ، بعهديه القديم والحديث ، الى اللغة العربية الفصحى ، على تقريب هذه اللغة الادبية من افهام جماهير المسيحيين العرب ، ومَحْو ما عسى ان يكون من فوارق بين لهجاتهم ولهجات اخوانهم العرب المسلمين الساكنين في القطر الواحد ، او في الاقطار المتباعدة . وبعد: ايوجد قطر في العالم يتكلم سكان جميع طبقاته لهجة واحدة؟ ايوجد قطر في العالم يتكلم سكان جميع مناطقه لهجة واحدة ؟ بل اتوجد مدينة كبيرة واحدة تتكلم جميع احيائها لهجة واحدة ؟

اللغة الفصحى ، هذه الرابطة الحية بين العرب ، آخذة بالنمو من يوم الى يوم ، لازدياد عدد المدارس ، وانتشار الجرائد والمجلات والسينما والراديو ، ولنمو شبكة المواصلات بين الاقطار العربية ، بعضها مع بعض من جهة ، وبين اطراف القطر الواحد من جهة

الثانية ، صيدا ، ص ١٠) : « بقي شيء آخر ارى التبسط فيه ، اليوم ، لزاماً علي . وهو ما يقوم في الاذهان من ان الزجل بمثابة حرب على الفصحى . فاستغفر الله الف مرة !! ما كان الزجل في الاندلس امس ، ولا في مصر ، ولبنان ، اليوم ليزج بنفسه هذه الزجة ! فانما الزجل ، فخره ، كله في ان يرى وجهه في زاوية من مرآة الفصحى ، ويكون عليه شيء من روعتها ، وشيء من طلاوة الفاظها وحلاوة حواشيها ، ولباقة الاخذ بين خافيها وباديها . »

اخرى . فالاتجاه الآن ، الذي تحقق في خطوات موفقة منذ فجر النهضة القومية في القرن التاسع عشر ، نحو لغة واحدة ، مبسطة ، موحَّدَة ، موحِدة ، تذوب فيها جميع اللهجات ، فيختفي عامل من عوامل التفريق .

٢ — التاريخ

ثاني عوامل التوحيد التاريخ : بحوادثه ، ومعاركه ، وأبطاله . بانتصار الشعب وانكساره . بافراحه واحزانه ، بسرائه وضرائه ، برواياته ، واساطيره ، وقصصه وخرافاته . وبما يثير في جماهير الشعب من روح وثابة تدفعها الى الأمام . وبما يثير فيها احياناً من خدر روحي يقعد بها عن الكفاح . ليس التاريخ عند العرب ماضياً ، بعيداً ، ميتاً ، يستعيدونه عندما يشاؤون ، وينسونه عندما يريدون ، ويتدارسونه في مظانه عندما تدفعهم الحاجة الى حفظه وتذكره . بل هو حي بينهم ، قريب منهم . ان العرب يعيشون تاريخهم .

وعلى الرغم من ان العرب الأحياء قد تكونوا من امتزاج اقوام عديدة بالعنصر العربي ، فان الذكريات التاريخية التي تسيطر على عقليتهم ، الواعية وغير الواعية ، هي ذكريات التاريخ العربي الذي يبتدىء عندهم بالرسالة المحمدية ، واذا أوغل في القدم ، فبهذه الفترة الغامضة التي يدعونها بالعصر الجاهلي والتي كانت توطئة للرسالة المحمدية ، ويمتد الى آخر زمان المجد العربي . ان جماهير العرب لا تذكر شيئاً من امر هذه المدنيات القديمة التي ازدهرت في العالم

العربي قبل ظهور الاسلام ، ولا من امر الأقوام الذين انشأوها . وانها لتذكر التاريخ العربي ، او قل تحسّه ، كأنه جزء عضوي من وجودها . ولن تجد بين الشعوب العربية من سمع ، او من يعتز ، بحمورابي ، او اسرحدون ، او نبوخذنصر ، او هانيبال ، او زعمسيس الثاني . ولكن كل واحد منهم يعرف الشيء الكثير او القليل عن النبي محمد ، وعمر ، وعلي ، والحسين ، ومعاوية ، وخالد ، والرشيد ، وصلاح الدين ، وعنترة بن شداد . ان احساس العرب بتاريخهم على هذا الشكل هو نتيجة لشعورهم بكونهم عرباً وهو في الوقت نفسه ، احد عوامل هذا الشعور . وشعور العرب هذا ، على اختلاف الأصول الجنسية التي تحدروا منها ، يعدل شعورهم بانهم يتحدرون من اصل واحد ، ويجري في عروقهم دم واحد ، ويقوم مقامه ، او يلتبس به ، في اكثر الاحيان .

التاريخ العربي حي في اذهان الجماهير العربية لأنه والاسلام ، عندها ، شيء واحد . والاسلام في العالم العربي حي يطالع المرء أينما ألقى نظره . يطالعه في هذه المساجد العتيقة الوقورة ، ترتفع من مآذنها الجميلة الشامخة ، اصوات المؤذنين بذكر الله ورسوله ، داعية المسلمين الى الصلاة خمس مرات في اليوم الواحد . ويطالعه في هذه الآثار المتخلفة عن العرب ، يوم ان كان العرب أسياد مصيرهم . وسيرة النبي محمد ، وخلفائه الراشدين ، واخبار الخلفاء العظام ، والقواد الفاتحين ، وأئمة الدين ، على كل لسان[٢]. انك لن

(٢) من ذلك احتفال المسلمين بذكرى المولد النبوي ، والهجرة ، كل عام احتفالاً لا يكاد يخلو منه حي يسكنه العرب المسلمون ، في اية مدينة عربية .

تجد شعباً من الشعوب يحيا ماضيه البعيد كالعرب . فهم يتكلمون عن اعمال ابطالهم كأنها حدثت البارحة . وهم يختلفون حول ما كان يختلف عليه صحابة الرسول وتابعوهم ، كأن هذه الخلافات قائمة اليوم . وهذا القصص الشعبي — الف ليلة وليلة ، وسيرة عنترة ، وسيف بن ذي يزن ، والزير سالم ، وابي زيد الهلالي ، والظاهر بيبرس ، وكتب المغازي والفتوح — الذي كانت جماهير الشعب تقبل عليه في الماضي ، وما زال كثير منهم يقبلون عليه اليوم ، انما يدور ، اكثر ما يدور ، حول حوادث واساطير تتصل بتاريخ العرب الغابرين ، ومدنيتهم من قريب او بعيد . ويدمن كثير ممن يعرفون القراءة من العرب ، على مطالعة كتب التاريخ العربي ، والادب العربي ، كأنها الجرائد والمجلات تطالعهم بانباء اليوم والأمس القريب .

لقد كاد اهتمام العرب بتاريخهم القديم ، وانصرافهم الى الماضي ، ان يكون حالة مرضيّة . على ان هذه الحالة ليست مخالفة لطبيعة الأشياء . فهي ناتجة عن بؤس حياة عامة الناس ، وسوء الأوضاع السياسية والاجتماعية التي حلت بالعالم العربي منذ انهيار الدولة العباسية والدول العربية الاخرى في الأندلس والشمال الافريقي . فهم يعيشون في ماضيهم المزدهر ، العظيم ، الجميل ، كما يهرب الفاشل في الحياة ، ومن خابت آماله ، الى ذكريات ماضيه الجميلة ، يعيش

من ذلك احتفال المسلمين وخاصة الشيعة ، بعاشوراء ، واحياء ما جرى فيها من وقائع فاجعة . انظر وصفاً لاحتفال الشيعة بعاشوراء في العراق في : Ernest Main, **Iraq From Mandate to Independence** (London, 1933), pp. 158-161 ; وانظر كذلك : C.S. Coon, **Caravan** p. 124

فيها ، ويجترها في شبه غيبوبة عن تعاسة حاضره . وهذا ما دعا كثيراً من قادة النهضة الحديثة الى نقد هذه الحالة ، والتنديد بهذا الاتجاه ٣.

صحيح ان ابناء كل قطر عربي يتأثرون بالحوادث التاريخية التي وقعت وتقع ، في قطرهم ، او في مدينتهم ، أو بين الأسر أو القبائل التي ينتمون اليها. وصحيح كذلك ان هذا التاريخ يعمل ، أحياناً ، على تفكيك الشعور بالوحدة بما يحيي في أذهان الناس من خلافات – معظمها دينية مذهبية ، ونعرات قبلية بدائية – كان يجب ان تطوى لذهاب أسبابها ، وزوال ظروفها. ولكن ذكريات التاريخ العربي بمجموعه هي التي تطبع عقلية الجماهير العربية بطابعها الراسخ ، وتملي على ذاكرتها ما تحفظ . ومن هنا جاءت أهمية التاريخ العربي من كونه أداة لتوحيد عواطف العرب ، وتغذيتهم بوعي جماعي ، وإشعارهم بأنهم أبناء أمة واحدة ، تعاون أجدادهم في الماضي على إقامة المدنية العربية . والاتجاه القومي الحديث هو الى اتخاذ التاريخ العربي – بحوادثه وأبطاله وبهذه المدنية التي

---

(٣) راجع قصيدة الشاعر العراقي ، معروف الرصافي « نحن والماضي » ، ديوان معروف الرصافي ، الطبعة الثالثة ، (مصر ، ١٩٤١) ، ص ٣٤-٣٦ والتي يقول فيها :

اری مستقبل الایام اولی ... بمطمح من يحاول ان يسودا
فوجه وجه عزمك نحو آت ... ولا تلفت الى الماضين جيدا
وهل ان كان حاضرنا شقيا ... نسود بكون ماضينا سعيدا
فشر العالمين ذوو خمول ... اذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخير الناس ذو حسب قديم ... اقام لنفسه حسباً جديدا

أنشأها العرب ، مسلمون وغيرهم ، متعاونين - دافعاً الى الأمام ، وحافزاً للهمم للخروج بالعرب من الحالة الشقية التي يحيونهـا ، مع التوهين من أمر الخلافات الماضية ، وصرف الأذهان عنها ، الى ما كان يجمع العرب ، ويوحدهم ، من شؤون المدنية والحياة .

ويرفد التاريخ العربي القديم تاريخ الحركات العربيـة الشعبية التحررية ، وتاريخ النهضة القومية في الآداب والعلوم ، منذ مطلع القرن التاسع . وقد أصبح هذا التاريخ الحديث جزءاً من التاريخ القومي للعرب ، يعتزون به ، ويتأثرون بسير أبطاله ، ويتخذه قادة الحركات القومية سنداً لدعم الشعور بالتحرر والوحدة . ولقـد أصبح نضال الأمير عبد القادر في الجزائر ، وعبد الكريم الخطابي في مراكش ، وعمر المختار في برقة ، وعرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول في مصر ، والملك حسين في الحجاز ، ومئات القادة والأبطال الذين استشهدوا في سبيل استقلال بـلادهم في العراق وفلسطين وسورية ولبنان ، ضد الأتراك العثمانيين ، والانكليز والفرنسيين ، من أمجاد العرب المعاصرين .

والى جانب هذا التاريخ العام الموحـد يقوم تاريخ إقليمي ، ضيق الآفاق ، يعمل دعاة الاقليمية على ترويجه وغرسه في قلوب الناس ، والناشئين منهم بخاصة ، بواسطة المدارس ، وبالمؤلفـات والجرائد ، وبغير ذلك من وسائل الدعاية والنشر . وقـد أخذت هذه الظاهرة تقوى بعد ان تحقق تقسيم البلاد العربيـة إلى دول متعددة ، وظهرت فيها أسر حاكمة ، ومتنفـذون ذوو أطماع محلية . وهذا التاريخ الذي يقوم على ذكر حوادث القطر الواحد

منفصلة عن حوادث الأقطار العربية الأخرى ، والاشادة بأمجاد الأسر الحاكمة ، الحقيقية والمنتحلة ، وإظهار ما يشجر بين هذه الأسر الحاكمة من خلافات ، كأنها خلافات قائمة بين الشعوب العربية نفسها ، يدعم الاقليمية، ويزيد من عوامل التباعد بين البلاد العربية .

٣ — الدين

الاسلام هو دين السواد الأعظم من العرب . وهو احد العوامل القوية التي تقرب بين البلاد العربية ، وتشد بعضها الى بعض . ونحن حين نذكر الاسلام بين عوامل التقريب لا نجهل ان الدين لا يكون أساساً للقومية بمعناها الصحيح . فالرابطة القومية هي غير رابطة الدين ، بل هي قد حلّت ، في الأمم الحديثة ، محل الرابطة الدينية القديمة . وإنما نريد ان نبيّن أثره ، الماضي والحاضر، في التقريب بين العرب ، وفي تعزيز أسس القومية العربية . فأهمية الاسلام ، كعامل من عوامل التوحيد ، تأتي من كونه في نظر المسلمين ، نظاماً تاماً ، شاملاً لمتطلبات الدنيا والآخرة . فهو دين يعيّن علاقة الانسان بربه . وهو نظام اجتماعي يحدد شكل الأسرة، وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض ، وسلوك الأفراد في معاملاتهم الدنيوية ، وفي كيفية حصولهم على العيش . وهو نظام سياسي ، وتشريع مدني ، يعيّن شكل الدولة ، وعلاقة الحاكم بالمحكوم . وهو إلى كل ما تقدم علم ، ومدنية ، وتاريخ . قد لا يكون الاسلام كل ما ذكرنا في بدء نشأته ، وفي نقاوته الأولى ، كما بشر

به الرسول في قرآنه وفي الصحيح من حديثه ، وكما عقله الصحابة والتابعون . ولكنه أصبح كذلك فيما بعد ، وأصبح المسلمون ينظرون اليه هذه النظرة الشاملة ، وهو المهم فيما يختص ببحثنا هذا . لأن فكرة الناس عن الدين ، وعن المثل العليا في الحياة ، هي التي تتحكم في تفكيرهم ، وتسيطر على نفوسهم ، وتوجه سلوكهم، سواء أكانت تلك الفكرة مطابقة أصل الدين، ولماوضع من مثل عليا في الحياة ، أم غير مطابقة . وما يشاهد اليوم ، في الأقطار العربية ، من تشابه في نظام الأسرة ، وفي عقلية الناس ، وفي سلوكهم أفراداً وجماعات ، يرجع ، إلى حد بعيد ، إلى انضوائهم تحت لواء الاسلام ، وعيشهم في ظل ما أنتج من نظم اجتماعية وسياسية وعقلية . وقد تكلمنا في القسم الأول من هذا الفصل عن أثر القرآن خاصة ، والأدب الاسلامي عامة ، في حفظ اللغة الفصحى من الانقراض ، والحد من تطور اللهجات الاقليمية العامية . وبذلك حفظ الاسلام عاملاً مهماً من عوامل التقارب بين العرب ، بل أهم مقومات الأمة العربية .

على ان اثر الاسلام في التقريب بين الاقطار العربية لا يقتصر على ما تقدم ، اي على جعله النظم الاجتماعية والفكرية متشابهة ، بل يمتد الى ابعد من ذلك . فهو يوحد العرب المسلمين عاطفياً ، ويربطهم بوحدة المثل الاعلى . لقد كان الاسلام ، وما زال في قلوب الكثيرين من العرب اليوم ، يقوم مقام القومية . وكانت عاطفة الاخوة الاسلامية تقوم مقام عاطفة القومية . والحق ان جماهير الشعب العربي في اي قطر عربي ، تنظر الى شعوب الاقطار

العربية الاخرى ، كاخوان لهم يوحدهم الاسلام اولاً والعروبة ثانياً . وان عاطفة الاخوة الدينية هذه هي التي الفت بين الاقليات القومية المسلمة ، كالاكراد والبربر والزنوج ، وبين العرب . وبهذا نستطيع ان نفسر محاولات الانكليز لمنع تسرب الاسلام الى القبائل الوثنية الساكنة في جنوب السودان ، ودأب الافرنسيين على اضعاف الدين الاسلامي واللغة العربية في المغرب الاقصى ، وبين قبائل البربر خاصة ، لتوهين الوحدة الروحية التي تربطهم بالعرب [٤] .

على ان تعدد الاديان في العالم العربي ، وانقسام كل دين الى مذاهب وطوائف متعددة ، مختلفة ، واحياناً متعادية ، يحمل في تضاعيفه جرثومة التفريق بين العرب . كما ان الحركات السياسية الناشئة ، الناشطة ، القائمة على اساس الدين ، واهمها حركة الاخوان المسلمين ، تعارض في جوهرها فكرة القومية العربية الناهضة . وهي وان سارت مع الحركات القومية والاصلاحية العصرية جنباً الى جنب في معركة التحرر من الاستعباد الاجنبي ، إلا انها تحمل في تضاعيفها جرثومة الصدام المنتظر بينها وبين هذه الحركات جميعاً . ثم ان قيام بعض الدول العربية على اسس دينية ، وقيام الدول الاخرى على اسس عصرية ، من العوامل التي تباعد بين

(٤) ما مقدار ما في عاطفة الاخوة الدينية هذه من ايجابية؟ او بعبارة اخرى الى اي حد يندفع مسلمو قطر عربي لنصرة مسلمي قطر عربي آخر ؟ الحق ان نتائج هذه العاطفة الدينية العملية كانت ضعيفة . ومرجع ذلك ، في رأينا ، الى الظروف السياسية والاجتماعية التي تحيط بالعرب المسلمين ، اكثر مما ترجع الى قوة هذه العاطفة او ضعفها .

الاقطار العربية ، وتحول ، مع عوامل اخرى ، دون وحدتها السياسية .

٤ — العقلية

رابع عوامل التقريب بين العرب هو تشابه عقليتهم ، او مزاجهم ، او تكوينهم النفسي بتعبير اوسع وادق . ونعني بذلك تشابه نظرة العرب الى شؤون الحياة المختلفة ، وكيفية استجابتهم للمؤثرات الخارجية . فالعرب ، بصورة عامة ، ينظرون الى الامور التافهة والمهمة نظرة متماثلة . وهم ، مسلمين وغير مسلمين ، متشابهون في نظرتهم الى قيمة الشخصية الانسانية ، والى العمل الانساني ، والى الوقت ، والى المرأة ، وفي فهمهم للشرف والشهامة ، وقضية العرض ، والوفاء ، والكرم ، والضيافة ، وحماية الجار ، وما الى ذلك من العادات والقيم الاجتماعية التي هي المظهر الخارجي ، او العملي ، لنفسيتهم .

من البديهي ان نفسية الناس اطلاقاً ، مهما كان جنس هؤلاء الناس ولونهم وموطنهم ، واحدة في الاصل . إلا انها تتكيف ، وتتشكل باشكال مختلفة ، وتكتسب صفات اضافية ، تحت الظروف المادية والروحية والتاريخية المختلفة . فاذا زالت هذه الظروف ، او تحورت ، تغيرت معها نفسية القوم ، وان كان التغير النفساني ابطأ حدوثاً ، واشد تعقيداً ، واصعب ملاحظة وتحديداً . ومن هنا كان اختلاف نفسية قوم عن قوم واختلاف نفسية القوم الواحد باختلاف الظروف . فنفسية العمال الفرنسيين

غير نفسية الاسكيمو ، او زنوج افريقية ، او بدو جزيرة العرب، او فلاحي الهنـــد ومصر والعراق ، او العـــمال الاستخانوفيين والفلاحين التعاونيين في الاتحـــاد السوفياتي . ونفسية الفرنسيين عموماً اليوم هي غير نفسية الفرنسيين في القرون الوسطى . ونفسية اولئك تختلف عن نفسية اجدادهم من قبائل الغال الهمجية .

تشابهت نفسية العرب نتيجة لعوامل عديدة ، معقدة ، تفاعلت دهوراً . اهمها تشابه الاسس الاقتصادية ، والاجتماعية ، والروحية التي يقوم عليها المجتمع العربي . فقد كان هذا المجتمع منـــذ أقدم العصور ، وما زال اليوم بصورة عامة ، مجتمعاً زراعياً، اقطاعياً ، قبلياً ، دينياً . لقد سيطر الروح الديني – بمفهومه الشرقي واهم عناصره الايمان بالغيب، والاستسلام للمقادير – على الناس دهوراً. من قلب هذه البلاد انبثقت الديانات السماوية الكبرى الثلاث . وكانت الحياة الاقتصادية ، وما زالت تقوم على الزراعة ، وعلى المهن والحِرَف (ه) ، والصناعات اليدوية البسيطة في المدن ، حيث يستغل قلة من الزعماء المتنفذين ، وشيوخ القبائل ، والاقطاعيين جهود الكثرة من الفلاحين الجهـــلاء ، المعدمين ، المرضى ، الذين يشقون قلب الأرض ، ويحصدون الزرع ، ويدرسون الحصيد ، بادوات بدائية ، شاخ الدهر ولم تتغير . يضاف الى هذا ان جزءاً

(ه) لاحظ ان كلمة « مهنة » بمعنى الحرفة والصناعة مأخوذة من المهانة اي الحقارة والضعة ، وهذا من ثمرات العقلية البدوية التى تعتبر الغزو والفتح ، صناعة الاشراف ، وما عداها من الصناعات محتقرة مهانة لا تليق بالسادة والاقوياء ، بل هي من وظائف المغلوبين الضعاف .

كبيراً من السكان قبائل بدوية رحالة ، او شبه مستقرة ، على اتصال محكم بالسكان ، وخاصة بسكان الأرياف ، تؤثر فيهم بعقليتها القبلية البدوية. والحكومات التي قامت في العالم العربي حكومات ثيوقراطية ، او استبدادية ، تتحكم في مصائرها قلة من الاقوياء ، يستخدمون السوط والدين في اخضاع الرعية[٦] ، وتسييرها صامتة ، خافضة الرأس ، لتنفيذ مشيئاتهم ، يضاف الى العوامل المتقدمة اثر اللغة العربية — بآثارها المكتوبة والمروية من شعر ، وقصص ، وأساطير ، وامثال ، وحكم ، وأغان — وباساليبها في التعبير — في قولبة تفكير العرب ، وتوجيه أذواقهم ، وغرس نماذج للحياة الفضلى ، والجمال الأكمل ، في نفوسهم . ثم ان الأدب العربي ، بصورة عامة ، مشبع بالروح الاسلامي .

على ان نفسية العرب المتشابهة هذه ، التي تقرب بين العرب من حيث تجعلهم متشابهين في خصائصهم الأصلية ، لا تخلو من خصائص تعمل على تفكيكهم ، وتقعد بهم عن التعاون والاتحاد . فمن خصائص النفسية العربية الايمان المطلق بالغيب ، والتوكل على القضاء والقدر ، والتسليم لما يأتي به الغد . وهذا الايمان بالغيب ، والاستسلام للقدر ، اذا لازم قوماً في عصر ضعفهم السياسي ، وجمودهم العقلي ، وتأخرهم الاقتصادي والاجتماعي ، شل ارادتهم

(٦) لاحظ ان كلمة « رعية » اي الشعب عموماً مشتقة من رعي الماشية . جاء في لسان العرب في مادة رعى : « رعى رعياً ورعاية ومرعى رعت الماشية الكلأ سرحت فيه واكلته — . ورعى الماشية سرحها فيه — ورعى الامير رعيته رعاية ساسها وتدبر شؤونها . »

الخلاقة ، وجعلهم مستسلمين الى احلام الماضي ، غير مبالين بقضاياهم الكبرى الملحة [٧].

ومن خصائص النفسية العربية الروح الفردية التي تجعل الفرد يهتم بنفسه ، وبعشيرته ، ولا يقدم ولاءه للدولة الا مرغماً [٨]. هذه

---

(٧) بحث اسماعيل مظهر في كتابه وثبة الشرق ، (القاهرة ، ١٩٢٩) ، في خصائص العقلية الشرقية والعربية ، ولخص فيه ثلاثة كتب لثلاثة من الكتاب الاتراك . وقد بحث الدكتور علي حسين الوردي في كتابه شخصية الفرد العراقي (بغداد ، ١٩٥١) نفسية الشعب العراقي . وبحث الدكتور الوردي وان كان قائماً على بحث الفرد العراقي فهو يكاد ينطبق على الفرد العربي عامة . وقد لاحظ الدكتور الوردي ان في نفسية الفرد العراقي ازدواجاً مركزاً ومتغلغلاً في اعماق نفسه . ومرد ذلك الى ان العراق واقع على هامش البداوة والمدنية فنشأ فيه نظامان للقيم،نظام يؤمن بالقوة والبسالة وتسود فيه قيم الشجاعة والاباء والكبرياء. وبجانبه نظام آخر يؤمن بالكدح والصبر ويمارس اداء الضريبة والخضوع والتباكي. ومرده ايضاً الى هذا الانفصال القائم بين عالم الرجل والمرأة والطفل، والى التربية التي يتلقاها الانسان منذ حداثته في البيت، والمدرسة، والشارع، والى هذه الفروق القائمة بين اللغة الفصحى، لغة الكتابة والخطابة، واللغة العامية ، لغة الاعمال اليومية.

(٨) لقد خضع العالم العربي ، منذ اقدم الازمان ، لموجات متعددة من الغزاة والفاتحين . واذ كان اولئك الغزاة يأتون ، في الغالب ، باعداد قليلة لا تستطيع ان تنتشر في جميع مناطق البلاد ، فقد كانوا يحتلون المدن ويفرضون على سائر مناطق البلاد ، والريف بخاصة ، حكمهم القائم على كبت الشعور العام ، وابتزاز الضرائب الفادحة . وعلى هذا فقد تأصل ، في قلوب الناس عامة وسكان الريف خاصة ، كره الحكومات القائمة ، والتخوف من رجالها ، واعتبار الدولة شراً مطلقاً يجدر التخلص منه متى سنحت الفرصة. وخضوع الشعب للحكومات المستبدة، ومعظمها اجنبيـــة ، دهوراً طويلة ، ولد في نفس الشعب الخوف منها ، واضعف ثقته بنفسه ، واعتزازه بشخصيته وكرامته . ولعل هذه الحقائق تفسر لنا ما نرى من هبات للشعب ضد الحكومات، سرعان ما تتبدد وتخفت ، وتتحول الى استكانة ذليلة ، وتذمر مهموس ..

الفردية الناتجة عن الروح القبلية ، والنظام الاقطاعي ، وعن دهور طويلة من عسف الحكومـــات ، تسلم الفرد العربي الى العزلة ، والخوف من الغرباء ، والتشكيك في نياتهم ، وتقعدُ به عن التعاون مع غـــيره ، وضم جهوده الى جهود الآخرين ، وتجعل الأفراد مستمسكين باقليميتهم الضيقة ، سريعين الى المشاركة في المنازعات القبلية ، او الحزبية ، او الطائفية ، دون تفكير في المصلحة القومية الكبرى[٩]. ومن طبيعة المزاج العربي تصور اي عمل كان في شكل وثبات متفرقة لا بصورة جهد متصل ، مستمر . ولهذا كان تاريخ

---

(٩) يروي امين الريحاني (ملوك العرب ، ج ١ الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٩٥١ ، ص ١١٧) هذا الحديث المعبر الذي حدثه به احد مرافقيه من السادة اليمنيين : « ابتسم السيد محمـــد وقال : ... انا اطلعك على ما لا علم لك به . شكوت بيوتنا الضيقة ، وسقوفها الواطئة ، ونوافذها الصغيرة . فلو سحت في عسير لوجدت البيوت هناك اضيق واظلم . اتعرف السبب ؟ لا يزال أهل اليمن وعسير وحشيين ، لا يثـــق الواحد منهم باخيه ، ولا يركن اليه . حياتهم خوف دائم واضطراب . هكذا ينـــامون في عسير – وبادر الى بندقيته فوضعها بين جنبيه وضمها اليه – هم كالحيوانات البرية يخشون كل من يدنو منهم . وفي اليمن ، قـــد رأيت بعينك : الناس كلهم مسلحون ، وكلهم يقاتلون ، ويقتلون لامر طفيف . نحن نغار على حقوقنا . ما قيمة هذا ؟ – واخذ بيده فنجان القهوة – ولكنه لي ، هو حقي . فاذا اخذته مني ، اغتصبته ، وما سمعت احتجاجي اقاتلك ، استل عليك هذه الجنبية (خنجر يشده الرجل على جنبه –) ، اذبحك . هذه طريقتنا في اليمن . واذا حدث قتال بين بيتين في هذه القرية مثلاً ينضم اهلها وقد انقسموا حزبين ، الى المتقاتلين ، فتشب في القرية نار حرب ، وعندما تنطفىء يتساءلون : وما السبب في القتال بين فلان وفلان ؟ يقاتلون اولا ثم يستعلمون . هذه طريقتنا في اليمن ، نحارب حتى اهلنا . يحارب الاخ اخاه ، والابن اباه . فاذا كانت هذه حال بعضنا مع بعض فكيف تكون حالنا مع الاجانب ؟ ».

حركة العرب القومية سجلاً لانفجارات ناشطة، تخللها فترات استشفاء واستجمام [10]

(١٠) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، الطبعة العربية ص ٩١ و ص ٨٩ من الاصـــل .

٥. عوامل التقارب والتوحيد الجديدة: الداخلية

●

ان العوامل التي تكلمنا عنها في الفصل السابق هي من أهم الأسس التي تستند اليها القومية العربية، ويقوم عليها كيان الامة العربية. ولكنها، كما هي وحدها، لا تكفي لتوحيد العرب في امة، وجمعهم في وحدة سياسية. بل هي لا تكفي للتقريب بين العرب تقريباً صحيحاً يصون مصالحهم، ويؤدي الى منفعتهم جميعاً. فالامة الحية المتماسكة لا تتكون من افراد متماثلين في اللغة والعقلية، مشتركين في الوطن والتاريخ فحسب، وانما تتكون من افراد يعي كل واحد منهم، او الطليعة منهم على الأقل، ذاته، ويعي انه جزء من كلٍّ هو الأمة باسرها، بحيث يقدم ولاءه لها خالصاً، متخلياً عن كل ولاء آخر سواء أكان عائلياً، ام قبلياً، ام طائفياً، ام اقليمياً. ويدرك ان مصلحة الأمة هي مصلحته، وان افراحها افراحه، وامجادها امجاده، وفشلها فشله. ومن ثم يسعى لتفهم وضع امته ومشاكلها، ليعمل على تحريرها، وتقدمها، وتوحيدها. وبدون هذا الوعي العميق لحقيقة الأمة، والقومية، والدولة، الذي يطلق عليه المفكرون الحديثون «الوعي القومي»، لا يرجى للامة تحرر، ولا تقدم، ولا وحدة. ان الوحدة السياسية لن

تتحقق ، ولن تدوم اذا تحققت ، ما لم تصبح عقيدة تعتنقها الجماهير. بل ان مجرد التقارب العربي الصحيح لن يتحقق ما لم تعِ جماهير الشعوب العربية اهمية هـذا التقارب ، وتأخذ تحقيقه على عاتقها . وسنبحث في هذا الفصل القوى الجديدة التي دخلت العالم العربي ، والتي تعمل على تقوية الوعي القومي بين ابنائه ، وتطوير عوامل الوحدة فيه ، وتحويل هذا الشعور العفوي الغامض بالقومية العربية ، وبالاخاء العربي ، الى شعور قومي ، واعٍ ، مستنير ، عميق .

١ — المدارس

في العالم العربي ، اليوم ، نوعان من المدارس : قديمة وحديثة . اما المدارس القديمة فهي من متحجرات المدارس التي كانت مزدهرة في عصور تقدم العرب . وهي منتشرة في الأقطار المتخلفة حضارياً كاليمن ، والعربيــة السعودية ، والسودان ، والمغرب الأقصى ، وبدرجة اقل في مصر وباقي أجزاء العالم العربي. وهي تعلم الطلاب ، في المرحلة الابتدائيـة او ما يسمى بـ « الكتاتيب » : القرآن ، والخط ، والحساب ، وشيئاً من علوم اللغة والدين . وهي تزوّد الطلاب في مراحلها العليا — واهم مراكزهـا جامع الزيتونة في تونس ، وهو المركز الثقافي الأصيل في المغرب الاقصى باجمعه ، والأزهر الذي يؤمه الطلبة من مختلف الاقطار العربية والاسلامية ، ومدارس النجف وكربلاء المتعددة ، وهي مراكز الثقافة الادبية ، والدينية على المذهب الشيعي — بثقافة دينية ، ولغوية ، وادبية شاملة ، مفصلة . وقد عملت هذه المدارس جميعاً ، من كتاتيب

الصبيان الى حلقات التخصص ، ولا تزال تعمل ، على حفظ اللغة العربية ، والادب العربي القديم ، والتاريخ العربي ، والتقاليد المأثورة العربية ، في اذهان الناشئة ونفوسهم . ولكن هذه المدارس باقتصارها على قشور الثقافة الاسلامية، وحصرها اذهان الطلاب في المشاكل اللغوية والادبية والجدل الفقهي ، وتجاهلها العلوم الحديثة، وعدم اتباعها الطرق العصرية في التربية والتعليم ، جعلت من طلابها سطحي الثقافة ، ضيقي آفاق التفكير ، جامدين ، سلفي الاتجاه ، بعيدين عن واقع الحياة العصرية ومتطلبات الامة العربية في حاضرها ومستقبلها ، مزودين بوعي اسلامي اكثر بما هم مزودون بوعي قومي عربي صحيح .

اما المدارس العصرية التي ظهرت في مصر في مطلع القرن التاسع عشر ثم انتشرت في البلاد العربية ، بدرجات متفاوتة ، منذ النصف الثاني منه ، فهي التي تعنينا هنا . فهذه المدارس التي تزوّد الطلاب بالثقافة العصرية ، وتتبع النظم العصرية في التربية والتعليم، على اختلاف الطرق والاساليب التي تتبعها ، هي من اهم العوامل الفعالة في نشر الوعي القومي ، وإعداد الجيل الجديد لحمل قضية الامة العربية في التحرر ، والتقدم، والوحدة . فهي من حيث تتخذ العربية لغة للتدريس تعمم اللغة الفصحى، وتضعف من حدة الفروق في اللهجات العامية الاقليمية باشاعة اللغة الموحدة التي يتكلمها المتعلمون ، في البلاد العربية جميعاً ، والتي هي وسط بين العامية والفصحى . وهي بتعليمها التاريخ العربي ، وجغرافية البلاد العربية ، توحد شعور الطلاب ، وتعرّفهم بابناء امتهم الساكنين في

مختلف بقاع العالم العربي، فتزيل غشاوة الجهل باخوانهم عن بصائرهم، وجهل العرب بعضهم ببعض من اهم عوامل التفرقة .

وهي من حيث تثقف الشبان بالثقافة العصرية ، القائمة على العلم، ومن حيث تطلعهم على تواريخ الامم الاخرى ، ونهضاتها ، واحوالها الحاضرة ، تفتح بصائرهم على حقيقة واقعهم ، وتكسر عن عقولهم قيود التعصب والتقليد ، وتدفعهم الى تفهم مشاكل بلادهم، واحتذاء الامم الناهضة في نهضاتها ، واساليب تقدمها وتطورها . والحق ان المثقفين الشبان هم من اهم دعائم كل الحركات التحررية ، والاصلاحية ، التي قامت ، ولا تزال تقوم ، في البلاد العربية منذ فجر النهضة العربية في القرن التاسع عشر الى وقتنا هذا الحاضر . ومن هنا جاءت محاربة المستعمرين ، والاقطاعيين ، والرجعيين عامة، لنشر المدارس، وتثقيف الشعب ، وسعيهم لافساد المدارس وتشويه الثقافة الشعبية ، حين لا يمكنهم صد الشعب عن الثقافة ، والاقبال على المدارس .

على ان هذه المدارس الحديثة لم تبلغ الغاية المرجوة منها . فهي ضئيلة العدد بالنسبة لمتطلبات الامة العربية الناهضة . فما زالت اغلبية جماهير الامة الكادحة اميّة . وهي مختلفة المناهج ، متعددة اساليب التعليم . وهي ، على العموم ، خاضعة للحكومات تغرس في مناهجها روح الاقليمية ، وتقاوم الافكار الاصلاحية ، وتصد الشبان عن تفهم مشاكل امتهم الحيوية ، بحجة حماية النشء الجديد من الآراء الهدامة ، والالحاد ، والتحلل الاخلاقي ، والاشتغال بالسياسة ، وما الى ذلك . ويجب ان نضيف الى ما تقدم ، اثر

بعض المدارس التي أنشأها الاستعمار ، والارساليات الاجنبيـة ، الطائفية، في بلبلة افكار طلابها ، واضعاف شعورهم القومي ، واخماد جذوة الوطنية في نفوسهم .

٢ — المطبعة

انشئت اول مطبعة عربية في لبنان عام ١٦١٠ [١] . وانتشرت منـــذ ذلك الحين في البلاد العربيـــة ، رويداً رويداً ، حتى اصبحت جزءاً من حياة العرب ، القراء منهم طبعاً ، منذ مطلـــع القرن العشرين . وانه لمن فضول القول ان نسهب في تبيان فضـل المطبعة على اليقظة العربية ، وعلى نشر الوعي القومي بين الجماهير . وبحسبنا ان نقول ان المطبعة ، بما اخرجت من كتب وجرائد ومجلات ؛ ايقظت العرب عـلى مرارة حاضرهم ، ونبهت وجدانهم الغافي الذي انعسته اجيال متطاولة من الرجعية والجهـــل . وقد عملت ، بصورة غير مباشرة ، على التقريب بين العرب ، بما نشرت من تراث العرب الاقدمين في التاريخ والادب ، فأتاحت لهم ان يطلعوا ، بيسر ، على تراث اجدادهم . كما عملت الصحافة خاصة على دعم اللغة العربية ، وتعميم نشرها بين جماهير الشعب ، بما اصطنعت من لغة سهـــلة لا تخرج عن اساليب الفصحى ، ولا تشق على فهم

---

(١) اهدتها روما الى الرهبانية اللبنانية في دير قزحيا . وانشئت اول مطبعة عربية في حلب عام ١٦٩٨ . ثم انشئت مطبعة الشوير سنة ١٧٣٢ ، ثم مطبعة القديس جاورجيوس سنة ١٧٥٣ . وانشئت مطبعة بولاق في مصر عام ١٨٢١ (راجع مارون عبود ، رواد النهضة الحديثة « بيروت ، ١٩٥٢ » ، ص ٢٠) وانشئت المطبعة الاميركية عام ١٨٢٠ في مالطة ثم نقلت الى بيروت عام ١٨٣٢ .

عامة القارئين . وعملت على التقريب بين العرب بما تنشر من اخبار البلاد العربية واحوالها ، وبما تعالج من مشاكلها ، وبدعوتها لتحرير هذه البلاد وتوحيدها . المطبعة هي مدرسة الشعب ، بها تثقف جماهيره ، ومنها تتلقى توجيهها ، وتستمد معارفها عن العالم . انها السلك الدقيق الذي يوصل هذه التيارات الفكرية المنبعثة عن عقول الشعراء ، والمصلحين ، والثائرين ، الى عقول الجماهير . لقد كانت المطبعة اداة رواد اليقظة القومية ، كبطرس البستاني ، وناصيف اليازجي وابنه ابراهيم ، والشدياق ، وفرح انطون ، واديب اسحق ، ومحمد عبده ، والكواكبي ، والكاظمي ، والرصافي ، والزهاوي ، وشبلي شميل ، وصروف ، وزيدان ، والريحاني ، الى ايصال صيحاتهم المنبهة ، الواخزة ، المحيية ، الى ضمير الامة العربية . المطبعة تربط العرب ، حيثما كانوا ، بهذه الخيوط الدقيقة، اللطيفة، خيوط الفكر الواحد، والشعور الواحد، والآمال الواحدة [2] .

---

(٢) « ... ان على ساحل الخليج ، في اقصى المشرق من جزيرة العرب. (القطيف) ، علماء مجتهدين ، وادباء ناهضين طموحين ، يتطلعون الى مصر ، ويهتفون باسمها ، ويباركون ثمار نهضتها في العلم والفن ، ويعتزون – كما قال الاخ الكريم « السيد حسن بن علي ابو السعود » – بما بيننا من روابط الدم واللغة والعقيدة ، ويكنون لأبناء الكنانة كل تقدير ومودة ، ويرون في الثقافة المصرية المورد العذب المتير ... وقال الاديب « محمد سعيد الشيخ الخنيزي » : « ان بيننا وبين الصفوة الامناء من ادباء مصر ومفكريها ، تياراً متصلاً في الفكر والروح ، مهما تنأ بنا الديار وتفصلنا بيداء وبحار » . بنت الشاطىء ، ارض المعجزات («اقرأ» عدد ١٠٤ ، القاهرة ، ايلول (١٩٥١) ص ١٢٢ – ٢٣.

ولكن عطايا المطبعة لم تكن كلها خيراً للعرب . فقد استحالت بايدي المفرقين والمستعمرين ، اداة تفريق ، وتضليل واستعمار . وكما اتخذ الوطنيون ، والمصلحون ، ودعاة الوحدة ، المطبعة اداة لايقاظ الامة ، اتخذها الرجعيون ، والاقليميون ، والمستعمرون اداة لتفريق العرب ، وتشويش اذهانهم ، وصرفهم عن مشاكل امتهم الاساسية . يضاف الى هذا خنق الحكومات العربية لحرية الفكر ، وتضييقها على الصحافة الحرة . فلا عجب ان تجد كثيراً من الشبان المثقفين ضائعين مبلبلي الافكار ، مختلفي الاهداف القومية والوطنية .

٣ — الراديو والسينما

الراديو العربي ، على حداثة عهده وكثرة نقائصه ، يكمل عمل المطبعة في تثقيف الشعب ، وإيقاظ وجدانه ، وتوسيع آفاقه الفكرية ، وإبقائه على اتصال بالحياة السياسية ، وإطلاعه على ما يجري في البلاد العربية ، وفي العالم من احداث . ويمتاز عنها بكونه ابعد صوتاً ، واقدر على إيصال المعرفة إلى الجماهير العربية التي لا تزال غالبيتها تجهل الحرف . كما انه يكمل الصحافة في نشر اللغة الفصحى ، وتقريبها من افهام الجماهير . وهو ، الى كل ما تقدم ، يعمل على إزالة ما يولده الجهل باللهجات الاقليمية من فروق بما يذيعه راديو كل قطر عربي بلهجته الاقليمية الخاصة من اغانٍ ، وشعر ، وتمثيليات ، ومحاورات .

وتقوي السينما والغناء اثر الراديو في تعميم اللغة الفصحى ،

وإضعاف حدة الفروق بين اللهجات العاميـة . فالاغاني التي تحفظها الجماهير ، وتتناشدها ، وتشغف بالسماع اليها ، هي من العوامـل القوية في التقريب بين أفراد الأمة المفرقين المتباعدين ، عن طريق الشعور والوجدان ، وجامعة اللغة الواحدة . والحق ان المغنين المحدثين ، على ما في اكثر اغانيهم من سخف وخنوثـة ، عظيم في التقريب بين العرب ، ولو بطريقة لا شعورية ، وتوحيد أذواقهم ، وميولهم النفسية ، وإشعارهم بأنهم ينتمون الى امة واحـدة ، او إعدادهم لمثل هذا الشعور على أقل تقدير .

ومع ان الانتاج السينمائي يكاد يقتصر على مصر فقـد ادّت السينما ، بطريقة غير مباشرة ، الى التقريب بين الشعوب العربيـة ، وذلك عن طريق تقريبهـا من الشعب المصري ، اكبر الشعوب العربية . لقد تغلغلت السينما المصرية ، ولغة الحوار والغناء فيها على الغالب هي العامية المصرية المهذبة ، في كل مدينة عربية ، وصارت الجماهير الشعبية تقبل عليها إقبالاً شديداً ما اتاحت لها مواردهـا المالية الضئيلة ذلك حتى لقد اصبحت غذاءها الفني الوحيد ، فقضت على الوهم القائل بان اللهجات العامية دليل على انقسام العرب انقساماً اصلياً ، وحاجز يحول دون تفاهمهم . [٣]

ما ايسر ان يكون الراديو مدرسة تثقيف وتوجيـه صحيح للجماهير العربية ، ومنبراً يدعوهـا الى التحرر ، والتقارب ، والانعتاق من قيود التقاليد ، لولا ان الحكومات العربية توجهه

---

(٣) ان عدداً من اشهر الممثلين والممثلات في السينما المصرية هم لبنانيون او من اصل لبناني او سوري .

وجهة غايتها إبعاد الجماهير عن الثقافة الصحيحة ، والوعي القومي السليم ، وتقوية روح الاقليمية في نفوسها . ومثل هذا يقال عن السينما والموسيقى والغناء ، التي لا تقل إمكانية عن الراديو في إيقاظ العرب ، وتآخيهم ، وغرس إرادة الوحدة في نفوسهم ، لو كان المؤلفون ، والمنتجون ، والموسيقيون ، والمغنون ، يهتمون بايقاظ الوعي القومي ، ومعالجة مشاكل الشعب الاساسية الملحة معالجة صحيحة ، بعض اهتمامهم باثارة غرائز الجماهير البدائية ، وتخدير إحساسهم الوطني ، وصرف اهتمامهم الى العرض التافه من الامور.

٤ — الاحزاب القومية

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تأسست في بيروت عدة جمعيات ادبية ، وسياسية سرية ، تنادي بتحرر البلاد العربية ، وتدعو الى القومية العربية ساهم فيها نخبة من الشبان المثقفين . وقد تأثر بمبادىء هذه الجمعيات جمهور من المثقفين في سورية ولبنان ، كان لهم اثر ملحوظ فيما ظهر بعد ذلك من حركات قومية منظمة. ولما كان الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ ، ونشط الاتحاديون يبشرون بالحرية والاصلاح ، اسس الشبان المثقفون العرب ، وبينهم جمهور من الضباط ، عدداً من الاحزاب والجمعيات اهمها نادي المنتدى الادبي الذي تأسس في القسطنطينية عام ١٩٠٩ . وحزب اللامركزية الادارية العثماني المؤسس في القاهرة عام ١٩١٢ . والجمعية القحطانية المؤسسة عام ١٩٠٩ . وجمعية العهد التي تأسست عام ١٩١٤ . وكانت هذه الاحزاب تدعو الى تحرر العرب ،

واتحادهم ، وتنادي باحياء المجد العربي القديم ، وبعث القوميـــة العربية . وقد اشترك قسم كبير من اولئك الشبان والضباط في ما حدث في البلاد العربية من حركات سياسية خلال الحرب العالمية الاولى وبعد انتهائها . وتابع بعضهم النضال القومي في الاحزاب المنظمة ، والصحافة ، والمدارس ، بينما تربع الباقون على مناصب الدول العربية التي خلقتها الدول المنتدبة بعد الحرب العالمية الاولى.

وقد قامت في البلاد العربية ، منذ ذلك الحين ، احزاب قومية سياسية ، وجمعيات ونوادٍ ادبية وسياسية ، عملت على غرس الوعي القومي في نفوس اعضائها ، ومن يتصل بهم من الانصار والعاطفين، وتعريفهم باحوال العرب الغابرين والاحياء ، وتربية ارادة الوحدة العربية، والتقارب العربي في نفوسهم. من هذه الاحزاب والجمعيات من يدعو صراحة الى تأسيس دولة عربية موحـدة [٤] ، ومنها من يدعو الى اقامة دولة عربية اتحادية[٥] . يضاف الى هـــذا ان معظم الاحزاب العربية على اختلاف مذاهبها السياسية ومناهجهـــا الاجتماعية ، تدعو الى التعاون بين الاقطار العربية . لقد انتجت هذه الاحزاب والجمعيات القومية ، شباناً يؤمنون بالفكرة القومية العربية ، ويعملون على تحرر العرب ، وتقدمهم وتعاونهم . وبذلك

---

(٤) كحزب الاستقلال ونادي البعث في العراق، وحزب عصبة العمل القومي في لبنان الذي اندمج اخيراً في حزب النداء .

(٥) كالحزب الوطني الديمقراطي وحزب الامـــة الاشتراكي في العراق . انظر موقف الاحزاب العربية ، في سورية ولبنان والعراق ، من قضية القومية العربية ، والتعاون السياسي بين العرب ، في « العروبة بين دعاتها ومعارضيها » تأليف ساطع الحصري ، بيروت ١٩٥٢ ، ص ١٤٩ — ١٨١ .

كانت من العوامل القوية في نشر الوعي القومي .

على ان هذه الاحزاب القومية لم تبلغ من القوة والرسوخ في المجتمعات العربية بحيث تصبح مهيمنة على توجيه سياسة البلاد، وتحقيق ماتستهدفه من غايات قومية. ولذلك اسباب عديدة يعود بعضها الى طبيعة تكوين هذه الاحزاب نفسها ، ويعود بعضها الى الظروف الخارجية المحيطة بها . فهي ، على العموم ، ضعيفة التكوين ، قليلة الاعضاء ، معزولة عن جماهير الشعب بحكم كون معظم اعضائها من المثقفين البعيدين عن الجماهير الشعبية ، التي يشغلها الكدح في سبيل الرغيف ، عن التفكير القومي الذي ما زال غامضاً معقداً . وهي تنوء تحت عنت الحكومات العربية التي تريد ان تبقى جماهير الشعب جاهلة ، بعيدة عن التيارات السياسية ، وعن كل تنظيم سياسي . وهي الى ذلك مشغولة بالنضال السياسي المحلي ، ضد السلطات المحلية والمستعمرين الاجانب ، عن القضايا العربية القومية الكبرى . واخيراً فان الاحزاب القومية تكاد تكون مقتصرة على بلاد الهلال الخصيب. فاحزاب المغرب الاقصى يستغرق نشاطها النضال ضد المستعمرين الافرنسيين والاسبان ، والاستبداد المحلي[٦] والاحزاب المصرية والسودانية معنية بمصاولة الاستعمار الانكليزي،

---

(٦) جاء في حديث لعلال الفاسي رئيس حزب الاستقلال المراكشي ، نشرته جريدة صدى الاهالي العراقية بتاريخ ٣٠ ايلول ١٩٥١ : « وحزب الاستقلال الذي قاد الحركة القومية المراكشية منذ نشأتها يعتبر نفسه اميناً على تحقيق الثقة التي وضعتها فيه الهيئات العربية المتضامنة معه في ازمته الاخيرة . ولذلك فهو يؤكد ان الغاية التي يرمي اليها بعد استقلال مراكش هي تحقيق اهداف المكافحين العرب في الحرية والوحدة والعدالة الاجتماعية في سائر انحاء العالم العربي . »

مشغولة بقضايا البلاد الداخلية ، مهمومة بوحدة وادي النيل . اما اقطار الجزيرة العربية فلم تعرف الاحزاب السياسية بعد .

٥ — طرق المواصلات الحديثة

عندما اطل القرن التاسع عشر كانت البلاد العربية مقسمة الى اقطار متنائية ، منفصلة ، مفككة اقتصادياً وسياسياً . وكان كل قطر عربي يعيش في حالة اقتصادية واجتماعية متأخرة ، منطوياً على ذاته ، مستغنياً باقتصادياته . على ان وسائل المواصلات الحديثة التي عمت اوربا واميركا منذ بداية القرن التاسع عشر ما لبثت ان وصلت الى العالم العربي وتغلغلت في مجاهله بخطى بطيئة مستأنية في القرن التاسع عشر ، مسرعة في القرن العشرين . فامتدت السكك الحديدية وطرق السيارات في معظم اجزائه ، وعمرت موانئه ووسعت وجهزت بما تحتاجه الملاحة الحديثة من معدات . وانشئت المطارات المدنية والعسكرية في اقطاره جميعاً . ومما عجل في ادخال وسائل المواصلات الحديثة الى العالم العربي حاجة الدول التي استعمرت معظم اقطاره الى طرق مواصلات لنقل جيوشها ، واخضاع البلاد لسلطانها ، وتأمين نقل بضائعها ومنتوجاتها .

انشأ السلطان عبدالحميد خطاً حديدياً يصل بين دمشق والمدينة ليوطد سمعته في العالم الاسلامي ، ويدعم سلطانه على الحجاز . ولكن هذا الخط الحديدي ما لبث ان اصبح عاملاً من عوامل التقريب بين سورية والحجاز ، وأداة لاتصال الوطنيين في القطرين ، وحجراً في زاوية النهضة العربية الاولى .

وحاول الالمان ربط استانبول بالخليج الفارسي بخط حديدي لمدّ سيطرتهم السياسية والاقتصادية على الامبراطورية العثمانية وضرب معاقل الاستعمار الانكليزي في الخليج . ولكن الحرب العالمية الاولى احبطت سعيهم ، فلم يفلحوا إلا قليلاً . وجاء الانكليز والافرنسيون فوفقوا الى ما فشل الالمان في تحقيقه . فنعم العراق بخط حديدي يصل شماله بجنوبه . وارتبطت سورية بهذا الخط المكين . واقامت شركات النقل الاجنبية والوطنية ، على بادية الشام ، جسراً من طرق السيارات الآمنة الواضحة المعالم . ومن شمالي سورية تمتد السكة الحديدية مارة بلبنان وفلسطين . وتلتقي السكة الفلسطينية بالخطوط الحديدية المصرية عند العريش . (انقطعت الصلة بين البلاد العربية ومصر براً منذ قيام اسرائيل) . وتقطع الخطوط الحديدية مصر من الشمال الى الجنوب لتصل الى مقربة من الخطوط السودانية في وادي حلفا .

وأنشأ موسوليني الطرق المعبدة الممتدة على طول الساحل الليبي ، بين مصر وتونس ، وهو يحلم باقامة امبراطورية رومانية جديدة . واقام الافرنسيون شبكة من السكك الحديدية ، وطرق السيارات في المغرب الاقصى .

وتغلغلت السيارة في قلب الجزيرة العربية ، التي لم تطأ رمالها غير قوافل الجمال منذ سكنها الانسان . ويمتد خط حديدي من الدمام على الخليج الفارسي الى الرياض . وتقوم الحكومة السعودية

بانشاء خط حديدي يصل الرياض بجدة ماراً بالمدينة [7] .

وجاءت الطيارة فربطت اجزاء العالم العربي ربطاً محكماً . واصبح بميسور العربي ان ينتقل في ساعات الى اي قطر شاء من الاقطار العربية المترامية الاطراف . يضاف الى هذا ان البلاد العربية مرتبطة ارتباطاً يكاد يكون تاماً بشبكة من خطوط التلفون والهاتف اللاسلكي ، والراديو ، والبريد العادي والجوي .

اثرت وسائل النقل الحديثة هذه في اتجاهات البلاد العربية ، القومية والاقتصادية والاجتماعية ، تأثيراً عميقاً . فقد عملت ، بربطها البلاد العربية بعضها ببعض ووصلها بالعالم الخارجي المتقدم اقتصادياً وحضارياً ، على نقل الانتاج الزراعي العربي من مرحلة الانتاج الطبيعي او ما يمكن ان يسمى بانتاج الكفاف او الاكتفاء الذاتي ، الى مرحلة الانتاج للبيع بالسوق ، او ما يسمى بانتاج السلع الى حد ما . اي انها جعلت الزراع ، على العموم ، ينتجون للبيع في السوق المحلية او الخارجية ، بعد ان كانوا ينتجون ما يكفي معيشتهم فحسب . فأضعفت بذلك حدة الاقليمية المحلية الضيقة ، ويسرت اتصال المدينة بالريف ، واتصال المدن بعضها ببعض في القطر الواحد ، فاتاحت لكل قطر عربي ان يتوحد عملياً .

(٧) جاء في جريدة الرواد البيروتية ٢١ شباط ١٩٥٢ عدد ٢٢١٠ «بعد ان تم انشاء خط حديد ربط الدمام والظهران والحسا والخرج والرياض بعضها اعدت السلطات السعودية المختصة العدة لمشروع ذي اربع سنوات لربط الرياض والقصيم وحائل والمدينة المنورة وجدة ومكة المكرمة بخط حديدي . وبذلك يكتمل إنشاء شبكة خطوط جديدة عظيمة في المملكة .»

وقد قوت العلاقات الاقتصادية بين البلاد العربية ، ونشطت التبادل الثقافي فيما بينها ، ويسرت على العرب الانتقال من قطر الى قطر ، فاتاحت لهم ان يخرجوا من عزلتهم المحلية الضيقة ، الى آفاق قومية اشمل وارحب .

وفتحت ابواب العالم العربي على التيارات العالمية عنوة. فاتاحت للعرب أن يتصلوا بالغرب وينعموا بما عند الغرب من فكر ، ونهضات اصلاحية ، وحركات قومية ، وتقدم صناعي ، ويشقوا بما جاءهم به الغرب من استعمار سياسي وعسكري واقتصادي .

لقد ضاءلت طرق المواصلات الحديثة من العوائق الطبيعية ، واختصرت المسافات الشاسعة ، ففتحت بذلك امام الواعين من العرب امكانية التقارب ، والتآلف والاتحاد .

ولا بد من الاشارة الى اثر المواصلات الحديثة فيما يبدو من اتجاه الى توطين البدو الرحل. والبداوة بطبيعتها تتنافى مع فكرة الامة والقومية والدولة . وقد جعلت طرق المواصلات الحديثة توطينهم في الارض امراً ضرورياً ميسوراً. فهي من جهة قد زاحمت البدو في النقل، وكادت تقضي على مورد حيوي من مواردمعيشتهم. وهي من جهة اخرى قد يسرت على الحكومات ان تمد سلطانها على الصحراء والبادية واقاصي الريف ، فتمكنت من القضاء على الغزو ، احد اركان المعيشة البدوية . ان البدو اذا توطنوا في الارض واحترفوا الزراعة ، او غيرها من وسائل العيش ، اصبحوا مواطنين منتجين ، وصار بامكانهم ان يفهموا معنى الدولة، ويشعروا بمعاني القومية العربية ، ويعملوا في سبيل تحقيق أهدافها .

٦ – التطور الاقتصادي الحديث

كانت البلاد الاسلامية ، وبضمنها العالم العربي ، تؤلف وحدة اقتصادية في العصر العباسي . فكانت القوافل – المثقلة بالسلع المتنوعة ، والمحاصيل الزراعية ، وادوات الحضارة والترف – دائمة التنقل بين اقطارها ، على طرق واضحة المعالم ، آمنة المسالك . وقد جاءت تلك الوحدة الاقتصادية نتيجة للوحدة السياسية ، والتقدم الصناعي،ولوجود نوع من الاختصاص في الانتاج،ولازدهار الزراعة والتجارة . وكانت تلك الوحدة الاقتصادية ، في الوقت نفسه احد اسباب تقدم الصناعة ، وازدهار التجارة ، وتعزيز الوحدة السياسية نفسها . على ان الوحدة الاقتصادية في العالم الاسلامي سرعان ما انهارت بانهيار الدولة العباسية ، تحت معاول التتر والمغول ، وانقسام العالم الاسلامي الى دول متعددة ، مختلفة ، متنابذة . فتأخرت الزراعة نتيجة لتخرب اقنية الري وسدوده ، وفناء كثير من الفلاحين بالحروب والأوبئة ، وسيادة الفوضى السياسية . وانحطت الصناعة بانحطاط الحالة الاجتماعية والسياسية ، وانكمشت التجارة ، واصبحت محفوفة بالاخطار . وعلى الرغم من ان المماليك والاتراك العثمانيين قد سيطروا على الاجزاء المهمة من العالم العربي ، عدة قرون ، فانهم لم يستطيعوا ان يعيدوا اليه وحدته الاقتصادية، وتقدمه الصناعي والتجاري . فلما اطل القرن التاسع عشر كانت البلاد العربية متأخرة اجتماعياً ، مفككة اقتصادياً وسياسياً .

على ان هذه الصورة قد تغيرت الآن شيئاً ما . فقد تنشطت

العلاقات الاقتصادية بين الاقطار العربية نتيجة لعوامل عديدة. منها تقدم وسائل النقل ، وانتقال الانتاج الزراعي العربي، على العموم، من مرحلة الانتاج الطبيعي ، انتاج الكفاف ، الى مرحلة الانتاج للبيع ، وارتفاع مستوى معيشة الناس نسبياً ، وخاصة في المدن التي اخذت تنمو وتزدحم بالسكان . ومنها تقدم الصناعة في بعض الاقطار العربية ، كسوريا ولبنان ومصر ، الذي ادى الى تنشيط حركة التصدير منها الى البلاد العربية الاخرى . ومنها ان بعض البلاد العربية كسوريا ولبنان ومصر ، قد سبقت غيرها من الاقطار العربية الاخرى في التجارة فاصبحت سوقاً للسلع الاجنبية والعربية، ومراكز رئيسية للأعمال الصيرفية ، ووسيطاً يستورد البضائع الاجنبية ليعيد تصديرها الى بقية البلاد العربية .

ان ازدهار العلاقات الاقتصادية بين البلاد العربية هو من اهم عوامل التقريب بين العرب ، وهو ، بالتالي ، من اهم الاسس التي يجب ان تقوم عليها كل فكرة للاتحاد العربي ، او للتعاون العربي الصحيح على اقل تقدير . فالناس لا تجتمع ، وتتكتل ، وتتحد ، مدفوعة بدوافع مثالية وعاطفية خالصة . وانما يدفعها الى ذلك المصالح المادية المشتركة المتشابكة المتبادلة. فهذه المصالح تعمل على التقريب بين الجماعات، وتفرض عليهم الاتصال، والتفاهم، والتعاون. ان الناس، بصورة عامة، لا يتركون مواطنهم وينتقلون في البلاد، بدوافع النزهة ، والسياحة ، وانما تدفعهم الى ذلك دوافع المصلحة ، والتجارة والربح . وكلما كان اتصال الافراد الذين ينتمون الى امة واحدة ببعضهم متيناً مستمراً ، تقاربت ميولهم ،

وتوحدت لهجاتهم ، وتماثلت عقلياتهم ، ونما شعورهم القومي ، ورسخ علـــى اسس ثابتة . واذا نحن تتبعنا نشوء الدول القومية الحديثة لوجدناها ترتكز على اسس راسخة من الوحدة الاقتصادية . فلـم تبلغ هذه الدول نضجها القومي الا بعد ان دكت اسس الاقتصاد الاقطاعي ، وازدهرت الصناعة ، وارتبطت البلاد بشبكة من طرق المواصلات ، وبعلاقات اقتصادية وثيقة .

ان ما نراه اليوم من علاقات وثيقة بين اجزاء كل قطر عربي ، التي كانت في القرن التاسع عشر مفككة متباعدة ، يعود ، الى حد كبير ، الى نمو العلاقات الاقتصادية بينها . وان احد العوامـل التي جعلت العلاقات بين بلاد الهلال الخصيب ، بصورة عامة ، امتن من العلاقات بين البلاد العربية الاخرى هو ما يقوم بين بلاد الهلال الخصيب من علاقات اقتصادية متنامية . وقد اصبحت هذه الحقيقة – اي اهمية التعاون الاقتصادي – من الوضوح والاتصال بمصالح الاقطار العربية المباشرة ، بحيث اخذت تفرض نفسها على الحكومات العربية ، وعلى جميع المشتغلين بالقضايا الاقتصادية والقومية [8] . فليس من الصعب ان يتصور المرء ضرورة التعاون الاقتصادي بين

(٨) صرح رئيس غرفة التجارة والصناعة في بيروت بصدد مؤتمر غرف التجارة العربية المنعقد في بيروت في كانون الاول ١٩٥١ : ان التعاون الاقتصادي بين الاقطار العربية ليس كلمة جوفاء ، بل انه حقيقة واقعة . فالاوساط الاقتصادية العربية تدرك ان لها مصالح يتمم بعضها بعضاً . فمن الطبيعي ان ينشأ تعاون وثيق من هذه الحالة . انظر جريدة « صدى الاهالي » العراقية ١٨ كانون الاول ١٩٥١ العدد ٦٧٤ . راجع الشرق الادنى ص ٦٦ .

الاقطار اذا علم بان كل نهر من الانهار الرئيسية في العالم العربي يمر في اكثر من قطر واحد ، وان الآفات الزراعية كالجراد ، لا ينحصر شرها في قطر واحد ، ولا تمكن مكافحتها الا بتعاون تام بين الاقطار العربية. وان المشاكل الجديدة الناشئة عن انابيب النفط وخطوط المواصلات لا بد لحلها من تعاون الاقطار العربية صاحبة الشأن . واخيراً فان الاقتصاد العربي ، في حالته الحاضرة ، قائم على المزاحمة . وان الصناعة العربية الناشئة لا يمكن ان تزدهر ، وترسخ على اسس ثابتة الا اذا تعاونت الاقطار العربية جميعاً ، تعاوناً قائماً على خطة موحدة واقتصاد منظم . وقد اكد ميثاق الجامعة العربية هذه الحقيقة المهمة حيث يقول في مادته الثانية : « الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها ، وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها وصيانة استقلالها وسيادتها ، والنظر بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها . كذلك من اغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً بحسب نظم كل دولة منها واحوالها في الشؤون الآتية :

(ا) الشؤون الاقتصادية والمالية ، ويدخل في ذلك التبادل التجاري والجمارك والعملة وامور الزراعة والصناعة .

(ب) شؤون المواصلات ويدخل في ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والملاحة والبرق والبريد . الخ ... » . واخذ اهتمام التجار والصناعيين العرب بالتعاون الاقتصادي يتزايد . فقد عقدت غرف التجارة في البلاد العربية (تمثل غرف التجارة في العراق وسورية ولبنان والاردن ومصر) مؤتمرين احدهما في الاسكندرية

في ايار عـام ١٩٥٠ ، والثاني في بيروت في ١٧ كانون الاول عام ١٩٥١ ، حضره اربعمئة مندوب يمثلون ثمانـــين غرفة تجارية في الاقطار العربية بالاضافـة الى وفد الجامعة العربية . وقد اكد الاعضاء على وجوب تقوية العلاقات الاقتصادية بين الاقطار العربية، وذلك بتسهيل التبادل التجاري ، والنظر في توحيد العملة ، والغاء الحواجز الكمركية، او التخفيف منها وانشاء اتحاد لغرف التجارة العربية، وعقد مؤتمر لغرف التجارة العربية كل تسعة اشهر ، وجعل مقر سكرتارية هذا الاتحـــاد في بيروت . وتكليف السكرتارية بجمع الوثائق والمعـــلومات الاقتصادية التي تهم الاقطار العربية وتقديمها الى كل من يعنيه الامر من تجار وصناعيين ورجال اعمال بحيث يتسنى لهم الوقوف على احوال الاسواق العربية،واحتياجات كل قطر عربي وغـــير ذلك . ان من يلقي نظرة خاطفة على هذه المصارف والشركات التجارية والصناعية العربية العديدة، التي اخذت فروعها تنتشر في عواصم البلاد ومدنها المهمة ، يدرك مدى ارتباط الاقتصاد العربي وتفاعله . على ان العلاقات الاقتصادية بين البلاد العربية ، وان تقدمت عما كانت عليه في الماضي ، لا تزال ضعيفة مترجرجة ، غير قائمة على اسس وطيدة . وذلك يعود الى عوامـل عديدة اهمها : انعدام الوحدة السياسية ، وخضوع معظم البـــلاد العربية لدول اجنبية تسعى كل منها لتوجيه البلاد الخاضعـة لها الى الوجهة التي توافق مصالحها . وكون البلاد العربية بلاداً زراعيـــة يقوم الانتاج الزراعي فيها على الاكتفاء الذاتي بصـــورة عامة ، جعل التبادل التجاري ضعيفاً فيما بينها . فالتبادل التجاري يزدهر

ويقوى حيث يكون الاختصاص في الانتاج . ومنها ان الصناعة الناشئة في بعض الاقطار العربية ما تزال ضعيفة ، لا تكفي لسد حاجة البلاد العربية جميعاً . ولهذا غلب الاتجاه في الاستيراد والتصدير الى البلاد الاجنبية. ومما قوى هذا الاتجاه سيطرة الدول الاجنبية على الاقتصاد العربي ، وتوجيهها اياه وجهة توافق مصالحها في التصدير ، والاستيراد ، والانتاج . هذا من جهة . ومن جهة ثانية فان هذه الدول الاجنبية قد عملت على تأخير تصنيع البلاد ، وابقائها بلاداً زراعية ، لتكون سوقاً لمنتوجاتها الصناعية، ومزرعة تمدها بالمواد الاولية . يضاف الى ما تقدم انعدام ، او ضعف ، مقومات الصناعة الضخمة في البلاد العربية كالمواد الخام ، والآلات والفنيين والمديرين ، وقلة رؤوس الاموال ، وضعف الطاقة الشرائية عند جماهير الشعب ، وشدة مزاحمة البضائع الاجنبية للبضائع الوطنية . لكل هذه العوامل نرى العلاقات الاقتصادية بين فرنسا والمغرب الأقصى اقوى من العلاقات القائمة بين المغرب الاقصى والبلاد العربية الاخرى . والعلاقات القائمة بين بريطانيا والسودان اقوى من العلاقات القائمة بين السودان ومصر . ومثل هذا يقال عن العلاقات بين العراق وبريطانيا ، وبينه وبين سورية ولبنان .

ومن عوامل ضعف العلاقات الاقتصادية بين البلاد العربية ايضاً ما يقوم فيها من اختلافات في العملة ، والنظم الكمركية ، والسياسات الضرائبية ، وما في كل منها من قوانين تحد من حرية انتقال رؤوس الاموال ، والاشخاص ، وما الى ذلك من عوائق التجارة ، والاقتصاد عموماً .

٦ . عوامل التقارب والتوحيد الخارجية الجديدة

•

١ — في الثقافة

كان العالم العربي ، حتى اواخر القرن الثامن عشر ، يعيش في شبه إغفاءة، منطوياً على ذاته ، قانعاً باحواله ، مستكيناً لظروفه، جاهلاً بما يجري حوله . ثم جاءه الغرب فاتحاً ، وجاءت مع الغرب حضارته ، وعلومه ، ومبشروه ، وقيمه الاخلاقية ، وبضائعه ، واستعباده السياسي والاقتصادي والعسكري . وكان هذا الهجوم الغربي ، بمختلف اشكاله ، اقوى تحدٍّ للعرب، واعظم خطر جابهوه منذ الحروب الصليبية . وكان احتكاك العالم العربي بالغرب هذا الاحتكاك الذي كان سلمياً حيناً ، دموياً عنيفاً احياناً — هو الحافز الأول الذي دفع العرب الى إعادة النظر في الأسس التي يقوم عليها كيانهم ، الروحي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، والتفكير في شؤونهم ، والقلق على مستقبلهم . والحق ان جميع الحركات الدينية ، والقومية ، والاقتصادية ، والاصلاحية الاجتماعية عموماً ، انما كانت استجابة طبيعية لتحدي الغرب هذا للعرب ، سواء اتخذت تلك الحركات طابع المسايرة للغرب والتفهم لحضارته،

ام اتخذت طابع المقت له ، والتخوف منه ، والوقوف منه موقف العداء الصريح . وما زال الغرب ، في يومنا هذا ، يتحدى العرب ، وما زال العرب يتلمسون الطريق للوصول الى الاستجابة الصحيحة لهذا التحدي . وسنحاول ان نجمل في هذا الفصل اهم آثار الغربيين حكومات ومؤسسات وافراداً وحضارة ، في إيقـــاظ العرب ، واستثارة روحهم الوطنية ، وبعث وعيهم القومي والتقريب بينهم ، حتى تكمل لدينا صورة العوامل التي انتجت وما زالت تعمل على إنتاج ، ما نرى في العالم العربي اليوم من تقارب ، ووعي سياسي ، وإرادة للتحرر والتقدم والاتحاد .

كان التعليم في الأقطار العربية الخاضعة للدولة العثمانية ضعيفاً ، محدوداً ، وكانت لغة التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية القليلة التي أنشأتها الدولة العثمانية في الأقطار العربية هي اللغة التركية بوجه عام . وعلى هذا فقد كانت استفادة الشعب من هذه المؤسسات التعليمية ضئيلة . اما المدارس الدينية الاسلاميـــة ، وكتاتيب الصبيان ، فكانت متأخرة بصورة عامة ، وكان أثرهـا في النهضة القومية ضئيلاً . والى جانب هذه المدارس ، الحكومية والدينية ، كانت تقوم مدارس طائفية واجنبية . ولما كانت الدولة العثمانيـة تعتبر كل طائفة من الطوائف الدينية والمذهبية ، من غير المسلمين ، جماعة قائمة بنفسها ، وتمنحها امتيازات خاصة من جملتها حق التدريس بلغتها القومية ، فقد نشأت في البلاد العربيـة التي تسكنها أقليات مسيحية مدارس طائفية تعلم باللغة العربية . وكانت هذه المدارس الطائفية ، في باديء الأمر ، دينيـة بحتة . ولكنها تطورت ، تحت

تأثير المدارس الأجنبية العلمانية ، وتحولت ، في الغالب ، الى معاهد تعليمية عصرية . على ان المدارس الطائفية المحلية لم تكن الوحيدة في الميدان الثقافي . فقد ازدادت المدارس الأجنبية انتشاراً ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وكانت غالبيتها تابعة للارساليات التبشيرية من روسية وايطالية ، وانكليزية ،واميركية، وافرنسية وسواها . إلا ان مؤسسات الجزويت الفرنسيين والانجيليين الأميركان كانت أقواها نفوذاً ، وأوسعها انتشاراً . وقد اهتمت هذه المدارس باللغة العربية ابتغاء اجتذاب ابناء الشعب من جهة ، وتسهيل التأثير فيهم من جهة أخرى . كما اهتمت بادخال العلوم العصرية في مناهجها . على ان التعليم الأجنبي لم يبق مقتصراً على المبشرين وقتاً طويلاً . إذ سرعان ما اقبلت الحكومات الأجنبية على مساندة هذه المدارس في البلاد العربية ابتغاء نشر نفوذها ، وتعميم لغاتها ، واكتساب الشعب الى جانبها . وقد انتشرت المدارس الدينية والعلمانية ـ وأهمها جامعة القديس يوسف اليسوعية ، والكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأميركية فيما بعد) في بيروت في البلاد العربية ، وخاصة في لبنان ودمشق وحلب والموصل ، تساعدها الحكومات مادياً في بعض الأحيان ، وأدبياً في كل الأحيان . وقد أفادت هذه المدارس في نشر اللغة العربية وتعميمها ، وفي تعريف الناشئة الى العلوم العصرية ، واطلاعهم على ما يجري في الغرب من حركات سياسية واجتماعية وفكرية . ولم يقتصر أثرها على المسيحيين من العرب فقط ، فقد تثقف فيها عدد كبير من ناشئة المسلمين . وكان للكثير من المتخرجين فيها من الشبان العرب ،

مسلمين ومسيحيين ، أثر عظيم في النهضة القومية ، بما ألفوا من كتب ، وما أسسوا من جمعيات ، وبما أنشأوا من صحف ومجلات ، وبالخدمات الجليلة التي قدموها في حقل التربية والتعليم . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فقد كان لهذه المدارس أثر ملحوظ في نهوض اللغة العربية بانشائها المطابع ، وأهمها المطبعة الأميركانية والمطبعة اليسوعية في بيروت ، وباعتنائها بتأليف الكتب العربية ونشرها ، وترجمة الكتب الأجنبية ، وفي مقدمتها الكتاب المقدس ، وما الى ذلك من خدمات جليلة للغة العربية . [1]

وبعد ان احتلت الدول الغربية البلاد العربية اقامت في كل قطر عربي احتلته ادارة مدنية . وقد استلزمت هذه الادارة موظفين عرباً يديرون شؤونها ، ويشرفون على اعمالها ، ويصرفون امورها . فظهرت الحاجة الى انشاء مدارس تزود الطلاب بالمعارف العصرية واللغات الاجنبية التي يحتاجها الموظفون في بلد تحتله دولة اجنبية . وحين ابتدأت عملية انشاء المدارس العصرية ، لخدمة الادارة المدنية ، لم يعد بالامكان وقفها . فالموظف المثقف لا يستطيع ان يترك ابناءه واخوانه اميين . والرجل الامي ، الذي يرى ما تدره الثقافة من مال وجاه ونفوذ ، يصر على ادخال ابنائه المدارس . والمصلحون الاجتماعيون الذين يرون اثر المدرسة في اصلاح المجتمع والنهوض القومي وضعوا مطالبة الحكومات بانشاء

(١) انظر ساطع الحصري ، حولية الثقافة العربية (مصر ، ١٩٥٠) ص ٩ – ١٦ . وانطونيوس ص ٢٥ – ٣٦ من الترجمة العربية ، و ص ٣٥– ٤٥ من الاصل .

المدارس في مقدمة برامجهم . وهكذا امتدت المدارس العصرية في البلدان العربية . وكانت هذه المدارس الى جانب ما جلبه الغرب الى البلاد العربية من آثار حضارته الاخرى ، الكوة التي اطل منها الشبان العرب على مدنية الغرب وتقدمه . وكانت هذه المعرفة بالغرب المتحضر في بلاده، والذي يسلك مسلكاً بعيداً عن التحضر في البلاد المحتلة ، من اهم الحوافز التي دفعت الشبان العرب الى المطالبة باستقلال بلادهم ، واصلاحها ، والعمل على تقدمها .

٢ - في الاقتصاد

اما تأثير الغربيين في اليقظة العربية والتقريب بين العرب من الناحية الاقتصادية فواضح كذلك . فقد عملت طرق المواصلات التي اقاموها في البلاد العربية لخدمة اغراضهم الحربية والاقتصادية على توحيد البلاد محلياً ، والتقريب بين الاقطار العربية ، وتنشيط التجارة فيما بينها ، كما تقدم . وقد عملت الشركات الضخمة التي انشأها الغربيون في البلاد العربية ، واهمها شركات النفط في العراق والكويت والبحرين والعربية السعودية وقطر ، على انهاض اقتصاد هذه الاقطار بصورة عامة ، وعلى تقدمها المادي والثقافي ، وافادت في التقريب بين الاقطار العربية بصورة مباشرة وغير مباشرة . ان انابيب النفط ، وخطوط المواصلات ، التي اقامتها هذه الشركات بين العراق وسورية ولبنان ، وبين الاحساء والاردن وسورية ولبنان ، ربطت هذه الاقطار برابطة قوية ، وحتمت على دولها التعاون فيما بينها ، لحل المشاكل الناتجة عن هذه الامور على افضل

تقدير . وان الـثروة الخيالية ، التي فجرتها في هذه الاقطار العربية فجأة ، فرضت عليها ان تخرج من عزلتها الخاملة ، وترتبط مـع البلاد العربية الاخرى بروابط تجارية وثقافية متينة ما كانت لتحدث لولاها (اي لولا الثروة الطارئة) . لقـد استلزم الانبعاث الثقافي والاقتصادي والصناعي في البحرين والكويت والعربيـة السعودية وقَـطَـرَ استخدام مئات الاساتذة والاطباء وآلاف العمال من مصر وفلسطين وسورية ولبنان والعراق . ولقد قـوى التقدم المادي الذي حدث في هذه الاقطار الروابط التجارية بينها وبين بقيـة الاقطـار العربية الاخرى ، بل لا نبعد اذا قلنا انه انشأها انشاء جديداً . لقد كانت اقطار الخليج الفـارسي العربية ما تكاد تخطر عـلى بال الجمهور العربي . اما اليوم فهي حديث على كل لسان ، وعناوين ضخمـة في الصحف . لقد اصبحت جزءا من العالم العربي فعلياً ، بعد ان كانت اسماء على الخارطة لا يعرفها الا المثقفون .

وقد استخدمت الدول والشركات الغربية آلاف العمال العرب في طرق مواصلاتها ومعاملها ، واضطرت ان تدربهم على استعمال الآلات تدريبـاً فنياً ، فخلقت منهم عمالاً فنيين افادت منهم الحركة الوطنية بصورة عامـة . فقد اصبح كثير من هؤلاء العمال عناصر اساسية قوية في الحركة الوطنية التحررية ، نظراً لتكتلهم ، ولما يتمتعون به من وعي اجتماعي ، ومنظمات عمالية . ولقد كان العمال التونسيون في طليعة الحركة الاستقلالية الاخيرة . كما كان العمال المصريون المستخدمون في معسكرات الجيش الانكليزي في منطقة القنـاة اول من لبى نداء الوطن ، بعد الغاء وزارة الوفد للمعاهدة

المصرية البريطانية ، فهجروا العمل بالآلاف ، وتركوا المصانع البريطانية في القناة مشلولة . وفي سورية ولبنان والعراق نجد العمال ، نقابيين وغير نقابيين ، ابداً في طليعة كل حركة وطنية . لقد حولت شركات النفط في السعودية العربية وقطر والكويت والبحرين آلافاً من بدو جزيرة العرب الاصليين الى عمال صناعيين يجيدون استخدام الآلة ، وسيجيدون في المستقبل القريب استخدام عقولهم في القضايا الوطنية والقومية .

ولا بد لنا ونحن نتكلم عن اثر الغرب في الاقتصاد العربي ، من ان نقول كلمة عن « مركز تموين الشرق الاوسط » . اسست الحكومة البريطانية هذه الدائرة عام ١٩٤١ ، وجعلت مركزها القاهرة . ثم تحولت الى وكالة انكلو - اميركية في ربيع سنة ١٩٤١ . وكان غرضها تأمين حاجة سكان الشرق الاوسط من البضائع الضرورية ، نظراً للقيود المفروضة على النقل البحري وتخفيض الاستيراد من البلاد الاجنبية . وقد قام المركز بتشجيع انتاج الاغذية ، ومساعدة الصناعة ، وتنظيم توزيع المواد النادرة . وحمل مختلف دول الشرق الاوسط على التعاون في قضايا اقتصادية مختلفة . وقام بعقد مؤتمر زراعي ، عام ١٩٤٤ في القاهرة ، مثلت فيه دول الشرق الاوسط ، ما عدا تركيا ، وتبودلت فيه المعلومات والآراء حول المشاكل الزراعية في كل بلد . كما عقد مؤتمراً للاحصاء بحثت فيه الطرق المثلى لتحسين الاحصاءات في الشرق الاوسط . وقد انتهت اعمال هذه الدائرة بانتهاء الحرب ، فحلت محلها دائرة الشرق الاوسط البريطانية . ولكن هذه الدائرة لم تعمر في مصر طويلا .

وعلى الرغم من ان اعمال مركز التموين هذا كانت محدودة ، وعلى الرغم من الدول العربية كانت تنظر اليه نظرة شك وريبة باعتباره وسيلة للتدخل الاجنبي ، ولما كان يتمتع به من سلطة ديكتاتورية ، فقد كانت له فائدة تذكر من حيث استطاع ان يغرس في البلاد العربية فكرة التنظيم والتخطيط والتعاون في القضايا الاقتصادية[٢] .

٣ — في السياسة

اما في الناحية السياسية فقد اثار احتكاك العرب بالغرب الروح القومية والتحررية بصور شتى . كانت الدول الغربية ، واخصها بريطانيا وفرنسا والمانيا وايطاليا تحاول الاستيلاء على العالم العربي منذ مطلع القرن التاسع عشر ، مستخدمة كل وسيلة تمكنها من التغلغل فيه ، والسيطرة على مقدراته . وقد استطاعت ، بخطوات راسخة متتابعة ، ان تحتل اقطاره ، وتتحكم بسكانه ، وتستغل خيراته . وقد عملت على تحطيم وحدة العرب ، وتخدير احساسهم الوطني ، وتأخير نمو وعيهم القومي . ولكن هذا الاستعمار الغربي ، بما فيه من التناقضات ، قد انتج ، برغمه ، اموراً هي في صالح العرب .

ففي الحرب العالمية الاولى ، عندما كان الحلفاء يصارعون دول الوسط صراع موت او حياة ، توجهوا الى العرب بوعودهم وتصريحاتهم في التحرر والاستقلال وتقرير المصير ، ليستميلوهم

(٢) انظر الشرق الاوسط ص ٧٥ — ٧٧

اليهم[٣] . وقد عملت هذه التصريحات ، وبخاصة نقاط الرئيس ويلسن الاربع عشرة ، وما رافقها من دعاية واسعة نشيطة ، على اثارة الوعي القومي بين العرب ، وتنبيه روحهم الكفاحية ، واحياء آمالهم الوطنية التي كاد ان يقضي عليها اليأس والخمول .

وكانت فترة ما بين الحربين العالميتين فترة صراع مكشوف بين الشعوب العربية وبين فرنسا وبريطانيا وايطاليا واسبانيا ، وصراع مستور بين هذه الدول الغربية جميعاً . وكانت كل من هذه الدول تحاول اثارة الشعوب العربية الخاضعة للدول الاخرى ، نكاية بها ، واضعافاً لمركزها ، ومحاولة لتوسيع مناطق نفوذها على حسابها . وكانت المانيا النازية ، وايطاليا الفاشية ، انشط هذه الدول في الدعاية ضد الفرنسيين والانكليز ، وفي اثارة حفائظ العرب ضدهما ، وفي العمل على استنهاض الروح القومي بين العرب في البلاد العربية ، وبخاصة في مصر وفلسطين وسورية والعراق .

وكانت الحرب العالمية الثانية . ودخل البريطانيون والفرنسيون من جديد في صراع موت او حياة ضد النازيين والفاشيين . وتوجهوا من جديد الى العرب يطلبون مساعدتهم وتأييدهم ، ويحاولون كسب رضاهم . فانهالت التصريحات والوعود بتحقيق اماني العرب القومية ، وتطمين رغباتهم في التحرر والانعتاق . ونشطت الدعاية

---

(٣) كان الانكليز والفرنسيون ، والفرنسيون خاصة ، يثيرون شعور السوريين (سكان سورية الطبيعية) والعرب عموماً على العثمانيين قبل الحرب العالمية بزمن غير قصير .

الغربية تبشر بالديمقراطية ، والعدالة الاجتماعية ، وحق الشعوب في تقرير مصيرها . وارتفع مد الوعي الوطني بين الجماهير العربية ، وتوسعت آفاقهم الاجتماعية والسياسية ، وانتظروا نهاية الحرب ليحظوا بما مناهم به الحلفاء من وعود مغريات ، فاذا بتلك الوعود سراب ليس فيه من الماء الا تموجه الجميل يلوح للعطشان في الآفاق البعيدة . وتجدد الصراع بين الشعوب العربية والدول الغربية ولكن على نطاق واسع،وباساليب جديدة ، ووعي وطني جديد ، انضجته الظروف المحلية والعالمية ، وربته التجارب والمحن . فقد استجدت في العالم احداث عظيمة منها ظهور الاتحاد السوفياتي كقوة عالمية عظيمة يرى فيها جماعة من العرب نموذجاً لما تستطيع الشعوب العربية المتحررة ان تحقق من التقدم في فترة قصيرة من الزمن . ومنها امتداد الحركات والثورات التحريرية في آسيا ، وخروج الصين واندونيسيا والهند والباكستان من طوق الاستعمار الغربي . ومنها ما اصاب بريطانيا وفرنسا من ضعف ملموس ، وتعاظم مصالح اميركا في العالم اجمع ، وخاصة في العالم العربي ذي الموارد الطبيعية والبشرية الهائلة،والموقع السوقي العظيم (الستراتيجي) الذي يفصل بين المعسكر الشيوعي والمعسكر الغربي .

وأخذ الواعون من العرب يدركون اكثر واكثر ان البلاد العربية لا تستطيع ان تجابه الاستعمار الا بنضال متعاون ، موحد الغايات ، مترابط الحلقات . وادركوا ان تحرر اي بلد عربي هو حلقة في تحرر البلاد العربية جميعاً ، وحجر في طريق تحررها وتقدمها . وهكذا دخل الوعي القومي مرحلة جديدة ، نيرة ،

رفيعة . وعندما تأسست الجامعة العربية دعت بعض الاحزاب في العراق وسورية ومصر ولبنان الى تأسيس جامعة شعبية تضم مختلف الاحزاب في البلاد العربية لتسند الجامعة العربية الرسمية ، وتوجه خطاها ، وتدفعها الى ما فيه خير العرب . وقد جابهت هذه المحاولات معارضة ونقداً شديداً من بعض الحكومات العربية فلم تتحقق ، ولكن الفكرة ما زالت قائمة ، وما زالت الدعوة مستمرة لتحقيقها. وتقوم الآن حركة تضم عدداً كبيراً من المشتغلين بالقضايا السياسية والفكرية في البلاد العربية ، ينتمون الى مختلف المذاهب السياسية ، لعقد مؤتمر عام لشعوب الشرق الادنى ، من مراكش الى ايران ، لبحث مشاكل هذه البلاد ، وتوحيد اهدافها وخططها تجاه خطط الدول الغربية . كما دعا الاتحاد العربي في القاهرة ، في ١٩٥٢/١١/١٠ ، الى عقد المؤتمر الاول للشعوب العربية . ولكن هذا المؤتمر لم يعقد حتى الآن نظراً للظروف القائمة في مصر . ولئن لم تتحقق هذه الدعوات الى توحيد قوى العاملين في السياسة العربية رسمياً ، نتيجة لضغط الحكومات العربية وغير العربية وتدخلها ، فان الاحزاب السياسية والمشتغلين بالسياسة عموماً اخذوا يدركون ان توحيد قواهم ، وتنسيق خططهم، امر ضروري لنجاح كل حركة عربية تحريرية ، ويسعون لتحقيق التعاون العربي الشعبي[٤] .

وكانت قضية فلسطين منذ ابتدائها الى ان بلغت نهايتها الفاجعة

---

(٤) لم نتكلم عن هذه المؤتمرات السنوية التي يعقدها المحامون ، والاطباء ، والمهندسون ، والمثقفون والمشتغلون بقضايا التربية والتعليم العرب ، على ما لها من اثر عظيم في التقريب بين الاقطار العربية لانها لا تدخل في نطاق هذا الفصل.

وما زالت ، من العوامل التي أثارت وجدان العرب ، ودفعتهم الى التفكير في مصير بلادهم ، والعمل على توحيد خططهم . ومن نتائج هذا الوعي ما نراه من اهتمام العرب ، عوامٌ ومثقفين ، بشؤون البلاد العربية جميعاً . يطالعك ذلك في التظاهرات الشعبية الجماهيرية التي تقوم في البلاد العربية تأييداً لمراكش وتونس ومصر ، حين تمكن اقامة مثل هذه التظاهرات، ويطالعك في الجرائد والاذاعات وفيما يكتب الكتاب ، وينظم الشعراء ، ويخطب الخطباء . ان شعور العرب في اي قطر عربي، نحو اخوانهم الساكنين في الاقطار العربية الاخرى، لم يعد شعوراً غامضاً سطحياً ، وانما اصبح حقيقة واقعة ، تقوى يوماً بعد يوم ، وتزيده اعمال الدول المحتلة قوة واشتعالاً. ولو افسحت الحكومات العربية في حرية التنظيم الحزبي والنقابي ، ولو افسحت للشعب ان يظهر عواطفه، وتأييده الصحيح للشعوب العربية لكان التعاون العربي أمتن واقوى ، واشد ايجابية مما هو الآن . ان هذا الشعور بوحدة العرب ، ووحدتهم في تحمل مصائب الاحتلال ، وفي النضال ضد المستعمر من اجل التحرر ، ووحدتهم في المصير الذي ينساقون اليه، هو من اهم العوامل الجديدة التي تعمل على التقريب بين العرب .

القسم الثالث

عوامل التباعد والتفريق

٧. التنافس بين الاسر الحاكمة

•

نريد ان نبين في هذا الفصل مسؤولية ملوك العرب وامرائهم ورؤساء دولهم عامة فيما يعانيه العرب من تعدد الاقطار، واختلاف الكلمة ، والتأخر الداخلي ، والتخلف في المحيط الدولي. والحق ان القيام بهذه المحاولة التي تبدو سهلة ميسرة بل وبديهية مسلمة النتائج لدى عامة المفكرين العرب، من الامور الشاقة العسيرة على المؤرخ المدقق المنصف . فالتاريخ العربي الحديث ما زال في طور التكوين . وحقائق الدبلوماسية العربية ما زالت ، في الغالب، طي الكتمان . وما نشر عن اعمال الملوك والامراء ورؤساء الدول العربية وخططهم ونواياهم إما ان يكون دعاية نفخ في بوقها الاتباع والانصار ، او تشهيراً املته العداوة العمياء ، واغرى به الخصوم المتربصون ، او معلومات لفقتها الدول الاجنبية ذوات المصلحة لتبرير اعمالها، وستر نواياها ، وكسب عطف العرب على مشاريعها، والقليل منه حقائق مؤكدة يرتاح اليها الضمير المستنير . ولما كانت الدول العربية تكاد تكون جميعها خاضعة للنفوذ الاجنبي ، الخفي والسافر ، اصبح من الصعب على المؤرخ ان يؤكد فيما اذا كان هذا العمل او ذاك قد صدر عن هذا الحاكم او ذلك الملك بمحض

ارادته ، ومطلق تصرفه الحر ، او أملي عليه املاء لا إرادة له فيه ولا رغبة له به . يضاف الى ما تقدم ان المشاكل التي تعانيها البلاد العربية مزمنة متشابكة ، ولدتها ظروف وعوامل عديدة ، وزادها تقادم الزمن حدة وتعقيداً . ولن نحاول ان نؤرخ لدور كل ملك او حاكم في القضية العربية، ومسؤوليته الخاصة في الاحوال العربية الحاضرة ، فان ذلك موضوع طويل، متشعب الأفانين، قد يخرجنا عما نحن في سبيل توضيحه . وإنما سنقتصر على ذكر الحوادث والحقائق التي لا بد من ايرادها لتوضيح القضايا التي سنعرض لها في بحثنا هذا .

ولن نستطيع ان نقرر مسؤولية رؤساء الدول العربية في الاوضاع العربية الحاضرة ما لم نبين علاقة كل منهم بالدولة التي يرأسها ، ومدى نفوذه في تسيير الامور فيها ، وتحكمه بمقدراتها . وبحسبنا هنا ان نقول ان رؤساء الدول العربية ينعمون بنفوذ عظيم في دولهم يبلغ حد التحكم التام والسلطان المطلق ، او هو السلطان المطلق بعينه . فالامام في اليمن ، وابن سعود في الحجاز ونجد وملحقاتها، يحكمان حكماً فردياً ، يستند على الشريعة ظاهراً وعلى رغباتهما الشخصية عملياً. وقد ملأ دوائر دولتيهما الرئيسية باولادهما وذوي قرباهما الأدنين والأبعدين . وإذا سألت عن مالية الدولة فهي ملك ايديهما ينفقانها كيف شاءا . وأما سائر اقطار الجزيرة العربية الممتدة على سواحل البحر العربي والخليج الفارسي فيحكمها شيوخ قبائل، بحسب العرف والعادات القبلية وما ادخلته الحكومة البريطانية من انظمة وقوانين للمحافظة على مصالحها وامتيازاتها، لا

يمتد طموحهم الى أبعد من آفاق اشخاصهم ، فاذا اسرف في البعد فالى حدود قبائلهم ، او الاقطار الضيقة المحدودة التي يحكمونها ، إلا ان يكون هدفهم مشيخة او أمارة مجاورة يناصبون سلطانها العداء ، ويتربصون به الدوائر لايقاع الأذى به وبقومه، همّ احدهم ان يظل منفصلاً عن جيرانه ، « مستقلاً » في دولته الصغيرة، منفرداً بالحكم فيها .

واما في مصر والاردن والعراق وليبيا فرؤساء الدول فيها رغم نظام الحكم الديمقراطي ، والبرلمان المنتخب ، ينعمون بنفوذ لا يقل عن نفوذ ملوك الجزيرة وامرائها . فللملك حق حل مجلس النواب، وتأجيل انعقاده. وهو الذي يعين الوزراء ويقيلهم. وكثيراً ما استعمل الملوك هذا الحق وطبقوه حتى على الوزارات التي تدعمها اغلبية ساحقة في البرلمان كما فعل الملك فؤاد وابنه فاروق الاول بالوزارات الوفدية مرات عديدة مثلاً. وندر ان أقال برلمان عربي وزارة قائمة . ولما كان النظام النيابي العربي نظاماً صورياً ، تتحكم فيه الوزارات القائمة ، وتكيف الانتخابات كما تشاء ، ولما كان لرؤساء الدول هذه السيطرة التامة على الوزارة ، كان لهم بحكم الواقع النفوذ القوي على المجالس النيابية ايضاً . يضاف الى هذا تحكمهم في تعيين الموظفين الكبار ، إن لم نقل الصغار ايضاً، الذين يشرفون على الدوائر المهمة في الدولة ، وسيطرتهم على معظم الاحزاب والجرائد التي تهيء الرأي العام لتقبّل حكمهم بالرضا ، وتوجه تفكيره لتأييد اعمالهم ، وتمجيد اشخاصهم، وتقوده للعمل إلى ما فيه صالحهم ، وخلقهم لطبقة خاصة من الاغنياء المستغلين ،

والاقطاعيين ، والمتنفذين ، يدعمون نفوذهم ، وينفذون مشيئاتهم ، ويقودون لهم الشعب ذليلاً صاغراً. ولا يختلف نفوذ رؤساء الدول في لبنان وسورية عن نفوذ ملوك العرب إلا بالاسم حسب . اما في تونس ومراكش فما ترك تحكم الفرنسيين للسلطان والباي غير نفوذ عملي ضئيل لعله لا يتعدى محيط القصر والحاشية .

الحق ان نظام الحكم في البلاد العربية جميعاً ، وان تنوعت مظاهره واتخذ اشكالاً عصرية تقدمية ،هو النظام القبلي في جوهره ، حيث تدور الدولة حول شخص الحاكم ومن يلتف حوله ، وحيث يسير الشعب ، اغلبية الشعب الساحقة ، وراء هؤلاء الحاكمين مغمض العينين ، منسحق الشخصية ، مسلوب الارادة ، جاهل الهدف . فاذا صح الذي قدمناه عن نفوذ الحكام في البلاد العربية ، وهو صحيح لا شك في صحته ، يلمسه كل من له ايسر الالمام باحوال البلاد الداخلية ، كانت مسؤولية هؤلاء الحكام ، عما تنوء به الاقطار العربية من تأخر وتفكك وتباعد ، عظيمة ، لا يخفف منها كون البلاد العربية عريقة في التأخر ، خاضعة ، في الغالب ، للنفوذ الاجنبي . فما كان بامكان الاجنبي ان يخلد هذه البداوة التي يعيش فيها الكثير من ابناء العرب ، وهذا الجهل الذي يهيمون في ظلامه ، وهذا المرض الذي يهدد اجسامهم ، وهذه الفاقة التي تذل كرامتهم وتحد من آفاقهم الانسانية ، والبلاد الخصيبة من حولهم تتدفق ماء ونفطاً ، لولا معونة هؤلاء الحكام ورضاهم عما يفعل . وما كان بامكان عوامل التأخر العريقة هذه ان تستعصي على الحل في هذا القرن العشرين لو استقامت نيات الحكام ،وصدقت عزائمهم ،

ووجهوا هممهم وجهودهم ، كل هممهم وجهودهم ، لحاجات شعوبهم . ان عوامل التأخر هـذه قد جعلت اغلبية الشعب كمية مهملة في اوطانها ، الا من حيث الانتاج ، مشلولة عن التفكير في مصيرها ومصير القطر الذي تعيش فيه والامة التي تنتمي اليها ، وفسحت المجال للحكام لان يتصرفوا وفق نوازعهم الشخصية . وهذا هو اهم عوامل التباعد بين الاقطار العربية ، وتفكك الجبهة العربية في الميدان الدولي . لأن اية فكرة عن الوحدة العربية ، او التقارب العربي الحقيقي ، لا يمكن ان تتحقق الا اذا اصبحت عقيدة تعتنقها اغلبية الشعوب العربية ، المتحررة من الجهل والفاقة ، وتعمل في سبيلها بوعي مستنير ، وايمان راسخ ، وتدفع حكامها الى العمل في سبيلها دفعاً ، كما سبق أن قلنا في فصل سابق .

على ان هـذه الاسر الحاكمة لم تقتصر على ابعاد شعوبها عن المشاركة الفعالة في السياسة المحلية العربية وانما عملت ، بالاضافة الى هذا او نتيجة لهذا ، على اضعاف الجبهة العربية ، وتمزيق شمل العرب بما انغمست فيه من منازعات عنيفة ، ولدت احقاداً عميقة ، وعداوات متأججة في نفوس افراد الاسر الحاكمة ، وتركت اثرها حتى في نفوس افراد الشعوب العربية ذاتها . وطبعت علاقات الدول العربية بطابع الريبة والحذر وسوء النية . وسنقص عليك فيما يلي طرفاً من انباء هـذه الخصومات والمنافسات بين الاسر العربية الحاكمة .

تغير ميزان القوى في بلاد العرب منذ مطلع القرن العشرين تغيراً كبيراً . فقد تقلص نفوذ الامبراطورية العثمانية عن اقطار

الجزيرة العربية، ولم يبق بايدي العثمانيين غير اقطار الهلال الخصيب فركزوا فيها حكمهم ، وقووا نفـــوذهم ، واحكموا ربطها بامبراطوريتهم الهرمة ادارياً واقتصادياً وثقافياً. ودخلت الاقطار العربية الممتدة على سواحـــل الخليج الفارسي والبحر العربي تحت الحماية البريطانية بمعاهدات واتفاقات عقدتها بريطانيا مع امراء هذه الاقطار وشيوخها. واما اقطار جزيرة العرب الاخرى فقد تقسمتها خمس اسر حاكمة كانت كل واحدة منها تسعى الى توسيع منطقـة حكمها والسيادة على جيرانها . وقد استمرت هذه المنازعات قائمة بينها منذ مطلع القرن العشرين حتى منتصف العقـد الرابع منه . فقد جمع الامام يحيى شمل الزيود في اليمن،وتمكن من توطيدسلطانه فيه . وفشل السلطان عبد الحميد ، ورجال تركيا الفتاة من بعده ، في اخضـاع اليمن اخضاعاً تاماً لسلطانهم . وبعد ثورات متعددة قادها الامـام يحيى تمكن من دخول صنعاء عام ١٩١١ ، وسيطر على الاجزاء الجبلية الداخليةمن اليمن ، واعترف الاتراك بنفوذه، ولم يبق لهم فيه غير نفوذ اسمي لا يتعدى المناطق الساحلية . وفي عسير اعلن السيد محمد علي الادريسي الثورة على الاتراك ، وتمكن من الانفصال الفعلي عن الدولةالعثمانية بمساعدةالايطاليين قبيل الحرب العالمية الاولى . وفي نجـد تمكن السلطان عبد العزيز آل سعود من استرجاع الرياض من آل الرشيـد بمساعدة امير الكويت له عـام ١٩٠٢ ،واخذ يبسط نفوذه على نجد. واستغل ضعف الدولة العثمانية وانشغالها في حرب البلقان فاحتل الاحساء عام ١٩١٣ بالاتفاق مع حكومة الهند البريطانية . وكانت الاحساء يومذاك خاضعة لسلطة

والي بغداد العثماني . وكان شمال نجد خاضعاً لسلطان آل الرشيد الذين كانوا يحكمونه من قاعدة امارتهم حائل . واما الحجاز فقد كان ولاية عثمانية . وكان يديره الى جانب الوالي العثماني ، شريف مكة ومن اهم وظائفه سدانة الكعبة والاشراف على الحج . وفي عام ١٩٠٨ اختار الاتحاديون حسينَ بن علي بن عون شريفاً لمكة ، على كره من السلطان عبد الحميد . وكان شريف مكة الجديد عظيم الطموح ، واسع الحيلة ، على اتصال بالحركات القومية الناشئة في الاقطار العربية ، وفي بلاد الهلال الخصيب بخاصة . وقد عمل ، منذ تسلمه زمام منصبه ، على تثبيت دعائم حكمه في الحجاز ومد نفوذه على قبائله ، وتوطيد زعامته بين المشتغلين في القضايا القومية العربية . حتى طغى نفوذه على نفوذ الوالي التركي ، واصبح هو المصرّف لشؤون الحجاز الزمنية والدينية .

فلما نشبت الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ اخذ الانكليز يبحثون لهم عن حلفاء بين امراء الجزيرة العربية . اما امام اليمن فقد اعلن حياده . واما الادريسي فقد اعلن ولاءه للانكليز ودخل معهم في حلف عام ١٩١٥ . وكذلك فعل السلطان عبد العزيز آل سعود . اما ابن الرشيد فقد انضم الى الاتراك الذين كانوا يسندونه ضد عدوه اللدود ابن سعود . واما شريف مكة فقد كتب له ان يكون حليف بريطانيا الاول وزعيم الثورة العربية « الكبرى » .

كان البريطانيون يبحثون عن زعيم عربي يقود الجزيرة العربية ضد الاتراك . وقد اختلف الساسة الانكليز فيمن ينصبونه زعيماً . فكانت حكومة الهند ترى دعم نفوذ ابن سعود وترئيسه على

الجزيرة . بينما كان لورنس ومن معه من رجال بريطانيا في القاهرة يرون ترئيس شريف مكة . وقد نجحوا . وتوالت الاتصالات والمكاتبات بين الشريف حسين وممثلي الحكومة البريطانية في القاهرة حتى انتهت الى تفاهم قائم على وعود قطعتها الحكومة البريطانية على لسان ماكماهون معتمدها في مصر مؤداها : ان بريطانيا مستعدة للاعتراف باستقلال العرب وتأييده في جميع اقطار الجزيرة العربية والهلال الخصيب ، عدا المناطق التي تطمح فرنسا الى مد نفوذها عليها، والمناطق الداخلة تحت الحماية البريطانية او التي لامرائها حلف مع بريطانيا . وفي اليوم العاشر من حزيران ١٩١٦ اعلن شريف مكة الثورة على الاتراك . واشتركت قواته في الحرب الى جانب القوات الحليفة وانتهت باجلاء الاتراك عن الحجاز واحتلال سورية . وقد رحب كثير من امراء الجزيرة بالثورة واعلنوا تأييدهم لها في اجتماع عقدوه في الكويت بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني وحضره ابن سعود وامير الكويت وشيخ المحمرة وما ينوف عن المئة والخمسين شخصاً غيرهم بينهم بعض رؤساء العشائر الصغيرة الاقوياء . ونشط الشريف حسين في توطيد حكمه في الحجاز ، بينما كان ابناؤه يقاتلون الاتراك في الميدان ، فأوحى الى اشراف مكة ان ينادوا به « ملكاً على العرب » في ٢٩ تشرين الاول ١٩١٦ . وتقبل منهم البيعة في ٢ تشرين الثاني . وتلقت الدول الحليفة الكبرى هذا النبأ بالدهشة ، لأنه تجاوز على المركز الذي يحتله بعض امراء الجزيرة العربية . ولم تعترف به انكلترا وفرنسا وايطاليا إلا بوصفه ملكاً للحجاز . على ان الشريف حسيناً

استمر في تسميته نفسه ملك العرب ، او ملك البلاد العربية ، في علاقاته مع جيرانه ورعاياه ، على الرغم من نصح الحلفاء له بترك هذا اللقب الذي يزعج امراء العرب الآخرين ، ويثير حفائظهم عليه ويدعو الى الشك في نواياه .

كان الملك حسين ، وعلى الأخص منذ اعلن الثورة على الاتراك ، يرى نفسه حامل لواء القضية العربية ، وزعيم العرب ، المتكلم باسمهم، الممثل لآمالهم. وكان يطمح الى رئاسة الدولةالعربية الكبرى كما ينم على ذلك هذا اللقب العريض الذي اطلقه على نفسه ، او اوحى لأشراف مكة ان يطلقوه عليه ، ملك العرب ! وكان السلطان عبدالعزيز آل سعود يعد نفسه للسيادةعلى الجزيرة العربية، ويرى نفسه حامل رايةالحركة الوهابية التي كان يطمح ان تُظل اقطار الجزيرة العربية جميعاً. لقد ايد ثورة الحسين لكرهه للاتراك وولائه للانكليز ، ولكنه لم يكن مستعداً للتسليم للحسين بالزعامة المطلقة . « ان الحسين لو نجح في تسوية الخلاف مع ابن سعود لاستطاع في الغالب تجنب الكارثة . ولكن عندما حان الوقت لتأسيس عهد جديد في الجزيرة تبين ان الصفات التي يجب ان يتحلى بها الحاكم تعوزه بالرغم من المقدرة وبعد النظر اللذين اظهرهما عند استعداده للثورة . وكانت اولى خطيئاته اعتقاده بان قيادة الثورة قد منحته سلطاناً سياسياً على جيرانه . لقد رحب كل من الادريسي وابن سعود بحلفه مع بريطانيا وخصومته مع الترك ولكنهما لم يفكرا قط في ان يكونا من اتباعه او ان يتنازلا عن حقوقهما في التمتع بالسيادة التامة في اراضيهما فاستاءا منه حين اتخذ لنفسه لقب « ملك

العرب » الذي يعني ضمناً السيادة الشاملة. ومما زاد في توتر العلاقات مع ابن سعود انه زعيم حركة البعث الوهابي التي تمتد الدعوة لها خارج حدود نجد في مناطق يعدها الحسين تابعة له »[1]. كان الاصطدام بين هذين الاميرين العربيين اللذين يسعى كل منهما الى بسط نفوذه على الجزيرة امراً محتوماً. وازدادت العلاقات بينهما توتراً حين حدث بينهما خلاف على الحدود. وقد حاول الحسين، خلال الحرب، ان يوجد حلاً سلمياً للخلاف فلم يفلح. فما كانت اساليبه القائمة على العنف احياناً، وعلى التظاهر بالعطف على ابن سعود والاحتقار احياناً، لتقنع ابن سعود بحسن نياته، وعلى الاخص ان الحسين كان اضعف مركزاً، واقل جنداً، واكثر ارتباكاً في علاقاته الدولية[2].

وقع اول اصطدام خطير في ١٩ ايار ١٩١٩ قرب تربة الواقعة على حدود الحجاز الشرقية. حيث اجهزت قوات ابن سعود على جيش يقوده الامير عبد الله وكادت تفنيه. وكان نصر الوهابيين حاسماً. وكان بامكانها ان تندفع قدماً لتحتل الحجاز باسره لولا ان تدخلت بريطانيا واضطرت ابن سعود، الذي كان حليفاً لها يتقاضى اعانة مالية منها، على وقف القتال، وعدم التعرض للحسين

(١) انظر انطونيوس، اليقظة العربية، الترجمة العربية ص ٣٦٠ - ٣٦١

(٢) يروي الريحاني، ملوك العرب ٢ : ٦٣، ان السلطان عبدالعزيز اطلعه على كتاب من الملك حسين « فحواه ان الملك حسينا يدعو السلطان الى الصلح والى الولاء والاتفاق، ويعرض عليه ذلك مقيداً بشروط منها ان تعاد تربة والخرمة الى الحجاز، وان يعاد الى ابن الرشيد ملكه في حائل وسيادته في جبل شمر. »

باذى في المستقبل . وقد تركت هذه الواقعة اثراً اليماً واحقاداً متأججة في نفس الحسين وابنه عبد الله ، فلم يستمع لنصح بريطانيا ونصح اصدقائه من العرب ، بالمصالحة مع ابن سعود وبقي يتربص بـه الدوائر . فتحالف مع ابن الرشيد وغيره من شيوخ العشائر المقيمة في اطراف نجـد ، وحاول كذلك ان يوجد علاقات ودية مـع امام اليمن . أما ابن سعود فقد دفعه نصره على الحسين الى تصفية حسابه مع آل الرشيد – الذين يكنّ لهم احقاداً قديمة وثارات متجددة وعلى الاخص منذ ان هزموه في معركة جراب عام ١٩١٥ ، والذين ضعف مركزهم بانهيار الدولة العثمانية ، واستيلاء الانكليز على العراق ، وتقلقـل مركز حليفهم الحسين – فهاجم حائل في خريف ١٩٢١ ، وقضى على اسرتهم الحاكمة ، واستولى على منطقة حكمهم بكاملها ، وألحق شمر كلها بنجد حتى اتصلت حدود نجد بحدود العراق .

ولم يبق امام ابن سعود ، بعد قضائه على آل الرشيد ، الا ان يصفي حسابه مع الحسين . وكان الحسين ، بعد انتهـاء الحرب ، مرتبكاً ، كثير المشاكل ، جمّ الشجون . فقد اخلفت بريطانيا وعودها التي قطعتها له ، واقتسمت البلاد بينها وبين فرنسا ، وخذلته في صراعه مع عدوه ابن سعود . وكان خلافـه مع ابن سعود يضعف مركزه تجاه بريطانيا ، ويفت في عضده . ولكنه بدلاً من ان يحل مشاكله مع ابن سعود صلحاً ، ليتفرغ لبريطانيـا ، زاد علاقاته به توتراً . وقد عجز عن ان يقيم حكماً صالحاً في الحجاز ، واساء إلى الحجاج الذين يفدون إلى مكة كل عام . وأدت تصرفاته

مع جيرانه إلى نشوب الخلاف بينه وبين الحكومة المصرية والادريسي . وزادت سياسة الحسين ارتباكاً ، وازداد مركزه ضعفاً في نظر العرب والمسلمين ، حين نزل على رغبة ابنه عبدالله امير شرقي الاردن فقبل لقب خليفة المسلمين على اثر الغاء الكماليين لمنصب الخلافة ونفيهم الخليفة عبد المجيد الثاني . وقد اعطى قبوله هذا المنصب عبدالعزيز آل سعود الحجة لمحاربته كمبتدع خارج على إجماع المسلمين ، وأخذ يصوره في دعايته أنانياً ، انتهازياً ، يريد تحقيق مطامعه الشخصية في السيادة على العرب والمسلمين على حساب الاسلام والمسلمين . هاجم الوهابيون الطائف في الاسبوع الأخير من شهر آب ١٩٢٥ فخربوها ، واعملوا السيف في رقاب سكانها ، فساد الفزع الحجاز عموماً ، والتمس اهل مكة من الحسين ان يتنازل عن العرش . فتنازل عن العرش لابنه الملك علي وغادر البلاد الحجازية إلى العقبة فأخرجه الانكليز منها لان ابن سعود كان يطالب بها وسمحوا له بالالتجاء إلى قبرس . اما الملك علي فلم يستطع الصمود امام الوهابيين فاستسلم في كانون الأول من عام ١٩٢٥ ، وغادر الحجاز إلى بغداد حيث عاش لاجئاً في بلاط اخيه . وفي ٨ كانون الثاني من عام ١٩٢٦ نصب عبد العزيز آل سعود ملكاً على الحجاز .

وكانت العلاقات بين الامام والادريسي متوترة قائمة على المخاوف ، والشكوك ، والاحقاد . فقد اصبح الامام السيد المطلق في اليمن منذ ان جلا الاتراك عنه عقب انتهاء الحرب . وكان يطمح إلى توسيع رقعة ملكه حتى تبلغ بلاده الحدود التي ادعى هو واتباعه

انها حدودها التاريخية وادخل ضمنها مساحات كبيرة من عسير . وكان يرى الادريسي ضعيفاً ، دعياً ، صنيعة للانكليز. احتل البريطانيون ميناء الحديدة في أعقاب الحرب بعد استسلام القوات التركية في اليمن وكانت الحديدة ثغر اليمن اثناء الحكم التركي. فلما جلا الانكليز عنها في ٣١ كانون الاول سنة ١٩٢١ سمحوا للادريسي بدخولها وإلحاقها ببلاده . فحرمت تجارة اليمن من منفذ طبيعي وضروري كانت تستعمله لاجيال خلت . وهذا احد اسباب التوتر بين الادريسي والامام . وقد ساءت حال عسير بعد وفاة السيد محمد عميد الاسرة الادريسية في اوائل سنة ١٩٢٣ . فنشب الخلاف بين خلفه وغيره من اعضاء الاسرة ووقعت حرب اهلية استغلها الامام فاحتل المناطق الجنوبية من عسير مع جزء كبير من الساحل من ضمنه الحديدة. وقد استنجد الادريسي القائم بالحكم يومذاك بابن سعود ولكنه امتنع عن التدخل . فلما وجد في النزاع القائم بين الامام وامراء عسير ان الامام عازم على ضم جنوبي عسير بكاملها إلى اليمن تدخل وعقد اتفاقاً مع الادريسي [معاهدة مكة المؤرخة في ٢٢ كانون الاول ١٩٢٦] ، وضعت بمقتضاه عسير نفسها تحت حمايته . على ان الادارسة لم يستطيعوا اصلاح شأنهم . وكان لا بد لهم من الانضمام الى ابن سعود او الخضوع لامام اليمن فاختاروا الامر الاول . وفي عام ١٩٣٠ عقد اتفاق آخر وضعت فيه عسير وضعاً رسمياً تحت حماية ابن سعود ، واصبحت من كل الوجوه تابعة للمملكة . وهكذا اصبح سعود وامام اليمن وجهاً لوجه في معترك السيادة على الجزيرة العربية . اعلن ابن سعود حمايته

على عسير لوقف توسع الامام فيه، وكان قد استرجع، اي الامام، الحديدة وسهول تهامة ومنطقة جبلية وساحلية كان الادريسي يحتلها، ووقعت الحرب بينهما اخيراً، بعد مفاوضات دامت ثلاث سنوات، بسبب النزاع القائم بين الطرفين على بعض المناطق الواقعة في اطراف الحدود التي لم تعين . وانتصر الوهابيون انتصاراً سريعاً حاسماً . وانتهت الحرب بمعاهدة الطائف المعقودة بتاريخ ٢٠ ايار ١٩٣٤ التي اعترف فيها الامام بحدوده فلم يطالب بضم اي اقليم جديد إلى ممتلكاته.

انتهت هذه المنازعات الدموية بين امراء العرب في الجزيرة بالقضاء على امارة آل الرشيد في شمر ، ومملكة الهاشميين في الحجاز ، وسلطنة الادارسة في عسير . واصبح ابن سعود سيد الجزيرة المطاع . وانطوى الامام على نفسه في اليمن لا يتدخل في الشؤون العربية الا من بعيد . وكانت هذه المنازعات بين امراء العرب من اقسى الضربات التي اصابت القضية العربية ، واضعفت ناصر العرب المكافحين عن حريتهم واستقلال اوطانهم في شمال افريقية ومصر والهلال الخصيب . فبينما كان العراقيون والمصريون والسوريون يصارعون قوات الاحتلال البريطانية والفرنسية التي تفوقهم عدداً وتنظيما ومالاً وسلاحاً ، كان امراء الجزيرة يفني بعضهم بعضاً ، ويكيد بعضهم لبعض ، ويقدمون آلاف القرابين من ابناء العروبة على مذبح مصالحهم الشخصية . وبينما كانت الصهيونية العادية تغزو فلسطين وتعد العدة لتشريد سكانها الآمنين كان امراء الجزيرة يتفانون على شبر من الارض يغتصبه احدهم من الآخر ، لاهين عن عذابات اخوانهم في الاقطار العربية المحتلة ، وعما ينزله بهم المحتلون

من بلاء منكر ، ونحن جسام ، لا يمدون لهم يد المساعـدة ، بل ما يكادون يفكرون بهم مجرد تفكير [3] . وكذلك اضعفت هـذه الخصومات مركز الحكومات العربية امام الدول الغربية بعيـد الحرب العالمية الاولى . فلو كان الملك حسين على وفاق مع السلطان عبد العزيز آل سعود لكان موقفه تجاه بريطانيا اشد قوة واعظم سنداً ، ولما استطاعت بريطانيا ان تخذله ذلك الخـذلان المرير ، ولكان حظ العراق وسورية ، بله فلسطين ، احسن مما كتب لها .

وكان امراء الجزيرة يتغنون بالوحدة العربية ، والاتحاد العربي والتقارب بين العرب ، وهم يعدون العدة لأفناء بعضهم بعضـاً . يقول امين الريحاني [4] : « قال لي الملك (حسين) يوم ودعتـه . وهو يقبض على لحيته : « اني لا ابغيها (اي الزعامة) لا ابغيها . ليتفق امراء العرب عليها وانا اعتزل . ليتفقوا على تأييد الوحدة

(٣) يروي الريحاني ، مـلوك العرب ٢ : ٦١ ، عن ابن سعود : « ... الانكليز مدينون لنا ، ترى الصحيح يا استاذ ، ونحن لا نطالبهم ، من العار ان نطالبهم . ولكن ما هي سياستهم الآن ، تراهم يغزلون ويغزلون . تراهم يدسون الدسائس علي – علي انا صديقهم ابن سعود – احاطوني بالاعداء ، اقاموا دويلات حولي ، ونصبوا من اعدائي ملوكاً ، وهم يمدونهم دائماً بالمساعدات المالية السياسية . الشريف في الحجاز ، وابنه عبدالله في شرق الاردن ، وابنه فيصل في العراق ... ما القصد من هذه الاعمال؟ وما الداعي اليها ؟ انا ابن سعود صديق الانكليز وهم في سياستهم الشريفية يعاملوني معاملة العدو ... ومن هو ابن سعود في نظر الشريف واولاده ؟ هو الجلف الكافر والخارجي : ترى الصحيح حضرة الاستاذ . قد قالوا عني ذلـك ، بل قالوا اكثر من ذلك وهم مع ذلك يطلبون مني ان احمل على الفرنسيين في سورية لأخرجهم منها . ترى الصحيح ... »

(٤) ملوك العرب ١ : ٧٦

العربية فأنسحب إذا شاؤوا واشاركهم بما يتفقون عليه تابعاً كنت ام متبوعاً . اقول ، يا حضرة النجيب ، تابعاً كنت ام متبوعاً . »

ومع ذلك كان يصر على تلقيب نفسه بملك العرب ، ولا يرضى عن هذه التسمية بديلا ، ولا يستطيع ان يقرّ اي مشروع مع اي امير عربي لا يعترف له بهذه الصفة العظمى . ويقول الريحاني ايضاً[٥] : « كانت الوحدة العربية حديثنا في جلسات عديدة . ولكن السلطان (عبد العزيز) ، عندما دنا يوم الرحيل ، افاضَ في الموضوع فدونت خلاصة حديثه تلك الليلة وعرضتها عليه في الليلة التالية واصلح خطأي فيها . واليكها ايها القارىء في الحالين .

« رأي السلطان عبد العزيز في الوحدة العربية :

١ – هو يبغي الوحدة العربية ويساعد من سعى باخلاص في تحقيقها . فيحضر اجتماعاً يعقد لهذه الغاية ، ويقبل الزعامة والبيعة ملكا على البلاد العربية كلها لاعتقاده انه اهل لها ويستطيع تعزيزها .

٢ – وإذا بايع العرب غيره فهو يقبل ذلك ولا يتحول عن فكرته ، بل يستمر في خدمة القضية العربية بما يستطيع ..

٥ – وفي كل حال هو رجل سلم في بلاده لا يبغي الاعتداء على احد ولكنه يأبى ان يعتدي عليه احد .

كتبت خلاصة الحديث تلك الليلة كما هو اعلاه وأطلعت السلطان عليها لأتحقق صحة الرواية . فقرأ ما كتبت مادة مادة ثم اخذ القلم وضرب على المادة الثانية قائلا : أسأت فهمنا فيها . نحن لا نقول كلمة ينقلها عنا الأستاذ الريحاني ولا نثبت عليها . ولكن

(٥) ملوك العرب ٢ : ١٠١ – ١٠٢

هذا لا يكون . اشار وهو يتكلم الى المادة الثانية ثم قال : نحن نعرف انفسنا ولا نقبل الرياسة في غيرنا .

أيذكر القارىء ما قاله لي الملك حسين ساعة الوداع ؟ انا لا ابغيها - اي الزعامة - واساعد في تحقيقها - اي الوحدة - تابعاً كنت او متبوعاً ؟ او لا يذكر كذلك انه رفض ان يوقع المعاهدتين بينه وبين الامام يحيى والادريسي لأنهما لم يعترفا له بالزعامة العامة ، لم يلقباه بملك العرب ؟ « الزعامة اولاً وآخراً ، وعلى مذبحها فلينحر امراء العرب وملوكهم الأمة العربية ، والوطن العربي » .

انتهى النزاع بين الحسين وابن سعود على ذلك الشكل المحزن . ولكن العداوة لم تنته . فما نسي الهاشميون في العراق والأردن انه اخرجهم من بلادهم ، واستولى على ملكهم ، وأذلهم في أعين انفسهم واعين الناس . ولم يغب عن ابن سعود انه شرد آباء الحاكمين في الأردن والعراق . فبقي يتوجس منهم ، ويرتاب بكل عمل يقومون به ، وكل مشروع يدعون اليه . وقد اصطبغت السياسة العربية منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا بهذه الروحية القائمة على الشك والريبة وسوء الظن . تلمس ذلك في الخلافات المحتدمة بين اعضاء الجامعة العربية ، وحول القضية الفلسطينية ، وحول مشروع سورية الكبرى ، ومشروع توحيد الأردن والعراق ، وغيرها من القضايا العربية الكبرى . ان المنافسات الحادة بين الأسر الحاكمة التي احتدمت حول مشروع سورية الكبرى تفسر لنا طبيعة العلاقات القائمة بين الحكام العرب ، ومدى تأثير هذه

العلاقات في القضايا العربية . ولأجل ان نفهم هذا المشروع يجدر بنا ان نلم بالأسس التي قام عليها ، والدوافع التي عملت على بعثه في هذه السنوات الأخيرة .

ان الأقطار العربية التي كانت تُعرف سابقاً بالديار الشامية او بلاد الشام او بالبر الشامي ، والتي تعرف الآن بسورية الطبيعية المؤلفة من سورية ولبنان وشرق الاردن وفلسطين ، تكوّن وحدة جغرافية واقتصادية . وقد كانت في العهد العثماني متشابهة في إدارتها الحكومية اذا استثنينا لبنان الذي فُصل ، بعد التسوية التي عقبت حوادث عام ١٨٦٠ ، عن سائر اجزاء البلاد ومُنح نظاماً ممتازاً يقوم على اساس الاستقلال الذاتي والادارة المحلية ، ويقوم على رأسه حاكم مسيحي يعاونه مجلس إداري يمثل السكان .

وقد ظهرت الحركة القومية العربية ، اول ما ظهرت ، بمفهومها الحديث ، في بلاد الشام . ونشطت الجمعيات والاحزاب ، في سورية وحاضرة السلطنة العثمانية واوربا ، تدعو الى حق العرب في التحرر والسيادة والاستقلال عن السلطنة العثمانية . وقد قدمت بلاد الشام الضحايا الغالية في سبيل القضية العربية . فلما قام الحسين بثورته على الاتراك ، ايده السوريون وباركوا حركته ، والتفوا حول ابنه فيصل حين دخل الشام ظافراً في ٢ تشرين الاول ١٩١٨ . ونشطت الحركة الوطنية في سورية تؤيد الاستقلال السوري . منها « حزب الاتحاد السوري » الذي تكوّن في مصر من كبار السوريين واعلن مطالبه التي تتلخص في انشاء دولة سورية بوحدتها القومية فتمتد من جبال طوروس شمالاً والخابور

فالفرات شرقاً والصحراء العربية فمداين صالح جنوباً والبحر الاحمر فالعقبة ورفح فالبحر المتوسط غرباً . وتكون دولة سورية هذه مستقلة استقلالاً تاماً بضمانة عصبة الامم . وقام في دمشق الحزب الوطني السوري ونادى بالمطالب الاساسية نفسها وهي استقلال سورية بحدودها الطبيعية ، والغاء العلاقات القومية والثقافية والاقتصادية بين البلاد العربية . ثم عرض لنظام الحكم فطالب بحكومة ملكية ذات طابع ديموقراطي تحت رياسة فيصل وتكون الحكومة مسؤولة امام نواب الشعب وممثليه .

وقد اثبت التحقيق الذي قامت به لجنة كنك - كراين الاميركية في بلاد الشام في عام ١٩١٩ ان اغلبية السوريين يؤيدون الوحدة السورية ، والاستقلال التام الناجز ، وقيام حكومة ملكية نيابية لا مركزية يرأسها الملك فيصل . ويرفضون دعاوى الصهيونية في فلسطين .

على ان البريطانيين والفرنسيين لم يراعوا اجماع العرب في سورية على التحرر والاستقلال والوحدة ، وكانوا عازمين على تنفيذ اتفاقية سايكس - بيكو المعروفة. وسافر الامير فيصل الى فرنسا مندوباً عن ابيه ليعرض قضية العرب على مؤتمر السلام . ولكنه لم يلق اذاناً تصغي لمطالبه . فقد كانت الدول الحليفة الكبرى مشغولة بتقسيم اسلاب المغلوبين . وبعد محاولات فاشلة للتفاهم مع بريطانيا وفرنسا اجتمع بكليمنصو ، تحت ضغط بريطانيا ، يوم ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٩، فأقر اسس الاتفاق المؤقت بين الفرنسيين والعرب ، وهي تقضي بان تحترم المملكة العربية في داخل سورية احتلال فرنسا

لبنان وسائر المناطق الساحلية السورية حتى الاسكندرون في الشمال على ان لا يمتد هذا الاحتلال الى البقاع الذي يصبح منطقة حياد ما بين الادارتين الفرنسية والعربية. وقضت كذلك بان تعتمد الدولة العربية بعد الآن على فرنسا للحصول على اية معونة قد تحتاجها. اما في سورية فقد استهجن الشعب اتفاق فيصل وكليمنصو. واخذ الناس يشعرون بان فيصلاً قد باع البلاد للفرنسيين، وانه قد سلم بامور لا يملك حق التنازل عنها بحكم التعليمات التي تلقاها من والده، وبحكم اجماع العرب على رفض تقسيم سورية وفرض اي نوع من انواع الوصاية الاجنبية. وعاد فيصل الى دمشق في ١٤ كانون الثاني ١٩٢٠ ليجد شعبيته قد ضعفت، والناس يستقبلونه في فتور.

ودعي الشعب الى انتخاب نواب يمثلونه ليكونوا جمعية تاسيسية تمثل جميع الاقاليم السورية. وقد انعقدت هذه الجمعية التأسيسية (التي عرفت بالمؤتمر الوطني) في دمشق في ٨ آذار ١٩٢٠. وقد اتخذ المؤتمر قراراً جاء فيه: «ان المؤتمر السوري العام الذي يمثل الامة السورية في مناطقها الثلاث الداخلية والساحلية والجنوبية (فلسطين) تمثيلاً تاماً ... أعلنا باجماع الرأي: استقلال بلادنا السورية بحدودها الطبيعية (ومنها فلسطين) استقلالاً تاماً لا شائبة فيه على الاساس المدني النيابي... وقد اخترنا سمو الامير فيصل... ملكاً دستورياً على سورية ... على ان تدار هذه المقاطعات على طريقة اللامركزية الادارية وان تراعى اماني اللبنانيين في كيفية ادارة مقاطعات لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب بشرط ان

يكون بمعزل عن كل تأثير اجنبي .

ولما كانت الثورة العربية قد قامت لتحرير الشعب العربي من حكم الترك وكانت الاسباب التي يستند اليها في استقلال القطر السوري هي ذات الاسباب التي يستند اليها في استقلال القطر العراقي وبما ان بين القطرين صلات وروابط لغوية وتاريخية واقتصادية وطبيعية وجنسية تجعل احد القطرين لا يستغني عن الآخر فنحن نطلب استقلال القطر العراقي استقلالاً تاماً على ان يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسي واقتصادي .[٦]

وقد أيدت الوزارة السورية هذا القرار في بيانها الذي تقدمت به الى المؤتمر السوري العام يوم ٢٧ آذار ١٩٢٠، كما ايدته الوزارة السورية الثانية في بيانها الذي تقدمت به إلى المؤتمر الوطني في ٨ نوار ١٩٢٠ .

واجتمع المجلس الاعلى للحلفاء في سان ريمو واتخذ مقرراته بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٢٠ وهي تقضي بوضع المستطيل العربي كله الممتد من البحر الابيض المتوسط الى حدود فارس تحت الانتداب وتقسيم سورية الى ثلاثة اقسام مستقلة هي فلسطين ولبنان وما تبقى من سورية الطبيعيـــة . وقد وضعت سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، ووضعت فلسطين والعراق منفصلتين تحت الانتداب البريطاني . واخذت فرنسا ، بعد اعلان مقررات سان ريمو ، تعد العدة لاحتلال سورية الداخلية . وفي ١٤ تموز وجه

---

(٦) راجع سوريا الكبرى . الكتاب الاردني الابيض ، عمان . ص ٥-٩

الجنرال غورو انذاره المشهور الى الملك فيصل الذي يتضمن قبول سورية للانتداب الفرنسي قبولاً مطلقاً ، والغاء التجنيد الاجباري وتخفيض عدد الجيش العربي . وقرر فيصل قبول الشروط كلها بلا مناقشة فأثار بذلك دهشة اعوانه وغضبهم وعرض نفسه لنقمة جمهور الشعب . وقد شجعه على المضي في تنفيذ قراره استلامه برقية من اللورد كرزون يشير فيها بتجنب الاصطدام مهما كلف الامر .

ولكن المؤتمر الوطني ، ومن ورائـه الشعب السوري ، رفض الانذار ، وعزم على النضال حتى النهاية. وفي ١٩ تموز اصدر قراراً جاء فيه « .. فالحكومة الحاضرة اذا خالفت بيانها الرسمي ولم تقم بواجبها تجاه البلاد وارادت ان توقع على صك يخالف قرار المؤتمر، فالمؤتمر يعتبرها بتوقيعها غير شرعية » . عـلى ان الوزارة بدأت بتنفيذ الانذار في مساء اليوم نفسه . وفي اليوم التالي تلي مرسوم ملكي بتعطيل جلسات المؤتمر لمدة شهرين . ثم تقدمت الجيوش الفرنسية زاحفة على دمشق . فثارت ثائرة سكانها ، فقـاوم الملك فيصل رغبة الشعب هذه بالعنف فقتلت شرطته اكثر من مئـة شخص في شوارع دمشق . ثم كانت ميسلون . وكان اول اعمال الفرنسيين في دمشق دعوة فيصل الى مغادرة البلاد . فغادرها يوم ٢٨ تموز ومعه زملاؤه المقربون ، حزيناً ، وقد فقد عرشه، واضاع هذه الشعبية الضخمة التي قدمها له الشعب السوري عن حب وتقدير، وطويت صفحة الهاشميين في سورية لتفتح مكانها صفحة نضال الشعب السوري الدامية ضد الانتداب الفرنسي طوال عشرين عاماً .

خلال هذه الاعوام العشرين ثبت الفرنسيون حكمهم في

سورية ولبنان بالعنف . فجزأوا البلاد ، ووجهوا اقتصادياتها وإدارتها وثقافتها الوجهة التي تؤمن مصالحهم وتركز نفوذهم . واقتطع الانكليز القسم الجنوبي من سورية ونصبوا عليه عبد الله ابن الحسين اميراً ، ودعوه شرق الاردن . واستغلوا انتدابهم على فلسطين فمكنوا للصهيونية ان تنمو وتتوسع . وكان السوريون والفلسطينيون يكافحون انتداب بريطانيا وفرنسا العادي ، والصهيونية الزاحفة ، وحيدين ، قد شُغل عنهم امراء الجزيرة بمنازعاتهم ، وصُرف عنهم الملك فيصل بتثبيت قواعد ملكه في العراق . اما الامير عبد الله فلم يترك له الانتداب البريطاني مجالاً للعمل القومي إلا ان يحلم احلامه الامبراطورية ، وان يتغنى بامجاد الثورة العربية الكبرى ، ويشيد بفضله على القضية العربية ، حاقداً على امراء العرب اجمعين لا يستثني منهم احداً حتى ولا اخاه الملك فيصل الذي يتهمه بانه اغتصب منه عرش العراق الذي بايعه عليه نفر من الشبان العراقيين في دمشق اثناء مبايعة السوريين لأخيه فيصل ملكاً على سورية .

وعندما انهارت فرنسا في بداية الحرب العالمية الثانية ، قرر الانكليز احتلال سورية ولبنان بالتعاون مع قوات فرنسا الحرة . وقد وعدت بريطانيا وفرنسا الحرة السوريين بالاستقلال . وتحقق هذا الوعد بفضل نضال الشعبين السوري واللبناني ، والظروف الدولية يومئذ ، وأعلنت الجمهورية في كل من البلدين . وهنا نزل الامير عبدالله الى الميدان ، واخذ يدعو الى مشروع سورية الكبرى . وهذا المشروع ينقسم الى مشروعين اثنين . اما

المشروع الاول فيهدف الى قيـــام دولة متحدة في سورية الطبيعة (التي تشمل سورية الشمالية ولبنـــان وفلسطين وشرق الاردن) ، مستقلة ذات سيادة ، يكون نظام الحكم فيها ملكياً دستورياً . ويكون لكل من فلسطين في بعض مناطقها ولبنـان القديم إدارة خاصة . وحال اعلان تأسيس الدولة السورية المتحـدة يصار الى تأسيس اتحاد عربي تعاقدي مؤلف من الدولتين السورية والعراقية (الهلال الخصيب) ، ينتظم التنسيق السياسي والدفـاع والثقافة العامة والاقتصاد الوطني . ويفسح المشروع المجال لانضمام الدول العربية الاخرى الى الاتحاد . واما المشروع الثاني فيهدف الى تأسيس دولة سورية اتحادية وقيام اتحاد عربي تعاهدي وتكون رئاسة الدولة السورية،سواء في حالة كونها دولة متحدة ام اتحادية، الى سمو الامير عبد الله . ويدعى سمو الامير عبد الله بن الحسين لرئاسة الدولة السورية بالاستناد الى الاعتبارات المشروعة التالية :

أ ـ حقوقه الشرعية الثابتة في الامارة الاردنية وهي جزء مهم من اجزاء سورية الكبرى .

ب ـ مساهمته سابقاً ولاحقاً بمعونة الحلفاء معونة فعلية ، وقد اشتملت هذه المعونة على الساحة السورية في الحرب الحاضرة .

ج ـ كونه الوريث الاول لحقوق والده المغفور له جـلالة الملك حسين في رعاية الحقوق السورية بوجه خاص والحقوق العربية بوجه عام .

د ـ وعد الحكومة البريطانية له برئاسة الدولة السورية بلسان رئيس وزرائها المستر تشرشل منذ عام ١٩٢١ وزوال موانع تنفيذ

ذلك الوعد بانهيار الدولة الفرنسية وسقوط وكالاتها القانونيـــة عن جمعية الامم وبعد ان اصبحت بريطانيا العظمى تملك حرية العمل في الاراضي السورية على اختلاف اقاليمها .

هـ - رغبة السوريين بالحكم الملكي الدستوري في حالة تحقيق وحدة البلاد العامة او اتحادها المركزي[٧] .

اخذ الامير عبد الله يدعو الى مشروعه ، ويدفع انصاره الى الدعوة له . ولكن ظروف الحرب ، وعـدم استقرار الوضع في سورية ولبنان ، لم يتركا له مجالاً فسيحاً للعمل . فلما انتهت الحرب برزت الدعوة الى سورية الكبرى واسعة نشيطة . وخاصة منذ ان اعلن استقلال شرق الاردن ، والغي الانتداب عنه بمعاهدة تحالف مع بريطانيا ، هذا الانتداب الذي كان يتخـذه خصوم المشروع حجـة لرفضه . وكان الملك عبدالله يقيم دعواه في مشروع سورية الكبرى على الاسس القديمة التي اقام عليهـا المؤتمر السوري فكرة الدولة السورية الموحدة دون ان يقيم وزناً لتغير الظروف خـلال العشرين السنة المنصرمة . لقد سرت الصهيونية في فلسطين ، بهدوء وثبات ، سريان السم في الجسم السليم .واستحكم الانتداب البريطاني في الاردن وتغلغل في كل حنية من حناياه . وتطورت الاحوال في سورية ولبنان . وتقدم الشعب مادياً وثقافياً . وخطت الحركة

---

(٧) راجع نص المذكرة السياسية التي قدمها الامير عبدالله الى مستر كيسي وزير الدولة البريطاني في القاهرة عام ١٩٤٣ ، التي تحوي نص مشروعي الوحدة والاتحـــاد ، المنشورة في كتاب « سوريا الكبرى » الكتاب الابيض الاردني ص ٦٤ — ٧٠ .

الوطنية خطوات عما كانت عليه ايام الثورة العربية . وتغير موقف الناس من الاسرة الهاشمية تغيراً تاماً ، كما تغير موقفهم من الحكم الملكي . ونمت في البلدين طبقة حاكمة يهمها التفرد بالحكم مثلما يهم الشعبين السوري واللبناني الاحتفاظ بالاستقلال والحكم الجمهوري الديموقراطي .

وقد أثار المشروع جدلاً عنيفاً في البلاد العربية شغل الشعوب والحكومات زمناً طويلاً. وهاجمته الحكومات العربيةوالاحزاب السياسية من كل جانب . وكان حديث الصحافة سنوات طوالاً . قال عنه فريق انه مشروع بريطاني الحقيقة، هاشمي الظاهر، أوحت به بريطانيا الى صديقها ومنفذ مشاريعها وحامي مصالحها الملك عبدالله، لتطرد بقايا النفوذ الفرنسي من القطرين، وتحل محله نفوذها الراسخ ، واحتلالها الماكر ، ولتشغل به الشعوب العربية عن نضالها في سبيل التحرر من سلطان بريطانيا ، ولتصرفها عن القضية الفلسطينية التي كانت تعد العدة لتسليمها للصهيونية نهائياً . وقال فريق ثان انه مشروع صهيوني يمهد لانتشار الصهيونية خارج فلسطين . وذهب اكثر من هاجمه من السياسيين الى ان مطامع عبدالله الشخصية سولت له ان يستولي على سورية ولبنان ليتربع على عرشها الذي حلم به اعواماً ، على حساب وحدة العرب وتمزيق كلمتهم وتضييع استقلالهم . اما موقف الحكومات العربية من المشروع فمختلف . أيدته الحكومة العراقية لأنه يوسع ملك الهاشميين . ورفضته سورية ولبنان رفضاً قاطعاً . واستنكرته مصر . وهاجمته الحكومة السعودية اعنف هجوم . فقد أذاعت

الحكومة السعودية في الواحد والثلاثين من شهر آب ١٩٤٧ هـذا البيان الآتي نصه الكامل :

« وصل لعلم الحكومة العربية السعودية بيان نسب الى جلالة الملك عبدالله بن الحسين صدر في عمـان بتاريخ ١٧ رمضان سنة ١٣٦٦ دعا فيه اهل سورية دعوة صريحة الى عقد اجتماع لتغيير دستور سورية وأكد بان هذا العمل سينفذه بالفعل واعقب ذلك بكتاب وجهه لرئيس الجمهورية السورية بتاريخ ٢٨ رمضان سنة ١٣٦٦ وان الحكومة العربية السعودية مع اسفها لظهور هذا الفتق في صفوف الدول العربية تعتبر دعوة جلالة الملك عبدالله منافية للقوانين الدولية كما انها منافية لميثاق هيئة الامم المتحدة كما تعتبرها مناقضة لميثاق جامعة الدول العربية مناقضة صريحة بنصه وروحه واغراضه واهدافه ، كما انها مناقضة للمادة الثامنة من ميثاق الجامعة مناقضة لا تقبل التأويل . والحكومة العربية السعودية التي يؤسفها وجود اي خلاف في صفوف الدول العربية في هذا الظرف الدقيق الذي تجتازه كثير من البلدان العربية التي كانت تأمل ان تنصرف قوى الدول العربية كلها لانقاذ الوطن العربي لا لتمزيق وحدته وكلمته فانها في الوقت الذي تعلن فيه اسفها لهذا الفتق الجديد تعلن بصراحة انها تعتبر هذا العمل افتئاتاً على سورية ودستورها الجمهوري الذي اقرته الامة واعترفت به سائر حكومات العـالم واخذت سورية مكانها الدولي اللائق بها في الوقت الذي ينادي جلالة الملك عبدالله بهدم كيان تلك الدولة العربية الفتية . ان الحكومة العربية السعودية مع استنكارها لهذه الافتئات تعلن تأييدها لاستقـلال

سورية وترجو ان يلتزم سائر اعضاء جامعة الدول العربية ما تعاهدوا وتعاقدوا عليه[8] » .

اما جامعة الدول العربية فقد تخلصت من المشروع تخلصاً لبقاً يرضي السوريين واللبنانيين ويريح الدول العربية المعارضة له ، ولا يسيء الى شعور الملك عبد الله ، ببيانها الذي اصدرته في اواخر تشرين الثاني ١٩٤٦ .[8]

الحق ان هذا المشروع الذي ظل الملك عبد الله يلح في الدعوة له حتى يوم اغتياله قد أضر بالقضية العربية ضرراً بليغاً ، وباعد بين العرب من حيث كان يريد لمّ شعثهم . فقد شغل الحكومات والشعوب العربية عن قضاياها الاساسية . واثار بينها حزازات كان اولى بها ان تدفن الى الابد . وقوّى روح الاقليمية في البلاد التي تناولها ، وخوّف سورية فترامت في احضان ابن سعود ، وروّع دعاة العزلة من اللبنانيين فازدادوا شكاً بكل دعوة الى التقارب العربي . وقوّى انقسام الدول العربية الى كتلتين متنافستين : محور عمان ـ بغداد ، ومحور الرياض ـ دمشق ـ القاهرة .

ولم تنته قضية الاتحادات الملكية بوفاة الملك عبد الله . فما ان خلا عرش الاردن من ملك قوي الشخصية ، بعيد الشهرة ، مرموق الجانب حتى ظهر الى الوجود مشروع اتحاد الاردن

---

(٨) « كلمة السوريين والعرب في مشروع سورية الكبرى » الطبعة الاولى ايلول ١٩٤٧ ، ص ٦٠ – ٦١ .

(٩) انظر نص بيان الجامعة في المصدر السابق ص ٢٤ – ٢٥ .

والعراق تحت تاج الملك فيصل الثاني ، او اتحاد سورية والاردن . ورحب هاشميو العراق بالمشروع ، ان لم نقل انهم هم الذين اوحوا بالدعوة له وهيأوا اسبابها ، وعارضته الطبقة الحاكمة في الاردن، التي خلقها الملك عبد الله والانتداب البريطاني ، وعملت على احباطه . ورأت فيه دولتا سورية ولبنان حركة هاشمية جديدة لتطويقهما وفرض مشروع سورية الكبرى عليهما فرضاً . فهاجمته الصحافة ، واعلن الشيشكلي رفضه قائلاً : إذا كان لا بد للاردن من ان تتحد مع قطر عربي فالأجدر بها ان تتحد مع سورية. لقد كانت الاردن جزءاً اقتطع من سورية وما على هذا الجزء الا ان يعود الى الأم. وعارضته الحكومتان المصرية والسعودية . ورأت فيه الصحافة العراقية المعارضة للمشاريع البريطانية خطة بريطانية مدبرة لالقاء اعباء الانتداب البريطاني المستور في الاردن على عاتق العراقيين وإحكام قبضة بريطانيا على العراق.

هذه العداوة المتحكمة بين الاسر العربية الحاكمة وبين رؤساء دولها والساسة الذين يصرفون الامور فيها على الرغم من هذه التحيات والتهنئات التي يتبادلونها كل عيد ، وهذه الابتسامات العريضة التي يواجه بها بعضهم بعضاً لدى كل اجتماع، وهذه الدعوات المنمقة التي يتغنون بها بوحدة العرب ووجوب اتحاد كلمتهم وقلوبهم – من اهم العوامل التي تباعد بين الاقطار العربية،وتصرف شعوبها عن قضاياها الاساسية ، وتضعفها امام هذه القوى التي تحدق بها من الداخل والخارج تريد بها شراً . لقد اصبحت الجامعة العربية مهزلة في نظر المستنيرين من العرب – منذ ان فشلت في تنسيق جهود

الدول العربية، وتوحيد كلمتها لمواجهة القضايا العربية الكبرى واهمها قضية فلسطين – وكان قيامها حلماً رائعاً من احلامهم القومية، واملاً حبيباً يسعون الى تحقيقه بشوق وايمان وتصميم. ما فشلت الجامعة العربية نفسها، وما كانت الفكرة التي قامت عليها فكرة مخطئة، ضالة، من نسيج الخيال. وانما فشل الذين نفذوا هذه الفكرة حين اقاموها على احقاد متآكلة، وعداوات متأصلة، وتنافس محتدم بغيض. اسس لا يقوم عليها بنيان مكين. قال الدكتور محمد فاضل الجمالي وزير خارجية العراق ورئيس وفده في مجلس الجامعة العربية في مؤتمر صحفي ببغداد: ان أهم مواطن الضعف في الجامعة العربية كانت في بطء سيرها الذي ترتب على وجود التكتلات المضادة والعوامل الشخصية المتنافرة التي لم تكن خافية على احد من رجال الحكم في البلاد العربية منذ تشكيل الجامعة... واكد ان زوال بعض الحكام العرب المتنافرين سيساعد على ايجاد تعاون اوسع وان ازمة الجامعة العربية كان اساسها الاختلاف بين رؤساء الحكومات، فاستشهاد الملك عبدالله واختفاء فاروق وعزام كل اولئك خلق جواً جديداً ... [١٠] وما كانت فلسطين لتضيع ويشرد سكانها الآمنون، لو لم تحل احقاد الاسر العربية الحاكمة دون ان يتعاونوا باخلاص، ويعملوا باتفاق ويوحدوا قلوبهم وكلمتهم وسلاحهم ومواردهم توحيداً صادقاً في حربهم تلك التي اعلنوها على العصابات والجمعيات الارهابية الصهيونية الضعيفة عدة، القليلة عدداً. بل لو انهم وحدوا قلوبهم وكلمتهم وسياستهم منذ ان ظهر شر

(١٠) انظر جريدة الاهرام ٢٧ ايلول ١٩٥٢ .

الصهيونية، في العقد الثالث من القرن العشرين ، حلوا قضية فلسطين قبل ان يكون لتلك العصابات الصهيونية وجود، وقبل ان يحتاجوا الى اعلان تلـــك الحرب المسرحية التي ادمت قلوب الفلسطينيين والعرب ، دون ان تخدش جلود الصهاينة وحلفائهم .

ولا نستطيع ان نختم هذا الفصل دون ان نشير اشارة مقتضبة – لعدم ظهور الوثائق والمستندات الرسمية – الى هـذه الخلافات التي ظهرت بين الجيوش العربية المحاربة في فلسطين ، والتي ادت الى عدم تعاونها ، والى ما اصاب الجيش المصري من بأس الصهاينة في الفالوجة وغيرها . والى تسليم اللد والرملة للصهاينة دون مشاورة الفلسطينيين والحكومات العربية الاخرى . والى تأسيس حكومة عموم فلسطين تحت سيطرة مصر ، واستيلاء الملك عبد الله على ما تبقى من اشلاء فلسطين . في غمرة الحرب ضد الصهيونية كانت الاسر العربية الحاكمة تختلف على الاسلاب : اسلاب فلسطين .

٨. الدول الاجنبية

•

لا حاجة بنا الى ان نقص بالتفصيل قصة الاستعمار الغربي في العالم العربي . فهي قصة طويلة ، معروفة التفاصيل . فقد كان العالم العربي مطمح انظار الدول الغربية منذ اخذت في طريق التوسع ، وتأسيس الامبراطوريات ، في مطلع القرن السابع عشر ، وخاصة منذ قيام الثورة الصناعية في اواخر القرن الثامن عشر . استولت بريطانيا ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، على الاقطار العربية ، الممتدة على سواحل البحر العربي وخليج فارس، قطراً فقطراً حتى ادخلتها جميعاً تحت حمايتها في مطلع القرن العشرين . واحتلت مصر عام ١٨٨٢ . ثم احتلت السودان ، بجيوش مصر ، عام ١٨٩٨ . واحتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠، وتونس عام ١٨٨١. ثم احتلت مراكش عام ١٩١٢ ، واشتركت اسبانيا في احتلال القسم الشمالي منها. واحتلت ايطاليا المناطق الساحلية من طرابلس الغرب عام ١٩١٢ ثم أكملت احتلال البلاد جميعاً في العقد الثالث من القرن العشرين. واشتركت بريطانيا وفرنسا في احتلال العراق والبلاد الشامية خلال الحرب العالمية الاولى .

ولا حاجة بنا كذلك الى ان نبين الاسباب الحقيقية التي دفعت

هذه الدول الى احتلال البـــلاد العربية . فهي الاسباب الدافعة الى كل استعمار اطلاقاً . وجوهرها الاستفادة من موقع البـــلاد الستراتيجي ، واستغلال مواردهـا الطبيعية والبشرية ، واتخاذها مزرعة تمدها بالخامات ، واسواقاً لتصريف سلعها ومنتوجات صناعتها ، وتشغيل رؤوس اموالها الفائضة عن حاجة اقتصادها . ولم يعـدم المستعمرون حججاً يبررون بها استعمارهم هـذا . فمن شيخ عاص يروّع قرصانه السفن المواخر في البحار ، او يهدد اشقياء قبيلتـــه القوافل التجارية الضاربة في القفـــار ، يريدون تأديبه . الى جالية اجنبية يرغبون في حمايتها . الى اقلية دينية يبغون انصافها ورعاية حقوقها . الى التخوف من دولة اجنبية طامعة تنوي احتلال البلاد وتهديد مصالح الدولة المستعمرة ونفوذها وحقوقها المكتسبة في الاقطار المجاورة . الى تحرير السكان الاصليين من السلطان التركي العادي ، وتحسين احوالهم المعاشية ، واشراكهم بنعمة المدنيـــة الغربية شفقة بهم وعطفاً عليهم ، وتحقيقاً للمثل المسيحية العليـــا في التعاون البشري والمساواة بين الشعوب . فالقضية التي نحـــاول دراستها في هذا الفصل هي اثر الاستعمار الغربي في تفكيك وحدة العالم العربي ، وعزل بعض الاقطار العربية عن بعض ، واضعـاف مقومات التحرر والوحدة فيها ، وتأخير نموها الاقتصادي والثقافي والحضاري ، وتوضيح الاساليب التي استخدمتها الدول الغربيـة لتدعيم نفوذها في البلاد العربية . ونحب ان نبين ، قبل ان نمضي في بحثنا هذا ، اننا اغفلنا ما عسى ان يكون للدول الغربيـــة من خدمات نافعة في العالم العربي . فنحن لا نؤرخ هنا لجميع اعمال الدول

الغربية في العالم العربي ، وانما نتناول طرفاً منهـــا هو هذا الذي يتعلق باثر الدول الغربية في التفريق بين اقطار العالم العربي، وتأخير نموها ، ليس غير .

اتبعت الدول الغربية سياسة تجزئة الاقطار العربية التي احتلتها ومنع اتحادها بالاقطار العربية الاخرى ، وعرقلة كل تقارب بينها. وهذا امر طبيعي ينبع من صميم السياسة الاستعمارية ذاتها . فالبلاد المتحدة ، المتضامنة ، يصعب قهرها ، والتغلب عليهــــا . فاذا ما تغلبت عليها دولة اجنبية بتفوقهـا العسكري او الاقتصادي او الحضاري ، صعب عليها ان تبقيها خاضعـــة لسلطانها الى الابد . ولذلك كان اول اعمال الدول الفاتحة ، التي لا يهمها غير تأمـــين مصلحتها وإدامة حكمها مهما كانت عاقبة ذلك على البلاد المحكومة، ان تجزيء البلاد اقليمياً ، وتفرق سكانها شيعاً واحزاباً متباغضة ، متحاسدة ، متعادية . وهذه سياسة قديمة رافقت القضية العربية منذ نشأتها في هذا العصر الحديث .

كان محمد علي باشا يهدف الى اقامة امبراطورية عربية موحدة . ولكن بريطانيا ما زالت تعارض هذه الفكرة حتى وأدتها طفلة . كانت بريطانيا تعارض في ان تحل دولة عربية موحـدة الاجزاء ، قوية الجانب ، تهدد مصالحها التجارية ، محل السلطنة العثمانية الضعيفة التي يسهل فرض إرادتها عليها . يقول بالمرستون في كتاب وجهه الى الوزير البريطـــاني في نابولي بتاريخ ٢١ آذار ١٨٣٣ : « إن هدف محمد علي الحقيقي هو إقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي تتكلم اللغة العربية . وقد لا يحوي هذا المشروع ضرراً في حد

ذاته ولكنه سيؤدي الى تقطيع اوصال تركية، وهذا ما لا نرضى عنه . وفضلاً عن ذلك فلا نرى سبباً يبرر احلال ملك عربي محل تركية في السيطرة على طريق الهند[1] » .

كانت هذه سياسة بريطانيا تجاه وحدة العرب وتكتل قواهم قبل ان تستولي على ما استولت عليه من البلاد العربية . فلما تم لها إخضاع اقطار من العالم العربي عملت على تجزئة هذه الأقطار ، وإحلال الشقاق بين أمرائها ، وشعارها الدائم : فرق تسد . فكيف استطاعت بريطانيا ان تديم حكمها في السواحل العربية الممتدة من عدن الى الكويت ؟ كانت هذه السواحل المترامية مواطن قبائل عربية متعددة . وكانت هذه القبائل ، وما زالت في الغالب ، في حالة بدوية . واستطاعت بريطانيا ان تمد عليها سلطانها باتباعها سياسة التفريق بين أمرائها وشيوخها ، والتحزب لبيت طامع بالملك على بيت مالك ، والتدخل في السياسة المحلية عند انتخاب او تعيين احد الحكام . كانت تقسو على بعض الشيوخ وتستعمل معهم وسائل الارهاب والتهديد والتنكيل . وتستميل بعضهم باللين ، وتغريهم بالهدايا والرواتب والألقاب . وكانت تعد كل شيخ او امير بالمحافظة على « استقلاله » ، وصد اي عدوان يتعرض له من قبل اعدائه من امراء العرب في الداخل او من قبل الدول الأجنبية الطامعة في الخارج . ثم تربط كل واحد منهم بمعاهدة حماية ، هي الاحتلال بعينه ، من شروطها ان لا يتحالف الأمير او الشيخ مع احد من جيرانه ، او مع الحكومات الأجنبية ، ولا يبيع ، او

(١) انظر انطونيوس ، اليقظة العربية ص ٢١ — ٢٢ .

يتنازل او يؤجر ، جزءاً من ارضه لأي كان دون استشارة الحاكم البريطاني . والى جانب هذا كله اتبع الانكليز سياسة التفريق اللاإنساني بين القبائل . فكانوا يحرضون قبيلة على اخرى ليأمنوا اتحاد القبائل ضدهم ، ويثيرون القبيلة الموالية على القبيلة المتمردة اقتصاداً بالجنود [2] . وهكذا استطاعت بريطانيا ان تخلق في محمية عدن (حضرموت) اكثر من ثلاثين سلطنة وإمارة ومشيخة مستقلة عن بعضها ، مع ان عدد سكانها ما يكاد يزيد على نصف مليون نسمة إلا قليلاً . وان تقيم على الساحل الضيق الممتد من عمان الى قطر ، الذي لا تزيد مساحته على ٦٠٠٠٠ ميل مربع ولا يجاوز عدد سكانه ٨٠٠٠٠ نسمة ، ست مشيخات مستقلة عن بعضها ، يحرص كل شيخ من مشايخها على استقلاله ونفوذه وتفرده بالحكم حرصه على حياته .

وفي الحرب العالمية الأولى دخل الانكليز والفرنسيون العراق وبلاد الشام « محررين لا فاتحين » كما اذاع الجنرال مود في منشوره المشهور على اهالي بغداد . وحارب معهم العرب ، وأيدوهم ، وأملوا منهم تحقيق ما وعدوا الشريف حسيناً والشعوب العربية ، من وعود بالاستقلال والمساعدة في إقامة الدولة العربية المستقلة

---

(٢) امين الريحاني ، ملوك العرب ١ : ٣٧٤ « كتبت ادارة شركة الهند الى حاكم عدن الاول هينس Capt. Haines : « حرض القبيلة الموالية على القبيلة المعادية فلا تضطر الى جنود بريطانيا ... وانه وان كان هدر الدماء مما يؤسف له فمثل هذه السياسة تفيد الانكليز في عدن لانها توسع الثلمة بين القبائل » ... نقله الكولونيل جاكوب في كتابه (ملوك العرب) ص ٤٥ »

المتحدة الكبرى . ولكن هم الانكليز والفرنسيين كان منصرفاً الى تنفيذ اتفاقية سايكس - بيكو، وتحقيق وعد بلفور للصهيونية. ولم تكن اتفاقية سايكس - بيكو سهلة التنفيذ بصيغتها الأصلية. فقد كانت بريطانيا تطمع بنفط الموصل ، والتفرد بالانتداب على فلسطين ، كما كانت فرنسا تطمع باحتلال سورية الداخلية احتلالاً لا ينازعها فيه منازع . وعلى هذا فقد انتهت سياسة فرنسا وبريطانيا ، بعد مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠ ، الى ان تحتل بريطانيا العراق بما فيه الموصل ، على ان يكون لفرنسا حصة في نفطها . وان تحتل فرنسا لبنان وسورية . وان تمتنع بريطانيا عن مطالبة فرنسا بمراعاة استقلال سورية الداخلية . وان تحتل بريطانيا فلسطين وما تبقى من سورية بحيث يكون الحد الفاصل بين منطقتي احتلال الدولتين خطاً يمر من جنوب درعا . ماذا فعلت بريطانيا بفلسطين وبهذا الجزء من سورية الواقع جنوب خط درعا ؟

كان ذلك الجزء الجنوبي من سورية يكوّن « متصرفية » الكرك في عهد الدولة العثمانية . ثم صار « متصرفية السلط » في عهد الدولة العربية الأولى في سورية . ولكن بريطانيا أرادت ان تقيم في هذه البقعة الصغيرة من الأراضي الصحراوية ، التي يعوزها كل مقومات الدولة وعناصر وجودها ، إمارة شرق الأردن ، فوضعتها تحت انتدابها ، وجعلتها تابعة للمندوب السامي البريطاني المقيم في فلسطين ، ونصبت على رأس حكومتها عبدالله بن الحسين. اقامت بريطانيا في هذه البقعة من الوطن السوري إمارة ، تتحمل هي القسط الأكبر من ميزانيتها ، لتستفيد من موقعها الستراتيجي

المهم الذي يسيطر على ما يجاوره من الأقطار العربية [٣] .

واستغلت بريطانيا انتدابها على فلسطين فمكنت الصهاينة من الهجرة اليها بالآلاف . فامتلكوا الاراضي الزراعية الخصبة فيها ، وأقاموا المزارع والمصانع على ارضها . وقضت على جميع الثورات والانتفاضات التي قام بها الشعب العربي في فلسطين، ضد الصهيونية والدولة المنتدبة ، دفاعاً عن وجوده وحريته واستقلاله ، بأقسى العنف . ثم اسلمت فلسطين للصهاينة ، بعد انتهاء انتدابها في ١٥ ايار ١٩٤٨ ، ليقيموا عليها دولتهم اسرائيل ، تعاونهم الولايات المتحدة الاميركية وتمدهم بالمال والسلاح والنفوذ الادبي ، وليشردوا مليون انسان فلسطيني آلم تشريد . ان العالم العربي لم يجابه ، بعد خطر الاستعمار ، خطراً اعظم شراً ، واشد تهديداً لوجوده من اسرائيل . فلأول مرة في التاريخ العربي ، بعد قيام الدويلات الصليبية في فلسطين وسورية الساحلية، تنتصب في قلب العالم العربي دولة اجنبية معادية للعرب ، تمزق وحدته الجغرافية والجنسية ، وتباعد بين اقطاره ، وتهددها بالاكتساح السياسي والاقتصادي الماحق ، وتؤلف حليفاً طبيعياً للدول الغربية ذات المصلحة في العالم العربي، يهددون به كل حركة تحررية تنطلق في اي قطر عربي مجاور .

وهذا ما فعلته فرنسا في بلاد الشام . كان لبنان معقل نفوذ

---

(٣) انظر ساطع الحصري ، العروبة بين دعاتها ومعارضيها (بيروت ، ١٩٥٢) ص ١٢ — ١٥ . وفيه يناقش اسباب انشاء امارة شرق الاردن وعدم ضمها الى العراق او فلسطين .

فرنسا في الشرق العربي. وكانت تسكنه اكثرية مسيحية من الموارنة اصدقاء فرنسا القدماء، وبعض الطوائف الاخرى المتصلة بروما والتي تعد فرنسا حاميتها التقليدية. اما سورية فقد كانت مركز الحركة العربية وكان معظم سكانها من المسلمين. وعلى هذا اتبعت فرنسا سياسة خاصة تجاه كل من البلدين. فوسعت لبنان على حساب سورية. ففي ٣١ آب ١٩٢١ اصدر الجنرال غورو قراراً نص على ايجاد دولة لبنان الكبير، وقد ادخل في حدودها بالاضافة الى سنجق لبنان القديم المقاطعات الواقعة مباشرة في شماله وشرقه وجنوبه، بحيث الحقت به المدن الساحلية مثل طرابلس وبيروت وصيدا وصور ومدينة بعلبك الداخلية ومعها سهل البقاع الخصيب. وقام الفرنسيون بتمزيق وحدة سورية فقسموها الى اربع دول مستقل بعضها عن بعض هي: ١ – حكومة اللاذقية وعاصمتها اللاذقية، وتضم المنطقة الساحلية الواقعة بين لبنان الكبير وسنجق الاسكندرون. ٢ – دولة جبل الدروز وعاصمتها السويداء، وتضم المنطقة الجبلية الواقعة بين دمشق وشرق الاردن. ٣ – دولة سورية وعاصمتها دمشق، وتضم ما تبقى من البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسي. ٤ – سنجق الاسكندرون الذي يتمتع بادارة خاصة بالرغم من ارتباطه الرسمي بسورية.

وكان غرض فرنسا من تقسيم سورية المتحدة الى هذه الدول المنفصل بعضها عن بعض تشجيع الاتجاهات الانفصالية، وتقوية الخلافات الطائفية، والقضاء على الاتجاه القومي بين السكان، وإحلال الاتجاه الاقليمي المحلي محله. وكان من اغراض السياسة

الفرنسية إضعاف اللغة العربية ، وتشويه التاريخ العربي . فقد فرضت تعليم اللغة الفرنسية في جميع المدارس الرسمية ، وفرضت استعمالها في المحاكم ودوائر الحكومة ، على قدم المساواة مع العربية. وبهذا كانت فرنسا تأمل عرقلة سير الحركة العربية نحو الوحدة والاستقلال[4] .

ولم يكتف الفرنسيون بتجزئة سورية ، وتفريق سكانها شيعاً وطوائف متعادية ، وانما اقتطعوا قسما منها ، واسلموه الى تركيا دون مشاورة السوريين ، ودون رضاهم . لقد سلمت فرنسا الاسكندرون الى تركيا كما سلمت انكلترا فلسطين الى الصهاينة . وتبلغ مساحة سنجق الاسكندرون، وتدخل ضمنه مدينة انطاكية ، ١٩٣٠ ميلاً مربعاً . وعدد سكانه ٢٢٨،٠٠٠ نسمة . منهم ٨٥،٠٠٠ تركي ، والباقون عرب ، منهم ٢٣،٠٠٠ من المسلمين السنيين ، و ٦٢،٠٠٠ من العلويين ، و ٤٩،٠٠٠ من المسيحيين على اختلاف مذاهبهم . وقد اوجدت فرنسا هذا السنجق المفصول اداريا عن سورية اتباعاً لسياستها في تمزيق الوحدة السورية وتشجيع النعرات الطائفية والعنصرية كما تقدم معنا . وقد اعترفت تركيا ، في لوزان سنة ١٩٢٣ ، بزوال سيادتها عن الاقاليم العربية التي كانت تحت حكمها ومنها سنجق الاسكندرون . وعلى اثر انتعاش الحركة الوطنية في سورية سنة ١٩٣٦ ، ومفاوضات الاستقلال مع فرنسا ، خشيت تركيا ان يؤدي زوال الانتداب الفرنسي الى عودة الاسكندرون الى سورية . فقامت الاضطرابات في انطاكية

(٤) انظر انطونيوس ، يقظة العرب ، الترجمة العربية ص ٤٠٦ – ٤١٢ .

وعزمت فرنسا على تحقيق رغبات تركيا ، اتباعاً لسياستها في التقرب من تركيا وكسب ودها في الاحوال الدولية المضطربة التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، فعرضت الموضوع على مجلس عصبة الامم . وقد قررت العصبة ، بعد ان ارسلت لجنة لبحث الحالة في الاسكندرون ، ان توافق الحكومتان على استقلال الاسكندرونة الذاتي تحت اشراف العصبة . واصدر مجلس العصبة قانوناً ينظم حكومة السنجق فتتولى السلطة التشريعية جمعية منتخبة بواسطة التصويت العام على درجتين ، ويمثل القوة التنفيذية مندوب فرنسي له حق النقض (الفيتو) تعاونه قوة بوليسية مؤلفة من ١٥٠٠ فرنسي . وقد تقرر حياد الاسكندرونة واصبحت اللغتان العربية والتركية فيها رسميتين . على ان هذا النظام لم يرض العرب ولا الاتراك . ولكن فرنسا لم تكن لتهتم لرغبات العرب فاتصلت بتركيا رأساً ، دون وساطة العصبة ، فاتفقتا في آب ١٩٣٨ على ان يكون لتركيا في الاسكندرونة قوة مساوية للقوة الفرنسية . وعلى هذا عقدت بين الحكومتين معاهدة صداقة وتعاون . وعلى اثر ذلك اجريت الانتخابات للجمعية التشريعية ، بعد ان مهدت لها تركيا تمهيداً يضمن لها النتيجة التي تؤملها . فنال الاتراك ٣٢ مقعداً من ٤٠ . واجتمعت الجمعية الوطنية في انطاكية في ٢ ايلول ١٩٣٨ وقررت اطلاق اسم هاتاي على السنجق ، وانتخبت رئيساً تركياً للدولة الجديدة ، كما اختارت الجمعية رئيسها ورئيس الوزراء من الاتراك ، واتخذت الجمعية علماً للسنجق لا يختلف عن العلم التركي الا في النجمة التي تتوسط الهلال . واخذ الاتراك

منذ ذلك الحين ، يترّكون المنطقة . فجعلوا اللغة التركية وحدها اللغة الرسمية ولغة التعليم . وابعدوا الموظفين العرب ، سواء منهم المسلمون والمسيحيون ، عن الدوائر . وفي حزيران ۱۹۳۹ ، وقد ظهرت بوادر الحرب ، تخلت فرنسا لتركيا عن الاسكندرونة من تلقاء نفسها ، ومن غـير ان تستشير سورية . وهكذا اصبحت الاسكندرونة العربية جزءاً من تركيا بفضل فرنسا[٥] .

وقد عملت الدول المستعمرة ، بالاضافة الى تفكيك وحدة الاقطار العربية جغرافياً ، على تمزيقها اجتماعياً واقتصادياً وروحياً ، واعاقة تقدمها وتحضرها . فقد شجع البريطانيون الخلافات الطائفية والعنصرية في العراق . وساروا بالتعليم سيراً بطيئاً ، اذ كان غرضهم من نشر التعليم سد حاجاتهم من المفوضين المدنيين فحسب . واستولوا عـلى اهم مرافق البلاد الاقتصادية : النفط ، والسكك الحديدية ، وميناء البصرة . وسيطرت شركاتهم الاحتكارية ، واشهرها اندرو وير ، عـلى اهم صادرات العراق : التمور والحبوب . وقاوموا تصنيع البـلاد ، وما زالوا يعيقونه . « اننا نجد في الحقيقة انه في البلاد المشمولة بالانتـداب وقف المراقبون الاجانب والدوائر الحكومية موقفاً سلبياً واضحاً ازاء اية اتجاهات ترمي الى اقامة الصناعة .. ان الدول الغربية لم تستطع ان تقبل فكرة قيام صناعة قومية ، اي مستقلة ، تقصر السوق على منتجاتها المعدة للاصدار[٦] .

---

(٥) انظر محمـد رفعت ، التيارات السياسية في حـوض البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ١٧٢ – ٨٠

(٦) بونيه ، الدولة والتنظيم الاقتصادي في الشرق الاوسط ، الترجمة العربية ص ٣٠٦ وص ٢٨٤ – ٥ من الاصل .

وكانت مقاومـــة الانجليز للصناعة تتخـذ اشكالاً مختلفة . فتارة باغراق السوق المحلية بالمنتوجات الاجنبية التي تزاحم المنتوجات الوطنية الناشئة وتقضي عليهـــا . وتارة بعرقلة استيراد معـدات المعامل، وتارة اخرى بعرقلة توسع هذه الصناعات وانتظام سيرها ، على يـد الخبراء والفنيين المشرفين على المعامل ، المنبثين في دوائر الحكومة المختلفة ذات الصلة بالصناعة .

وقد قوت الحكومة البريطانية الاقطاعية في العراق ، وثبتت اسسها ، واباحت للاقطاعيين ان يستملكـوا المقاطعات الواسعة ، ويستغلوا جهـود الآلاف من الفلاحين ، وان يسيطروا على اداة الحكم في البلاد ، لتضمن بقاء نفوذها وتحقيق اغراضها . وقد كانت الاقطاعية ، وما زالت ، حليف المحتلين في البلاد العربية . ان معظم الاراضي في العراق امـيرية ، اي ملك الدولة . وبامكان القابضين على زمام الحكم ان يساعدوا من يشاءون على حيازة ما يشاءون من الاراضي .

وفي سنوات الحرب العالمية الاولى وجدت القوات البريطانية نفسها بحاجة ماسة الى مساعدة شيوخ القبائل ليعينوها على الاتراك ، ويساعدوها في مجهودها الحربي ، او يقفوا على الحياد ويمتنعوا عن تقديم المساعدة للاتراك وتعكير الامن والنظام في البلادعلى الاقل . واتخذت السلطات البريطانية ، في عهدي الاحتـلال والانتداب ، الاراضي الزراعية وسيلة لاكرام المؤيدين والموالين ، واجتذاب الانصار ، واداة لمعاقبة الخصوم والمناوئين للحكم البريطاني . فكانت ملكية الموالين للحكم البريطاني تتسع على حساب الاراضي الاميرية ،

بينما كانت اراضي الذين اشتركوا في الثورة العراقية عام ١٩٢٠ تنكمش وتتقلص.

وقد ثبتت السلطات البريطانية امتيازات الشيوخ الاقطاعيين، وزادت في نفوذهم، بما شرعت من قوانين اعظمها خطراً «قانون دعاوى العشائر المدنية والجزائية لسنة ١٩٢٢[٧]». ومما يزيد في خطر هذا القانون ان القسم الغالب من السكان هم من ابناء العشائر. وهو يكوّن خطراً على وحدة الشعب العراقي لانه يقسم الشعب الى قسمين يخضع كل منهما لاحكام قانون خاص يختلف عن الاخر في اسسه واحكامه اختلافاً كبيراً. وهو يعيق تحضر الشعب لانه يمنح ابناء العشائر امتيازات خاصة لا يتمتع بها ابناء المدن، ولانه يحافظ على العادات والعرف القبلي التي لا تلائم المجتمعات المتحضرة؛ والتي يسعى المصلحون لازالتها وغرس روح المواطنة الصحيحة، والعادات الاجتماعية المهذبة، مكانها. وهو يحول دون استتباب الامن في البلاد ودون تطبيق العدالة على المواطنين جميعاً لأنه يقوي نفوذ رؤساء القبائل ومشايخها الذين تتكون منهم مجالس التحكيم في الغالب، وهؤلاء يراعون مصالحهم الشخصية ومصالح اصدقائهم من

---

(٧) وضع هذا القانون لحسم المنازعات المدنية او الجزائية التي تقع بين افراد العشائر حسما سريعاً وفقاً للعادات الراجحة بينهم. عندما احتل الانكليز البصرة اصدروا عام ١٩١٦ بيان العشائر. وقد وسعوا هذا النظام بعد استيلائهم على بغداد، وعمموا مفعوله على المناطق المحتلة من العراق جميعاً. فقد صدر نظام دعاوى العشائر بتاريخ ١٩١٨/٧/٢٧. ثم عدل هذا النظام بقانون صدر في ١٩٢٤/٨/٢٨. ثم عدل تعديلاً طفيفاً في ١٩٣٣/٦/١ واستمر العمل بموجبه الى يومنا هذا.

الشيوخ والمتنفذين ، ويكون المستضعفون والفقراء ومن تسندهم الحكومة هم الأخسرين دائماً . ولعل الى هذا قصد الحكام الانكليز حين سنوا هذا النظام . فقد كان همهم ان تبقى كلمة الامة متفرقة، وان يسود التطاحن بين رؤساء العشائر، وان يبقى الشعب جاهلاً، عاكفاً على تقاليده القبلية ، وعرفه الهمجي ، ليسهل عليهم السيطرة على البلاد ، واستغلالها كما يشاءون . هذا القانون الرجعي وامثاله ، مثل قانون حقوق وواجبات الزراع وقانون اللزمة وغيرها،جعلت امتيازات الاقطاعيين قانونية شرعية في البلاد . كما زاد اشتراك معظمهم في البرلمان ، واتصالهم برجال الحكومة من سيطرتهم ، واعلى كلمتهم ، حتى لقد اصبحوا الحاكمين بامرهم في مزارعهم وقراهم ينفذ اوامرهم رجال الحكومة الذين يخضعون لهم خوفاً من نفوذهم ، او طمعاً في عطاياهم .

لعلك تقول قد بعدنا عن الموضوع ، كنا في أثر الاستعمار الغربي في التفريق بين الاقطار العربية فأصبحنا في الاقطاعية وقانون دعاوى العشائر في العراق . لا . ما زلنا في صميم القضية . فقد كانت نتيجة تقوية الانكليز للاقطاعية في العراق ان ظلت اغلبية السكان في حالة عشائرية بدائية ، مستعبدين لشيوخهم ورؤسائهم ، مكدودين ، اميين ، تفتك بهم الامراض ، ويعانون نقصاً في التغذية ، وانحطاطاً عاماً في مستوى المعيشة . هؤلاء الفلاحون العراقيون ، وغالبيتهم العظمى عربٌ صلبية، لا يفهمون للقومية العربية معنى، ولا يعرفون شيئاً اسمه الامة العربية ليدينوا لها بالولاء ، وليحملوا رسالتها ، وينهضوا باعباء قضاياها الكبرى .

ان أفق احدهم لا يتعدى حدود عشيرته وقريتـــه ، وان ولاءه القومي لا يتجاوز القبيلة التي ينتمي اليها . القوميـــة الصحيحة ، والحياة القبلية ، شيئان مختلفان ، متضادان ، لا يحتمل الواحـــد وجود الآخر . فاذا اضفنا الى هذا ان نظـام الحكم الديموقراطي الذي اقامه الانكليز في العراق كان نظامـــاً صورياً ، مشوهاً ، واهي الاساس بحكم استناده الى النظام الاقطاعي والحياة العشائرية ادركنا سبب تخلف غالبية الشعب العراقي عن المشاركة في الحيـاة السياسية العراقية ، والقضايا القومية العربية بصورة عامـة . ان تقوية الاقطاعية ، وترسيخ نفوذها ، تؤدي حتماً الى إعاقة نمو الوعي القومي بين الشعب ، وتبعده عن المشاركة الحقيقية في الحكم ، ومن ثم تفسح المجال للاسر الحاكمة ، وللدول الاجنبية ، وكلها لا ترغب في الوحدة العربية ولا يروق لها التقارب الحقيقي بين العرب ، ان تلعب بمقـــدرات الوطن العربي كما تشاء لها اهواؤهـا ومصالحها الشخصية .

لم تقصر بريطانيا سياستها هذه التي عرضنا لطرف منها عـــلى العراق ، فقد طبقتها في الأردن ومصر والسودان ، بتحوير بسيط لا يمس الجوهر لتلائم البيئات المختلفة . ولنا في قصة السودان دلالة . في عام ١٨٨١ ثار الزعيم الديني محمد احمد المهدي على الحكومـة المصرية . فدحر قواتها ، واخذ يستولي على السودان بسرعـة خاطفة . وفي عام ١٨٨٣ طلبت بريطانيا ، وكانت قد احتلت مصر قبل عام ، من الحكومة المصرية القائمة ان تسحب بقيـــة الجيوش المصرية من السودان وتتركه للمهدي بعد ان تبين عجزها عـــلى

القضاء عليه . وتوفي المهدي عام ١٨٨٥ وخلفه عبد الله التعايشي . وفي عام ١٨٩٦ قررت بريطانيا إعادة فتح السودان باسم مصر . فتألفت حملة مصرية قادها اللورد كتشنر تمّ لها القضاء على التعايشي والحركة المهدية عام ١٨٩٨ . وفي عام ١٨٩٩ عقد اتفاق بين الحكومتين البريطانية والمصرية تقرر بموجبه ان تحكم الدولتان السودان مشتركا. على ان الحكومة البريطانية استبدت بالسودان، وتفردت بالحكم فيه ، حتى اذا كانت حادثة السردار عام ١٩٢٤ تخلصت من بقايا القوات المصرية العسكرية وأزالت الادارة المصرية ولم يبق لمصر في السودان إلا الاسم حسب . عزلت بريطانيا السودان عن مصر بحيث صار أسهل على المصري ان يسافر الى اي بلد من ان يسافر الى السودان . ووجهت اقتصاده وثقافته الوجهة التي تُبعده عن مصر ، وترسخ فيه نفوذها. ثم عزلت المديريات الثلاث الواقعة في جنوب السودان – ومعظم سكانها من القبائل غير العربية – عن باقي أجزائه . ومنعت تسرب الاسلام والعربية الى هذه المناطق ، بينما أباحت للمبشرين المسيحيين حرية التبشير وإنشاء المدارس ، لتجعل انفصال هذه المناطق عن السودان أمراً طبيعياً. ثم استغلت تمسك السودانيين العميق بالدين لتوجهه الوجهة التي تحقق مصالحها وتثبت حكمها . وفي السودان طرق صوفية عديدة ، حتى ليندر ان يجد الانسان سودانياً مسلماً لا ينتسب الى إحداها . وبين هذه الطرق الصوفية اختلاف وتنافس . وكان بين المهدية والختمية ، على الخصوص ، عداء وثارات. فلما أراد الانكليز القضاء على المهدية ، عسكرياً وروحياً استعانوا بالسيد علي الميرغني،

زعيم الختمية ، فجاء من مصر مع الجيش الفاتح وكان أبوه السيد محمد عثمان الميرغني قد جلا اليها عقب ثورة المهدي . وكان لنفوذه الديني ، الذي أمده الانكليز بالنفوذ الرسمي ، أثر بعيد في استقرار الأحوال ، وخضد شوكة المهدية . وجعلته الحكومة زعيم السودان الأول ومنحته لقب سير ، ووسعت عليه في الرزق ، وأقطعته الأراضي الواسعة . في الوقت الذي كانت تطارد زعماء المهدية ، وتقضي على أولاد المهدي وآل بيته . ولكن روح المهدية لم تمت ، ولم يتخل عنها أنصارها العديدون . فلما كانت الحرب العالمية الأولى ، واحتاجت بريطانيا الى معونة السودانيين ، قربت السيد عبد الرحمن بن المهدي الكبير ، وأنعمت عليه بلقب سير ، ومدت في نفوذه ، وأقطعته المساحات الواسعة من الأراضي الزراعية الخصبة في الجزيرة ، حتى ليقدر دخله الآن من غلتها من القطن بمئات آلاف الجنيهات كل عام . وأصبح الميرغني وعبد الرحمن المهدي أداتين بيد بريطانيا لاخضاع السودان ، وتنفيذ سياسة بريطانيا في التفريق بين السودانيين . فالأحزاب السودانية تدور حول شخصيهما ، والمنظمات الدينية وقفٌ عليهما ، ومنظمات الشباب ونواديهم موزّعة بين أنصارهما . ولما نشطت الحركة الوطنية في مصر والسودان ، في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وأخذت فكرة الاتحاد مع مصر تقوى ، ويزداد أنصارها بين السودانيين ظهر المهدي زعيماً للسودان ، يؤلف أنصاره الأغلبية في الجمعية التأسيسية التي عقدها الانكليز لوضع دستور للسودان ، ينادي باستقلال السودان وانفصاله عن مصر نهائياً . ومن الطبيعي ان يفعل المهدي

ذلك فقد أصبح له في السودان نفوذ شخصي عظيم ، ومصلحة مادية متنامية ، لا تدومان إلا اذا نفذ سياسة الانكليز ، وإلا إذا كان الانكليز عنه راضين . وسياسة الانكليز ، التي مهدوا لها خلال نصف قرن من العمل الدائب تقضي بفصل السودان عن مصر فصلاً تاماً ، والتفرد بالحكم فيه تحت ستار حكومة وطنية [٨] . وأصبح الانكليز يواجهون المصريين بعبد الرحمن المهدي ويقولون لهم : ها كم زعيم السودان يريد الاستقلال ، ولا يرضى بالاتحاد معكم ، ونحن لمشيئة السودانيين منفذون ، وعلى عهدنا لهم في المحافظة على استقلالهم ومنحهم حرياتهم محافظون .

اما الفرنسيون فقد فاقوا الانكليز تفنناً في اصطناع الوسائل لاخضاع العرب ، وتمزيق وحدة بلادهم ، وقتل نوازع الحرية في قلوبهم . ويقوم جوهر سياستهم على عزل شمال افريقيا عن العالم العربي عزلاً تاماً ، وتحويله رويداً رويداً الى اقطار فرنسية الثقافة واللغة والروح . فقد حولوا الحماية الموقتة في تونس ومراكش الى احتلال دائم . وملأوا دوائر الدولة بالموظفين الفرنسيين يصرّفون شؤونها الخارجية ، ويديرون امورها الداخلية ، بما تقتضي المصلحة الفرنسية دون ان يكون للسكان رأي في مصيرهم . اما الجزائر فقد جعلتها فرنسا ، منذ عام ١٨٤٨ ، جزءاً من الوطن الفرنسي رسمياً . ولكي تتمكن فرنسا من عزل هذه الاقطار العربية عن

---

(٨) ان التطورات الاخيرة في العلاقات المصرية البريطانية فيا يختص بالسودان (اتفاق حكومة اللواء محمد نجيب وبريطانيا) لاتغير شيئاً مما ذكر اعلاه . أما المستقبل فرهون بعوامل عديدة لا يمكن ان تعين نتائجها على وجه التحديد .

العالم العربي ، وتحويلها الى اقطار فرنسية ، عمدت الى قمع جميع الثورات والانتفاضات والحركات الوطنية التي قامت لصد عادية استعمارها ، باقسى العنف والوحشية . ثم أعلنت حرب إفناء على مقومات العروبة في هذه البلاد. فقد استعيض عن العربية بالفرنسية في الادارة والتدريس ، وانزوت العربية في المدارس الدينية والمدارس الخاصة القليلة التي ينشئها المسلمون . وأصبح نصيبها من التعليم الرسمي حصصاً قليلة تبيحها المدارس الرسمية المنظمة على النهج الفرنسي ، حيث تعطى مشوهة ، تزاحمها اللغة العامية التي يعتبرها الفرنسيون لغة مستقلة عنها، ويشجعونها للتوهين من اللغة الفصحى. وليس في مدارس الجزائر دروس تتناول التاريخ العربي والاسلام بينما يحمل الطلاب على تعلم التاريخ الفرنسي بدقة وتفصيل . وإذا أعطيت للطلاب دروس في التاريخ العربي فانما هي دروس تعطى للطعن على هذا التاريخ ، ولاثبات ان سكان شمال افريقيا ليسوا عربا ولا تربطهم بالعرب والمسلمين روابط تستحق ان يتمسك بها المثقفون . أما الجرائد والمجلات العربية فقليلة العدد ، محدودة الانتشار ، تطغى عليها الصحافة الفرنسية المحلية والمستوردة ، وقد ضيقت الحكومة الفرنسية من حرية دخول الجرائد والمطبوعات العربية الى هذه الاقطار .

ووجهت فرنسا اقتصاد البلاد وجهة فرنسية بحيث أصبح ٧٥ بالمئة من تجارة الجزائر ، و ٥٠ بالمئة من تجارة مراكش الخارجية مع فرنسا . وحدّت من نمو العلاقات التجارية بين هذه الاقطار وبين اقطار العالم العربي ، وحالت دون اتصال العرب بها شخصياً

لتعزلها عزلاً تاماً .

وأخطر من كل ما تقدم ان الحكومة الفرنسية شجعت هجرة الاوربيين وخاصةالفرنسيين إلى هذه الاقطار، ويسّرت لهم امتلاك الاراضي الزراعية، فهاجروا اليها بالآلاف واحتلوا أحسن الاراضي موقعاً وخصباً ، وأصبحوا هم السكان الشرعيين بنظرها ، يدعمون سياستها ، ويثبتون حكمها ، ويديمون بقاءها في البلاد . ويوجد في تونس التي يبلغ عدد سكانها ٣،٢٣٠،٠٠٠ نسمة حوالى ٢٥٠،٠٠٠ من الاوربيين . ويبلغ مجموع ما يملكه المستوطنون أو المعمرون منهم (Colons) ما يزيد قليلاً عن ٣٠ بالمئة من الاراضي الصالحة لزراعة الحبوب والاشجار المثمرة والزيتون . أي ١،٢٣٩،٠٠٠ هكتار من أصل ٣،٧٦٦،٠٠٠ هكتار. ويزيد دخل هؤلاء المعمرين نتيجة لاستخدامهم الوسائل الفنية في الاستغلال، عن نصف المنتوج العام من الزراعة وما اليها . ويوجد في الجزائر ، التي يزيد سكانها على الثمانية ملايين نسمة ، حوالي مليون أوربي . وقد بلغ مايستغله ٢٥٠٠٠ من هؤلاء الاوربيين ٢،٧٠٠،٠٠٠ هكتاراً من الاراضي الزراعية الخصبة . بينما تبلغ مساحة الاراضي التي يملكها الجزائريون (٥٣٢،٠٠٠ مالك) ٧،٦٧٣،٨٧٢ هكتاراً . أي أن عدداً من الاوربيين يؤلف ١/٢١ من مجموع السكان الجزائريين يملكون أرضاً تقرب من خمسي الاراضي التي يملكها الجزائريون جميعاً [٩] . ويوجد في مراكش أكثر من ٤٠٠،٠٠٠ أوربي . يملك المعمرون منهم

(٩) انظر نيقولا زيادة ، ليبيا وتونس والجزائر (بيروت . ١٩٥٢) ص ٢٥ ، ٤٩ — ٥٠ .

٤٠٠٠ مزرعة أوربية تشغل ٧ بالمئة من مساحة الاراضي الزراعية في مراكش ، وتنتج ١٥ بالمئـــة من الحبوب ، و ٨٠ بالمئة من الحضيات ، التي تنتجها البلاد جميعاً [١٠].

كل شيء في المغرب لهؤلاء الـ ١٬٦٠٠٬٠٠٠ اوربي ، ومعظمهم من الفرنسيين أصلاً . إدارة الدولة بيدهم ، والمجالس التشريعيـــة المحلية والبلدية في خدمتهم ، والاراضي الخصبة ملكهم ، والصناعة والتجارة تحت تصرفهم ، والمدارس تنشأ ويصرف عليها من مالية الدولة لتعليم اولادهم . أمـا نصيب العرب من الحكم الفرنسي ، فالفقر ، والجهل ، والاضمحلال . ونظرة واحدة إلى الاحياء الشعبية في المدن المغربية وإلى الاحياء الفرنسية الجـــديدة تكفي لتصوير واقع الحال . إن خطر هؤلاء الفرنسيين المقيمين في المغرب على عروبة البلاد لا يقتصر على ما ذكرنا فحسب . فهم ، بسبب هذه العوامل المتقدمـــة نفسها ، لا يستطيعون أن يدعموا مصلحتهم ، ويحفظوا كيانهم كفرنسيين متغلبين ، إلا ببقاء الحكم الفرنسي في البلاد ، وإلا إذا عزلت البلاد عزلاً تاماً عن العالم العربي . ولذلك فهم يقاومون كل حركة تحريرية ، انفصالية عن فرنسا ، ويملون على الحكومة المركزية في فرنسا السياسة التي تتبعها في المغرب . يقول الجنرال غيوم ، المقيم العام السابق في مراكش [١١] : « مع أن عدد الاوربيين يبلغ ٥ بالمئة من عدد السكان (في مراكش) حسب ،

---

(١٠) Général Augustin Guillaume, « The French Accomplishment in Morocco », (in **Foreign Affairs**, New York, July 1952 Vol. 30, N° 4).

(١١) المصدر السابق ص ٦٣٣ – ٤ .

إلا أنهم يمدون الدولة بغالبية الموظفين الاداريين والفنيين، وتؤلف الضرائب المفروضة على نشاطهم الاقتصادي نصف دخل الدولة. إن ضخامة مصالحهم الاقتصادية في البلاد تجعل من المستحيل عليهم أن يرتضوا مركز أقلية سياسية فيها.»

ويقول الجنرال غيوم في المقال نفسه: «كان شمال افريقيا – من حيث طبيعته الجغرافية، ومن حيث الاصول الجنسية لغالبية سكانه، ومن حيث تاريخه حتى الفتح العربي – جزءاً متمماً لاوروبا، ايام كانت اوروبا تترعرع في حوض البحر المتوسط ... ولا يربط مراكش بالشرق اية رابطة ما غير دينها الاسلامي والتنظيم القبلي لسكان اريافها وغير الشكل الديني لحكومتها.» في هذا القول، على رغم التزوير الواضح فيه، شيء من الحقيقة. فسكان المغرب مسلمون، متمسكون بدينهم الاسلامي، ويزيدهم استمساكاً به، وحفاظاً عليه، اشتداد ضغط الفرنسيين عليهم، ومحاربتهم لمقومات وجودهم كعرب ومسلمين، بحيث صار الاسلام عدتهم في مصاولة الفرنسيين، وآلة احتجاج ضد حكمهم، والراية التي توحدهم. والاسلام والعربية اقوى الروابط التي تشد المغرب الى العالم العربي. بل هما العاملان الاهمان اللذان ابقيا المغرب الى الآن عربياً مسلماً في ظل الحكم الفرنسي. فاذا هدم الفرنسيون الاسلام او اضعفوه على اقل تقدير، كما حاربوا العربية الفصحى واضعفوها، انقاد لهم المغاربة ولم يعارضوا مشاريعهم لفرنسة المغرب. على هذا بنوا سياستهم. فقد وجهوا قواهم لمحاربة الاسلام، وتوهين اسسه، وخاصة بين البربر. التفتوا نحو البربر يحيون لغتهم، ويدعمون

تقاليدهم وعاداتهم العرفية ، ويسبغون عليها صفه القانون ، ويبثون المبشرين المسيحيين بينهم بقصد تنصيرهم . وقد شرّعوا لذلك القانون المشهور الذي يعرف بالظهير البربري .

اما اعمال اسبانيا في الريف وطنجة فلئن اختلفت عن اعمال الفرنسيين في المغرب شكلاً، فهي مثلها روحاً وغاية وعنفاً . واما ما تقوم به اسبانيا الفرنكوية من مساع للتقرب من العرب فسياسة موقتة ، القصد منها صرف انظار العرب عن اعمالها العدوانية في الريف ، وكسب تأييدهم في المحيط الدولي ، وجرهم لمشاريع الدول الغربية .

وقد تحررت ليبيا من ايطالية الفاشية ، التي طبقت فيها كل وسائل إبادة السكان المعروفة في القرن العشرين ، ليحل محلها النفوذ الانكليزي الظاهر والخفي الذي قدمنا لك نموذجاً منه عند حديثنا عن العراق ومصر والسودان . وقد استغلت الولايات المتحدة حجة الحرب الباردة لتمد نفوذها في شمال افريقيا. فبنت المطارات الضخمة العديدة ، وسيطرت على المرافيء والقواعد البحرية على طول الساحل. فاصبحت عاملاً جديداً يقوي سلطان الدول الغربية في المغرب العربي وليبيا ، ويدعم نفوذها داخلياً ودولياً ، ويضع امام الحركة التحررية اعباءً جديدة .

٩ . الأقليات الدينية

•

في العالم العربي أقليات دينية عديدة أهمها : المسيحيون على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم ، شرقية وغربية ، واليهود ، والصابئة والطوائف المتفرعة عن الدين الاسلامي وأهمها : الدروز، والنصيرية والعلويون ، وأقليات قومية كالأكراد ، والأتراك ، والبربر ، والزنوج ، والشركس . وأقليات دينية وقومية في الوقت نفسه كاليزيدية ، والآشوريين ، والأرمن ، (والفرنسيين ، والاسبان والايطاليين في شمال افريقية) . على ان مشكلة الأقليات ، القومية والدينية ، لا تظهر بشكل واحد ، وبدرجة واحدة من الحدة والخطورة ، في الأقطار العربية جميعاً . فهنالك أقطار عربية تكاد لا تعرف مشكلة الأقلية ان كان سكانها ، في الغالب ، عرباً مسلمين كالمملكة العربية السعودية ، واليمن ، وأقطار الخليج . بينما تظهر هذه المشكلة ، أوضح ما تظهر في أقطار عربية أخرى كلبنان ، والعراق ، والجزائر ، ومراكش مثلاً .

وقد نشأت هذه الأقليات ، الدينية والقومية ، نشوءاً طبيعياً في العالم العربي . فقد كان العالم العربي مهد الديانات السماوية جميعاً . فيه ظهرت، وفي أقطاره العديدة تفرقت مذاهب وطوائف وشيعاً .

كما كان هذا العالم العربي معبراً ، وملجأ ، للأقوام المختلفة منذ أقدم العصور ، تمر فيه متجرة ، وتأتيه غازية فاتحة ، وتستوطنه محتمية أو لاجئة .

وعندما انبعث العرب من الجزيرة فاتحين ، مبشرين بدينهم الجديد ، آمن بهذا الدين الكثيرون ، واختلط بالعرب المسلمين الكثيرون ، وأصهروا اليهم ، وامتزجوا بهم ، وتعرّبوا . على ان العرب المسلمين لم يفرضوا دينهم على الأقوام المغلوبة بالاكراه ، ولم يفرضوا عليهم العربية بالقوة ، وإنما اعتنق الاسلام من اعتنق ، وتعرّب من تعرّب ، عن إرادة حرة ، وإيمان صحيح ، أو عن أمل في نيل ما يتيحه الدين الاسلامي من منافع دنيوية لمعتنقيه ، أو عن رغبة فيما يرده الدين الاسلامي عن معتنقيه من أذى وسوء معاملة . وبقي في البلاد الاسلامية أقوام لم تغير أديانها ، ولم تمتزج بالعرب الفاتحين ، فظلت محتفظة بقومياتها ولغاتها . وهؤلاء الأقوام الذين لم يشاءوا تغيير أديانهم ، والتخلي عن قومياتهم ، هم الذين يؤلفون الأقليات القومية والدينية القائمة في العالم العربي اليوم على وجه التقريب . نقول على وجه التقريب لأن هنالك أقليات قومية ودينية حلت في هذه البلاد ، عن طريق الفتح أو الغزو أو الالتجاء ، بعد الفتح الاسلامي ، وفي هذا العصر الحديث ؛ وأقليات دينية تفرعت عن الاسلام ، والتجأت بمذاهبها الجديدة ، الى المناطق العصية من البلاد العربية ، وأهمها المناطق الجبلية من سورية ولبنان ، خوفاً من اضطهاد الأكثرية المسلمة السنية .

وقد بقيت الأقليات القومية والدينية ، خلال العهود الاسلامية ،

محتفظة بكيانها ، متمتعة بحرية ممارسة شعائرها ، في الغالب . وكانت الروح القبلية ، او الاقليمية ، تزيد من اعتزاز الناس بأديانهم ومذاهبهم الخاصة . فقد كانت هذه الأديان الخاصة ، او المذاهب الخاصة ، عنوان تجمعهم ، ودعامة اتحادهم ، ومظهر هذه الاقليمية التي يعتزون بها ، ويناضلون دونها .

وقد كان همّ الدول الاسلامية منصرفاً ، في الغالب ، الى الدفاع عن البلاد ، وحفظ الامن ، وجباية الضرائب . وقد تركت هذه الاقليات حرة في تصريف امورها المعاشية ، والقومية ، والدينية . وكان لكل طائفة هيئاتها الدينية الخاصة التي تشرف على امورها الدينية ، وتنظم حياتها العائلية . ومما زاد في احتفاظ هذه الاقليات ، وخاصة التي كانت تسكن في المناطق البعيدة عن طرق المواصلات الرئيسية ، باستقلالها ولغاتها واديانها ومذاهبها ، ان سلطة الحكومة المركزية لم تتعد المناطق الآهلة التي يسهل الوصول اليها ، لصعوبة التنقل ، وضعف وسائل المواصلات يومئذ . وعلى هذا فقد اعتمدت الدولة على الاقطاعيين ، والزعماء الدينيين ، في ادارة شؤون المناطق النائية العصية . وكانت الدولة تستغل ، احياناً ، انقسام الناس الى طوائف وفرق دينية لتدعم سلطانها عليها . حتى إذا ثارت جماعة امكن تحريك الجماعات الاخرى ضدها وكسر شوكتها ، واخضاعها .

على ان هذه الاقليات لم تحافظ جميعها على عزلتها التامة ، ونقاوة عناصرها ، ولغاتها ، واديانها . فقد اصبحت الاقليات المحاطة بأكثرية من المسلمين العرب عربية اللسان . ومن ثم تأثرت

بالثقافة العربية ، واصبحت عربية الثقافة الى حد بعيد . وتأثرت بالاسلام من الناحية الاخلاقية والسلوكية بحيث اصبح ابناؤها لا يختلفون عن المسلمين المحيطين بهم ، المخالطين لهم ، اختلافاً اساسياً ، رغم اعتناقهم مذاهب واديانا مختلفة . وذلك مشاهد بوضوح عند معظم الفرق المسيحية القائمة في العالم العربي سواء منهم اقباط مصر ، ام مسيحيو لبنان وفلسطين وسورية والعراق .

ولم يهتم العثمانيون بخلق دولة موحدة . بل ابقوا الفوارق الدينية ، والقومية ، على حالها . وكان تسامح الدولة او تغاضيها عن الديانات والقوميات المختلفة ، ناشئاً في بادىء الامر عن التقليد الاسلامي بعدم الاكراه ، وعن عدم اهتمام الاتراك بهذه الطوائف الدينية والقومية ما كانت تدفع الضرائب ، وتحترم القوانين ، وتحافظ على الامن والسلام . ولكن هذه النظرة المتسامحة الى الفروق الدينية والعنصرية ، اصبحت فيما بعد من اسس السياسة العثمانية القائمة على تفريق عناصر الامة ، وابقائها مختلفة ، ليسهل عليها حكمها . بواسطتها اصبح السلاطين الاتراك قادرين على حكم امبراطوريتهم المترامية الاطراف . فلقد اثاروا المسلمين على المسيحيين ، والسنة على الشيعة ، والاكراد على الارمن ، والارثوذكس على اللاتين الكاثوليك . ومهما يكن من شيء فقد حافظ العثمانيون على التقليد الاسلامي تجاه الطوائف غير المسلمة (الرعايا) القائم على اعطائها حق تصريف شؤونها الدينية ،واحوالها الشخصية ، بنفسها . وقد عينت السلطنة العثمانية حقوق هذه الطوائف قانونياً بواسطة نظام « الملّة » . وقد تحددت وضعية

الملل ، وبيّنت حقوقها وواجباتها بواسطة قوانين متعددة ، صدرت في القرن التاسع عشر تحت تأثير الدول الغربية ، اهمها : كلخانه سنة ١٨٣٩ ، وخط همايون سنة ١٨٥٦ ، والدستور العثماني سنة ١٨٧٦

ان هذه الانظمة التي وضعت لتعيين وضعية الملل قوّت استقلال هذه الملل ، وزادت من قوة الرابطة بين افرادها ، ونمت الروح الانفصالية بين ابنائها ، وامدت في سلطان هيئاتها الدينية وزعمائها الاقطاعيين ، ورجالاتها المتنفذين .

وعندما اخذت الدول الاجنبية تتدخل في شؤون الدولة العثمانية ، منذ مطلع القرن الثامن عشر خاصة ، وتغلغل نفوذها فيها ، وجدت هذه الملل المتعددة خير وسيلة لتحقيق ما تصبو اليه ، فاحتضنت كل دولة اجنبية طائفة دينية ، واعلنت حمايتها لها ، ورعايتها لمصالحها ، ودفاعها عن حقوقها ، واخذت تتدخل ، باسم الدفاع عنها ، في شؤون الدولة العثمانية . وبواسطة هذا النفوذ اخذت الدولة العثمانية تمنح هذه الطوائف الامتيازات كما تقدم معنا . احتضنت فرنسا الموارنة والكاثوليك ، وروسيا الارثوذكس ، والنمسا ، وايطاليا منذ نهاية القرن التاسع عشر ، الروم الكاثوليك والطوائف الكاثوليكية الخاضعه للسلطة البابوية . ومالت انكلترا إلى تأييد الطائفة الدرزية خاصة ، والمسلمين عامة حيث تدعو حاجة المسلمين الى تأييد دولة اجنبية لهم .

وكان تغلغل نفوذ الدول الاجنبية في قلب الطوائف الدينية يسلك سبلاً شتى : بواسطة المدارس والمؤسسات الثقافية التي تعلم فيها

لغة الدولة الاجنبية الخاصة وثقافتها، او بواسطة الارساليات الدينية . اما تدخل هذه الدول في شؤون الدولة العثمانية باسم الطوائف الدينية فكان يجري بواسطة المداخلات الدبلوماسية السافرة والخفية، وكان يأخذ طابع التدخل السياسي والعسكري المباشر ، احياناً ، كما حدث في لبنان عام ١٨٤٠ و ١٨٦٠ مثلاً .

ماذا كانت نتيجة تدخل الدول الاجنبية في شؤون الطوائف الدينية؟ انه حسّن وضعية هذه الاقليات الدينية ، وقوى مركزها، وزاد في استقلالها الذاتي . ولكنه جلب عليها نقمة الدولة العثمانية والغالبية المسلمة من السكان . فكان المسلمون ينظرون اليهم بعين الحذر والريبة، ويرونهم مصدر ضعف ، وآلة بيد السياسة الاجنبية، وخطراً كامناً على الدولة والمسلمين عموماً . ومما زاد في هذه النقمة، إقبال هؤلاء على الثقافة الاوروبية ، وتعاون بعضهم مع الدول الاجنبية ، واستعانة هذه الدول ببعضهم في الاعمال الكتابية في قنصلياتها ومؤسساتها الدينية والثقافية والتجارية . وقد نذهب الى ابعد من هذا فنقول ان اقبال ابناء هذه الطوائف على اصطناع اساليب الغرب في الصناعة والتجارة والاقتصاد عامة ، مما ادى الى تفوق بعضهم في مجال التجارة والاقتصاد ، قد زاد في حقد الاكثرية المسلمة عليهم ، وزاد في شعورها بمزاحمة هذه الاقليات ، شبه الغريبة عنهم ، لهم .

ان هذا الوضع الخاص الذي تمتعت به الطوائف الدينية المختلفة خلال التاريخ جعل من هذه الطوائف مجموعات اجتماعية تعيش شبه مستقلة داخل حدود الاوطان العربية، منكمشة على نفسها، حساسة

على مصالحها الخاصة، مرتابة بالاكثرية المسلمة التي تحيط بها، شاعرة بما يشبه الغربة في الوطن الذي تعيش فيه. ومما كان يزيد في عزلة هذه الطوائف، وانطوائها، وتوجسها، ان الاكثرية المسلمة اعتادت ان تنظر منذ اقدم عهود السلطان الاسلامي الى ابناء الطوائف غير المسلمة نظرة شك واستعلاء وتغاض، يخالطه شيء من الاحتقار في اغلب الاحيان، والاعتداء العنيف احياناً. وعندما انبثقت الحركة القومية والتحررية في هذا العصر الحديث كان لا بد لها ان تعاني، فيما تعاني، من عوامل البلبلة والتأخر والتفريق، هذا الانقسام الخطير في ضمير ابناء الاقليات، وتوزع ولائهم بين الطائفة التي ينتمون اليها والوطن الذي يعيشون فيه. وقد زادت الدول المنتدبة على البلاد العربية هذه المشكلة حدة وتعقيداً.

عندما وقعت البلاد العربية، نعني العراق وفلسطين والاردن ولبنان، تحت انتداب فرنسا وبريطانيا عملت هاتان الدولتان على تقوية الروح الطائفية، ودعم الانشقاقات الدينية، وأكدت الطائفية قانونياً. وكانت عصبة الامم من وراء هاتين الدولتين تدعو إلى رعاية حقوق الاقليات، والمحافظة على كياناتها. وقد صار للاقليات الدينية في العراق، المسيحيين واليهود، ممثلون في البرلمان، كما اعترفت الحكومة العراقية بهيئاتها الدينية ومجالسها الروحية وقوانين احوالها الشخصية. أما في سورية فقد قامت فرنسا بترسيخ أسس الطائفية فقسمت البلاد إلى دويلات أربع بحسب الطوائف الدينية الموجودة في البلاد. وأما في لبنان فقد أقامت فرنسا الدولة اللبنانية على قواعد الطائفية في الانتخابات النيابية والبلدية والوظائف الحكومية

زاعمة أنها تعمل في ذلك على إشاعة العدل بين الطوائف جميعاً ، والمحافظة على حقوقها ، وحفظ كياناتها التاريخية . بحيث أصبحت مشكلة الطائفية في لبنان من أعقد مشاكله وأساس معظم ما يعانيه من أزمات وعدم استقرار .

الحق إن مشكلة الطائفية في لبنان معقدة ، قديمة . فقد عاشت كل طائفة من طوائفه حقباً طويلة من الزمن عاكفة على نفسها ، محافظة على تقاليدها الخاصة ، خائفة من الطوائف الاخرى ، متوجسة منها شراً . ومما كان يزيد في حدة الشعور الطائفي ، ويؤرث العداوة بين أبناء الطوائف المختلفة ، النظام القبلي الاقطاعي الذي ساد لبنان ، وقوة نفوذ رجال الدين وامتداد هذا النفوذ إلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وجهل غالبية السكان . وقد انتهى الحقد الطائفي ، الذي عملت كل العوامل المتقدمة الذكر على إيقاده في صدور اللبنانيين ، بتلك المذابح الدامية التي قامت بين الدروز والمسيحيين ، وبين المسلمين والمسيحيين ، في عام ١٨٦٠ ، في دير القمر ، وبيروت ، وحاصبيا ، وزحلة ، ودمشق . والتي تركت في نفوس كثير من المسيحيين ذكرى مؤلمة ، مرعبة ، لم تستطع السنون الطوال أن تمحوها . لقد عاشت الطوائف في لبنان مفرّقة الكلمة ، متعادية ، تتطلع كل منها إلى دولة أجنبية لتحميها ، وتشد أزرها . وجاء الانتداب الفرنسي يؤكد هذه التفرقة ، ويؤرث نيران هذه العداوة . وجاءت أنظمة الحكومة وقوانينها ومؤسساتها تؤكد هذا الانقسام الطائفي وتدعمه ، والمدارس الطائفية ، الوطنية والاجنبية على وجه الاجمال ، تغذي الروح الطائفية وتنميها .

والزعماء الاقطاعيون ، والصحافيون الانتهازيون ، وتجار السياسة والمال ، يضفون على هذا الانقسام الطائفي صبغة المنطق والعدالة ، والمصلحة القومية . ورجال الدين يباركونه ، ويديمون بقاءه ، ويناضلون دونه . هذه الروح الطائفية ، بالاضافة إلى عوامل اخرى اجتماعية وسياسية واقتصادية ، وهذا التخوف من الاكثرية المسلمة العائشة في الاقطار العربية ، هي التي تدفع بفريق متنفذ من اللبنانيين إلى الحرص على استقلال اللبنانيين عن الاقطار العربية ، وتشيع بينهم هذه الروح الانعزالية عن العالم العربي ، وتغريهم بتحويل لبنان إلى وطن قومي للمسيحيين .

وما دمنا نتحدث عن الاقليات الدينية ، وعن الروح الطائفية ، يجدر بنا أن نشير إلى وجود هذه النعرات المفرقة بين الطائفتين الاسلاميتين الكبيرتين : السنة والشيعة ، وخاصة في العراق . ليست هذه النعرات الطائفية حديثة النشأة في العراق ، ولا هي من خلق الاستعمار البريطاني وحده . فقد ظهرت منذ القديم ، بظهور الفرقة الشيعية الثائرة على الدولة الاسلامية السنية الحاكمة . وزادتها تعقيداً الدولتان العثمانية والفارسية اللتان كانتا تصطرعان على السيادة على العراق . فلما تمت الغلبة للعثمانيين اعتمدوا على السنيين وقربوهم ، واضطهدوا الشيعة وأهملوا تثقيف أبنائهم ، وتحسين أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ، والاستعانة بهم في إدارة شؤون البلاد . ولكن هذه الروح الطائفية المتولدة عن العوامل المتقدمة ، وعن الجهل العام والجهل بروح الدين الاسلامي خاصة كان يجب أن تنمحي وتذوب عند قيام الحكم الوطني في البلاد ، وذلك بازالة الاسباب

السياسية والاجتماعية والنفسية التي ولدت هذه الروح الطائفيــة ، وإعادة تثقيف الشعب ، وتوجيهه وجهة قومية خالصة ، غايتهـا تقدم الشعب والمساواة بين افراده ، وغرس روح المواطنة الصحيحة في نفوسهم ، وإخراجهم من هذه العزلة الطائفية الضيقة التي يحيون في ظلامها ، إلى رحابة الحياة القومية المشرقـة ، والشعور القومي السليم . على أن البريطانيين المحتلين لم يرقهم أن يروا الشعب موحد الكلمة ، مجموع الشمل ، متراص الصفوف ، ففي ذلك الخطر كل الخطر على وجودهم في البلاد . فعملوا على تفريق كلمته ، وإضعاف وحدته ، ووجدوا في الحزازات الطائفية الوسيلة المثلى لتحقيق ما يريدون . وأيد المحتلين الانكليز في مسعاهم هذا الزعماءُ الاقطاعيون ، وتجار السياسة ، والمتعصبون من رجال الدين ، والمثقفون الانتهازيون الذين لا يهمهم إلا أن يصعدوا إلى مناصب الدولة وجلالة الزعامة. ولا تزال هذه النزعات الطائفية المفرّقة عقبـة كبيرة تعترض كل محاولة لتحسين أوضاع البلاد الاجتماعية والاقتصادية فتصرف أنظار الشعب عن قضاياه الأساسية وتمعن في تمزيق وحدة صفوفه .

لقد كان من المفروض ، ومن المعقول ، ان تؤدي التطورات الحديثة في العالم العربي ، ومنها ادخال وسائل المواصلات الحديثة اليه وربط اجزائه ربطاً محكماً ، وقيام الحكومات الحديثــة وانتشار التعليم ، الى إضعاف الطائفية ، ان لم نقل الى محوها بالكلية . ولكن بينما كانت هذه العوامل تعمل على اضعاف الطائفيـة كانت عوامل اخرى قديمة ومستحدثة ، اصيـلة ومصطنعة ، تعمل على ترسيخها وتقويتها . منها اعمال الدول الاجنبية ، والمدارس التبشيرية

والطائفية ، وفريق من الزعماء المدنيين والدينيين ، الذين يهمهم ان تبقى الطائفية محافظة على مراكزهم وامتيازاتهم ، بحيث اصبحت الطائفية ملموسة وان كانت غير موجودة بصورة قانونية في معظم البلاد العربية ، سواء كان ذلك من جانب الاكثرية المسلمة او من جانب الاقليات الدينية . هي موجودة رغم هذه التصريحات التي يرسلها الحكام والزعماء ورجال الدين بنفيها وانكارها وتأكيد وحدة الامة واتفاق اهوائها واهدافها، بل لعل هذه التصريحات دليل على وجودها وتأزمها .

لم نستعرض مشكلة الاقليات الدينية، والطائفية المتفرعة عنها، هذا الاستعراض الخاطف في مجالها التاريخي الا لنبين العوامل التي ولدتها حتى يسهل القضاء عليها . فقد كانت الطائفية في الماضي امراً طبيعياً عندما كانت الدولة قائمة على الدين ، وعندما كان ولاء الفرد منصرفاً الى الطائفة الدينية التي ينتمي اليها . اما اليوم فقد اصبحت الطائفية امراً غير طبيعي ، مخالفاً لسنة التطور ، مناقضاً لهذا التيار القومي الذي يجتاح الاقطار العربية ، منافياً لروح التحرر ، والاستقلال ، والتقدم . ان الطائفية تبدد جهود الامة ، وتهرق حيويتها ، وتلهيها عن قضاياها الاساسية . وهي تمزق كل مجتمع عربي الى مجتمعات صغيرة ، منطوية على ذاتها ، متباغضة ، متعادية . وتخلق في افراد هذه المجتمعات شعوراً طائفياً ضيقاً منافياً للشعور الوطني كل المنافاة . فالشخص الذي لا يستطيع ان يتخطى بتفكيره افق طائفته لا يستطيع ان يشعر بمصلحة الوطن عامة ، ولا يحس بهذه الرابطة القوية التي يجب ان تسود افراد

الوطن جميعاً ، وتدفعهم الى ما فيه خير الامة عموماً . والطائفية ، بعد هذا ، تهدر حقوق اكثرية ابناء الطائفة في سبيل مصلحة افراد معدودين من الاقطاعيين والزعماء ورجال الدين والانتهازيين . يعني انها تهدر حقوق قسم من ابناء المجتمع وتعيق تقدمهم . ان الطائفية المذهبية ، كالعصبية القبلية، اثر من آثار الماضي ينفي وجود القومية التي لا تنهض إلا على افراد يقدمون ولاءهم للوطن خالصاً. ولما كانت مشكلة البلاد العربية إنما هي مشكلة تحررها من الدول الاجنبية ، وتقدمها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، ولما كان هذا التحرر والتقدم لا يتم الا بوحدة ابناء الامة ، واتفاق غاياتهم واهدافهم ، كانت الطائفية من اخطر العوامل التي تحول دون وحدة الشعب ، وبالتالي تعيق تحرر البلاد وتقدمها . فاذا اضفنا الى هذا ان من اهم العوامل التي تحول دون التقارب الحقيقي بين البلاد العربية ، بل اتحادها ، انما هو عدم شعور جماهير الشعوب العربية شعوراً قومياً واعياً ، وحفزهم الى دفع حكوماتهم الى ما فيه تقارب العرب ، ادركنا خطر الطائفية على اضعاف الشعور القومي ، والحؤول دون نضجه ، فهي اذن من اهم عوامل التفريق بين العرب– هذا بالاضافة الى هذه المحاولات السافرة التي يقوم بها بعض دعاة الطائفية لعزل بلادهم عن البلاد العربية احتفاظاً بكياناتهم الطائفية ومصالحهم الشخصية . في ضجيج الطائفية ، ومناوراتها الخفية ، واحقادها الدفينة ، يضيع صوت الوطن العربي ، ويخفت نداء القومية ، وتتبدد صرخات التحرر ، وتحتضر المصلحة العامة .

١٠ . الاقليات القومية

●

في العـالم العربي عناصر عديدة غير عربية . بعض هذه العناصر كانت تسكن البـلاد منذ القديم ، وبعضها سكن البلاد قبل مجيء العرب اليها كالاكراد والبربر مثلاً . وهؤلاء يسكنون في جماعات متقاربة ، متضامة ، ما زالت محتفظة بلغاتها وتقاليدها القومية. وقد اخذ المثقفون من ابنائها يشعرون بقوميتهم ، ويحسون ذات امتهم، ويعملون على ان يكون لقوميتهم حقوق متساوية مـــع حقوق الاكثرية العربية . هذه المجموعات من السكان هي التي نطلق عليها اسم الاقليات القومية .

ولم يكن في العالم العربي، قبل نهاية القرن التاسع عشر،مشكلة اقليات قومية . فما كان الناس ليعرفوا معنى القومية . وما كانوا يشعرون بالشعور القومي الواعي . فقد كانت « الملة » بنظر الفرد العادي هي الدين الذي ينتمي اليـه ، والوطن الذي يعيش فيه . هـذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فان الاسلام دين عالمي لا يفضلْ قوماً على قوم ، ولا يتعصب للون على لون . وقد ظهرت مشكلة الاقليات القومية في العالم العربي بعد ان دخلت اليه فكرة القومية، بمفهومهـا الغربي ، في أواخر القرن التاسع عشر ، وأخذت شكلها

الواضح المحدد قبيل الحرب العالمية الاولى بعـــد ان ازداد عسف الدولة التركية ومعاداتها للاقليات القومية والدينية ، وخاصة منذ قيام جمعية الاتحاد والترقي ، وبعد ان تغلغل نفوذ الدول الاجنبية في الدولة العثمانية ، واحتلالها البلاد العربية التي كانت خاضعة لهـا بعد تلك الحرب .

وقد عانت البلاد العربية ،وما زالت تعاني من مشكلة الاقليات القومية هـذه . وتعقدت المشكلة لسوء فهم الحكومات العربية ، والحركات الوطنيـة العربية ، لمشكلة الاقليات ، ولعدم اعترافها بحقوقهـا القومية الطبيعية ، ولاستغلال زعماء الاقليات القومية ، وتجـار السياسة والثقافة والنفوذ من ابنائها ، مطالب قومياتهم العادلة في سبيل نفوذهم الشخصي ومنافعهم الذاتية ، بحيث اصبح « التعصب العنصري » مثـــل التعصب الطائفي اداة تفريق لقوى الشعب ، واستغلال لقضايا الجمهور ، واحتكار لمناصب الدولة .وقد استغلت الدول الاجنبية هذه المشكلة كما استغلت مشكلة الطوائف الدينية ، لتفرق السكان ، وتضعف وحدتهم ، تدعيماً لسيطرتها على البـلاد ، وتثبيتاً لنفوذها فيها . فقد أستغل الانكليز قضايا الاكراد واليزيديين والاشوريين في العراق ، فزجـــوا البلاد في نزاع مستمر، وثورات دامية، كلفت الحكومة العراقية، والشعب، وابناء الاكراد واليزيديين والآشوريين ،آلاف الضحايا البشرية ، واموالاً جسيمة ، وجهوداً ضاعت هدراً . كما يستغلون الآن قضايا القبائل الافريقية الساكنة في جنوب السودان، لفصل جنوب السودان عن شماله ، وعرقلة استقلاله ، ومنع اتحاده مع مصر .

وكما يستغل الفرنسيون قضية البربر في شمال افريقية لشق وحدة الشعب المجاهد ضد استعمارهم . وقد رأينا ان نفصل قليلاً في ذكر اقليتين قوميتين توضيحاً لما ذهبنا اليه من رأي فيما تقدم : وهما الاكراد والبربر .

الاكراد في العراق

يسكن الأكراد عامة المنطقة الجبلية الممتدة على ملتقى الحدود الايرانية – التركية – العراقية ، إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين . أما أكراد العراق فيسكنون في الألوية الشمالية الشرقية بين حدود العراق الشرقية وخط وهمي يمر من زاخو وشرق أربيل وكركوك في المنطقة الجبلية . وهم قوم آريون وإن لم يتوصل العلماء إلى اليقين في حقيقة أصلهم . فمن العلماء من جعلهم من الجنس الطوراني ، ومنهم من نسبهم إلى الجنس الآري ، ومنهم من ذهب إلى أنهم ينتمون إلى قبائل غوتو الطورانية التي ذكرها الآشوريون باسم « غردو » أو « كردو » حيث كانت تسكن الجبال الواقعة في شمال بلاد آشور . فلما سقطت نينوى بيد الكلدانيين والماديين ، وزالت دولة الآشوريين من الوجود ، اختلطت تلك القبائل بالماديين تدريجياً ، واندمجت فيهم ، فتغلبت عليهم الاوصاف الآرية ، وامسوا من الشعوب الآرية . اما لغتهم فتعتبر فرعاً من اللغات الآرية ، وهي قريبة الشبه باللغة الفارسية[1] .

---

(١) انظر طه الهاشمي ، مفصل جغرافية العراق ، (بغداد ، ١٩٣٠) ص٩٧ – ٨ وانظر كذلك محمد امين زكي ، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، الذي نقله الى العربية عن الكردية محمد علي عوني (مصر ، ١٩٣٩) ص ٦٣ – ٦٤ .

يؤلف الاكراد اكبر قومية في العراق بعد العرب . ويبلغ عددهم في الوقت الحاضر حوالى ٨٠٠،٠٠٠ نسمة تقريباً [٢] . وهم ينقسمون الى قبائل عديدة ، بعضها ما تزال بدوية رحالة ، بيد ان معظم الاكراد يعيشون في قرى ، ويشتغلون في الزراعة وتربية المواشي ، وبعضهم يسكنون في المدن ويشتغلون في مختلف الحرف ومنهم قسم كبير في مختلف دوائر الدولة ، وقواتها المسلحة ، وهؤلاء منتشرون في مختلف المدن العراقية .

كان الشعور القبلي عند الاكراد ، إلى زمن قريب ، أقوى من الشعور القومي . ولا يزال هذا الشعور القومي ضعيفاً في المناطق الريفية البعيدة عن مراكز الحركات السياسية . إلا انه استجدت في هذا العصر الحديث عوامل عديدة عملت على توحيد شعور الأكراد ، وبعث الوعي القومي فيهم . من هذه العوامل تكاثر عدد الاكراد في المدن . فقد درج الاكراد على عدم الاشتغال بالصناعة والتجارة ، ولكن منذ أجيال قليلة ظهرت طبقة برجاسية (بورجوازية) كردية تشعر شعوراً قومياً قوياً . وثاني هذا العوامل ظهور المثقفين الاكراد . كانت ثقافة هؤلاء المثقفين تركية في العهد التركي ، وعربية غربية في عهد الحكم العربي . وقد ذاب قسم منهم في الثقافتين العربية والتركية إلا أن معظمهم ظلوا مستمسكين بثقافتهم القومية ، وعملوا على إنمائها ونشرها ، وأخذوا يبعثون

---

(٢) احدث تقدير للاكراد ما يلي : في العراق ٨٠٠،٠٠٠ ، في تركيا ١،٥٠٠،٠٠٠ ، في ايران ٦٠٠،٠٠٠ ، في سورية ٢٥٠،٠٠٠ ، في جمهورية ارمينية السوفيتية ٣٠،٠٠٠ . انظر The Middle East p. 59 السابق ذكره .

الأدب الكردي ، ويطوّرونه ، وينمونه ، وينشئون الصحف الكردية في السليمانية وبغداد. وهم على اتصال بمراكز الحياة الكردية في تركيا وسورية . ويقوم هؤلاء المثقفون الآن ، ببعث الوعي القومي عند الاكراد ، ونشر فكرة الوحدة الكردية بينهم ، وغرس فكرة الاستقلال في نفوسهم[٣] ، وتنبيههم إلى المساوىء الادارية التي يعانونها ، والظلم الاجتماعي الذي يكابدونه . ومما أثر في الرأي العام الكردي ، منذ اواخر الحرب العالمية الثانية ، وقوى شعوره القومي ، الحركات السياسية التي حدثت في المناطق الكردية الايرانية حيث تخلص الاكراد من السلطان الايراني ، وأسسوا جمهورية كردية في مهاباد غير بعيد عن المناطق الكردية في العراق ، عام ١٩٤٦ ، وان كانت هذه الجمهورية لم تدم غير وقت قصير[٤] .

---

(٣) انظر A.H. Hourani, **Minorities In the Arab World** (London, 1947), p. 96.

(٤) يقول السيد حوراني ، المرجع السابق ص ٩٨ - ٩٩ : «لم يقم الاكراد باية ثورة بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٤٣ ، وان ظلوا متذمرين ، غير راضين بتقبل سلطة الحكومة . ويعود هذا التذمر لسببين رئيسين : اولهما الشعور القومي الكردي الذي يعود الى الظهور التدريجي لطبقة من المثقفين الاكراد من جهة والى رد الفعل الطبيعي للوحدة العربية من جهة ثانية . وقد يكون للتشجيع الذي قدمه الفرنسيون للشعور القومي الكردي في الجزيرة السورية ، والروس للاستقلال الذاتي الكردي في القفقاس ، بعض التأثير على نمو هذا الشعور القومي ، وان كان هذا التأثير محدوداً . اما السبب الثاني، الذي هو الاكثر اهمية ، فيجب ان نبحث عنه فيما كانت تشكو منه القبائل الكردية من حيف اداري خاص ... »

وقد نشط الاكراد منذ نهاية الحرب العالمية الاولى، في المطالبة بتأسيس دولة كردية في المناطق الكردية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية، وجعل الاكراد امة واحدة. وقد أدت اتصالات الجمعيات الكردية التي تأسست في مصر والاستانة بمجلس الحلفاء الأعلى في باريس الى ان يقر هذا المجلس حق الأكراد في تكوين دولة مستقلة. وجاءت معاهدة سيفر التي وقعتها تركيا والحلفاء في ١٠ آب ١٩٢٠، فأكدت هذا الحق، حيث تقرر المادة الرابعة والستون (٥) من هذه المعاهدة حق الاكراد الساكنين في تركيا والعراق في تأسيس دولة مستقلة لهم اذا كانت اكثريتهم ترغب في ذلك.

على ان الحلفاء لم يستمسكوا بهذا المبدأ، كما رفضته الحكومة التركية الكمالية، فجاءت معاهدة لوزان خالية من اي تعهد بشأن استقلال كردستان. وقد عملت الحكومة التركية، بعد ان تخلصت من مشاكلها الداخلية وتقوى نفوذها بانتصارها على اليونان، على ان تبقي الاكراد تحت سيطرتها، وتحول دون تأسيسهم دولة مستقلة تكون خطراً يهددها من الخلف. وعلى هذا فقد اصبحت قضية اكراد العراق قضية داخلية تخص العراق وحده. ومهما يكن من عدم تطبيق نصوص معاهدة سيفر فقد تركت أثرها في عقول الاكراد العراقيين الطامحين الى الاستقلال، وقوّت ايمانهم بعدالة قضيتهم. وقد أخذت القضية الكردية طوراً خطيراً في العراق،

---

(٥) انظر النص الانكليزي لهذه المادة في: **The Treaties of Peace: 1919-1923,** Carnegie Endowment for International Peace, Vol. 2 (New York, 1924) pp. 807-8.

وشغلت الحكومة والشعب، منذ تأسيس الحكم الوطني الى اليوم.
وما فتىء الاكراد يطالبون بالاصلاحات الداخلية، والاستقلال الذاتي، وبعضهم بالاستقلال المطلق، وقاموا بثورات عديدة، اهمها ثورات الشيخ محمود المتعددة في لواء السليمانية، والشيخ احمد البارزاني، في عهد الانتداب، ثم ثورات الشيخ مصطفى البارزاني بعد الحرب العالمية الثانية. وكانت السلطات البريطانية في العراق، كثيراً ما تثير الاكراد على الحكومة كلما أرادت ان ترغم الحكومة على امر من امور السياسة، وكلما ارادت ان ترهب الوطنيين العراقيين. ولم تذهب هذه الثورات الدموية المتواصلة التي أزهقت فيها ارواح الآلاف من رجال الحكومة ومن الثوار، والتي عطلت تقدم كردستان العراق السلمي فترة من الزمن، وهذه الاحتجاجات والمطالبات بالاستقلال والمساواة التي تنهال على الحكومة العراقية ودار الاعتماد في بغداد، وعلى عصبة الأمم في جنيف، دون ان تحقق بعض مطالب الاكراد القومية. فقد انشأت الحكومة العراقية المدارس في كردستان حيث يتلقى الطلاب علومهم باللغة الكردية (في المدارس الابتدائية)، وجعلت المرافعات في المحاكم باللغة الكردية، وفتحت ابواب الخدمة المدنية في الدوائر الحكومية امام الاكراد، ويسرت لشبانهم الدخول الى جميع الكليات والمدارس الحكومية في بغداد، وقامت باصلاحات اقتصادية واجتماعية وادارية تعدل ما قامت به في المناطق العربية من العراق، وان كانت هذه الاصلاحات التي قامت بها الحكومة سواء في المناطق العربية او الكردية ضئيلة بالنسبة إلى حاجات السكان

ومتطلبات الحياة في العصر الحاضر .

ان الحالة في كردستان العراق هادئة ، او تبدو هادئة . فقد حصل الثوريون الاوائل على مناصب رفيعة في الدولة فأصبح منهم الوزراء والنواب والاعيان والموظفون الكبار ، واستقر معظمهم في بغداد والفوا حياتها المتحضرة الرخية ، ووالوا الحكومة وأيدوها ، واصبح قسم كبير منهم يفضلون ان يكونوا وزراء ونواباً وموظفين كباراً في دولة عاصمتها بغداد على ان يكونوا زعماء لدولة محدودة المساحة ، عتيقة المدن ، قليلة الخيرات . وان كان بعض هؤلاء ما زالوا يستغلون القضية ، ويلوحون بظلامة الاكراد ، بين الحين والحين ، تقوية لنفوذهم عند جماهير الاكراد وتخويفاً للحكومة للحصول على ما يريدون . وقد استطاعت الحكومة ان تستميل الى جانبها قسماً كبيراً من الاقطاعيين والاغوات والشيوخ المتنفذين ، فقوت نفوذهم ، وثبتت سيطرتهم ، وزادت في ثرواتهم ، فافسدت عليها قلوب العامة ، وافسحت المجال لهذه الحركات السياسية التي تشتد وتقوى . فهنالك حركات سياسية ، مختلفة الغايات والاساليب ، يقوى اثرها على الدوام بين المثقفين ، ويزداد نفوذها على العوام من الشعب الكردي ، وان كانت معظم هذه الحركات تعمل في الخفاء ، ولا تستطيع ان تعلن عن نفسها جهاراً . فالشيوعيون ، الذين قويت حركتهم وازدادوا عدداً منذ الحرب العالمية الثانية ، ينادون بان السبب الرئيسي لما يعانيه الشعب الكردي من اوضاع سيئة ، ومستوى عيش بائس منحط ، وسوء في الادارة ، هو النفوذ البريطاني والرجعية المحلية

المؤتمرة بامره ، الموالية له . وان اماني الاكراد لا تتحقق الا بتوحيد القوى مع المناضلين من عرب العراق ، الذين يشكون من الحالة السيئة نفسها ، ويعانون التأخر والفاقة والحرمان ذاته . وبعد ان يتحرر العراق نهائياً من كل نفوذ خارجي ومن كل تسلط للرجعية في الداخل يقرر الشعب الكردي ما إذا كان يبغي الاستقلال التام ، او الاستقلال الذاتي ضمن حدود الدولة العراقية ، او يبقى على وضعه الحالي جزءاً غير منفصل من الدولة العراقية . اما المتحمسون للقومية الكردية ، او الانفصاليون كما يسمون في العراق ، فيدعون الى الاستقلال ، وينادون بادخال الاساليب الديمقراطية في الادارة ، والقيام بالاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية .

البربر

البربر هم سكان المغرب العربي الاصليون الذين عمروه منذ اقدم عصور التاريخ . ولم يتفق علماء الانثروبولوجيا والتاريخ على الجنس الذي تحدروا منه ، ولا على الاصول اللغوية التي اشتقت منها لغتهم . ويذهب جمهرة من العلماء الى ان البربر يتكونون من شعبين اسمري البشرة احدهما من صحراء افريقية غير الزنجية ، والثاني من جنوبي اوربا ، ويضيفون اليهما عنصراً ثالثاً صغيراً من اوربا الشمالية ابيض اللون [٦] . ويذهب آخرون الى ان لغة البربر وشيجة الصلة باللغة الكوشية الحامية ذات العلاقة القريبة باللغات السامية [٧] .

وقد عاش هذا الشعب احقاباً متطاولة في الرقعة الممتدة من

(٦) امين الريحاني ، المغرب الاقصى (مصر ، ١٩٥٢) ص ٤٥٤-٤٥٥

(٧) الموسوعة البريطانية — مادة بربر .

طرابلس الى المحيط الاطلسي ومن المتوسط الى تخوم الصحراء الكبرى لم يتأثروا بالفاتحين – واشهرهم الفينيقيون مؤسسو قرطاجنة ، واليونان ، والفندال ، والرومان – الذين توالوا على المغرب الا قليلاً . وقد كان البربر قبائل عديدة ، شديدة العصبية ، قوية النزعة الفردية ، لم تستطع ان توحد كلمتها ، لتؤلف دولة موحدة ، الا في فترات قصيرة قبل الفتح العربي .

وعندما فتح العرب المسلمون هذه البلاد دخل كثير من البربر في الاسلام ، واشتركوا مع المسلمين في اكمال الفتح ، ومن ثم ، في فتح الاندلس . وقد نبغ منهم قواد حربيون عظام اشهرهم طارق بن زياد فاتح الاندلس . على ان العرب المسلمين لم يؤثروا في البربر تأثيراً اساسياً يذكر من الناحية العنصرية واللغوية في القرون الثلاثة الاولى التي عقبت الفتح ، لانهم كانوا قلة بالنسبة الى السكان ، ولانهم سكنوا المدن والمعسكرات ، ولم يختلطوا بالبربر الذين كانوا يسكنون الجبال والصحارى والمناطق الريفية بصورة عامة . ولكن هجرة قبائل بني هلال ، في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ، الى المغرب غيّرت اوضاع البربر القومية تغييراً اساسياً عميقاً . فقد انتشر بنو هلال في معظم البلاد ، وخالطوا سكانها من البربر ، وأصهروا اليهم . ولم يمضِ وقت طويل على هجرتهم حتى تعرب البربر الساكنون في المدن والسهول والهضاب بالتدريج فتركوا عاداتهم ، ونسوا لغتهم ، واصطنعوا اللغة العربية في حديثهم ، واصبحوا لا يختلفون عن العرب بصورة عامة . ولم يبق من البربر محافظاً على طابعه القومي ولغته الا سكان المناطق العصية من الجبال

والصحاري ومن انحاز اليهم من سكان الهضاب والسهول . وقد استطاع البربر ان يؤلفوا حكومات قوية اخضعت لحكمها جانباً كبيراً من المغرب واسبانيـا الاسلامية ردحاً من الزمن اشهرها دول المرابطين ، والموحدين ، وبني مرين . ولكن قبائل البربر ، بعد سقوط الدول الاسلامية وانحلال الحضارة العربية ، تفرقت ، وانفرط عقد وحدتها ، ونسيت كثيراً من تعاليم الدين الاسلامي ، بحيث لم يعد البربر يعرفون من الاسلام الا اولياته البسيطة . على ان رجالاً اتقياءمن المرابطين عملوا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، عـلى احياء الاسلام بين البربر ، وبعث العقائد الاسلامية القوية في نفوسهم .

يسكن اغلب الـبربر اليوم في مراكش ، في جبال الاطلس والريف خاصة حيث تبلغ نسبتهم ستين بالمائـة من عدد السكان . ويسكن قسم كبير منهم في جبال الجزائر وهضابها واهمها هضبة القبائل وهضبة اورس في جنوب شرق هضبة القبائل وتبلغ نسبتهم تسعة وعشرين بالمئة من عدد السكان. ويسكن قليل منهم في تونس، وفي جبل نفوسة في طرابلس، وحول واحة سيوة في الصحراء الليبية[٨] . اي

---

(٨) انظر كارلتـون كون ، القافلة ، نيويورك (١٩٥٢) ص ٣٧ . وقد ورد في كتاب « هذا العالم » تأليف محمد عبد المنعم الشرقاوي ومحمد محمود الصياد (القاهرة ، ١٩٥٠) ص ٢١٥ : « ما زال البربر متمسكين بلغتهم الاصلية يتكلم بها نحو نصف سكان شمال افريقية الفرنسي . » ويذكر الجنرال جيوم في مقاله الذي اشرنا اليه سابقاً عدد سكان مراكش على الوجه التالي : « البربر

ان كثافة البربر تزداد كلما اتجهنا غرباً من تونس الى مراكش، او انحدرنا من البحر المتوسط شمالاً الى الصحراء الكبرى جنوباً.

هؤلاء البربر الذين حافظوا على عنصرهم، ظلوا يتكلمون لغتهم الخاصة. واللغة البربرية لغة قديمة، ولكنها ما زالت بسيطة بدائية، جافية، وهي في الحقيقة ليست لغة واحدة، بل لهجات متعددة، بسيطة، لا قواعد لها، ولا اسس واضحة، وتختلف فيما بينها اختلافاً بيناً. وقد دخلتها الفاظ واوضاع من اللغة العربية. والادب المتداول فيها ادب بدائي، بسيط، معظمه قصص منقولة عن آداب الامم الاخرى، وهي غير مدونة يتناقلها الناس شفاهاً. وما زال البربر محافظين على عرفهم وعاداتهم التي تحدرت اليهم من عهود الوثنية وما انضاف اليها من التقاليد على مرور الزمن، يتبعونها في معاملاتهم، واحوالهم الشخصية، وبعضها مخالف لتعاليم الدين الاسلامي.

استغل الفرنسيون قضية البربر استغلالاً عظيماً، وخلقوا منها مشكلة كبرى أضافوها الى المشاكل العديدة التي اقاموها بوجه الحركة التحررية العربية في المغرب. فقد دأبوا على التفريق بين الشعبين الكبيرين اللذين يسكنان المغرب: العرب والبربر، وذلك

٣,٠٠٠,٠٠٠ نسمة مقسمون الى ٣٨٥ قبيلة، ويسكنون في الجبال وفي المناطق الجنوبية. العرب والمعربون من البربر ٣,٠٠٠,٠٠٠ نسمة مقسمون الى ٢٤٧ قبيلة يسكنون في المناطق الساحلية والهضاب. و ٦٠٠,٠٠٠ من سكان المدن وهم الحرفيون والبورجوازيون. و ٨٠٠,٠٠٠ عامل و ٢٠٠,٠٠٠ يهودي. و ٤٠٠,٠٠٠ اوروبي غالبيتهم فرنسيون.»

بافساح المجال للبعثات التبشيرية والثقافية تعمل بين البربر لتنصيرهم.

كما انهم ما فتئوا يوحون الى البربر بانهم شعب مستقل، بعيد عن العزاة العرب. واستغلوا النظريات القائلة بان البربر منحدرون من شعوب اوربية ليوحوا الى البربر بانهم اوربيون اصلاً، وان علاقتهم يجب ان تكون مع الاوربيين، وانهم يجب ان يحوّلوا انظارهم الى اوربا مهد آبائهم، والى فرنسا خاصة، ويقطعوا ما عسى ان تكون لهم من صلات بالشرق العربي، والشرق عامة. كما انهم عملوا على احياء عاداتهم، وتقاليدهم، وعرفهم، واعترفوا بها مصدراً للتشريع المدني، تقوية للنزعة الانفصالية عند البربر، وإحياء لتقاليدهم القومية، وإضعافاً للدين الاسلامي، وتوسيعاً للشقة بينهم وبين العرب المسلمين. وقد مر معنا ذكر الظهير البربري في الفصل الثامن.

وقد دعموا التنظيمات القبلية عند البربر، وساندوا شيوخ القبائل واستمالوهم، بحيث اصبح معظمهم حلفاء طبيعيين لهم، يوجهونهم وقتما يشاؤون لعرقلة اية حركة وطنية في البلاد. وفي قصة زحف الجلاوي باشا برجاله على مراكش، اثناء تأزم الحالة بين السلطان والفرنسيين في ٢٠ شباط ١٩٥١، توضيح لما نقول. ان هذا الانقسام بين العرب والبربر الذي يقويه الفرنسيون بكل ما لديهم من وسائل التفريق يضعف الحركة التحريرية، ويوجه حيوية الشعب الى غير الوجهة المطلوبة، ويضطر الحركة التحررية الى ان تؤكد على الطابع الديني. وهذا التأكيد على الطابع الديني، الذي هو دعامة الوحدة بين العرب والبربر الآن، مما يجعل الحركة القومية في المغرب تختلف عن الحركات القومية الخالصة في العالم العربي.

والى جانب هذه المشكلة، تقوم مشكلة المستوطنين الاجانب. ففي المغرب العربي حوالى المليونين من الاجانب، من الفرنسيين والاسبان، والطليان. وهم يسيطرون على الحياة السياسية، والاقتصادية، والتوجيه الثقافي كما تقدم معنا. ووجود هؤلاء المستوطنين او المعمرين الاجانب الذين لا ينتظر ان يذوبوا في جسم الشعب العربي ويتعربوا بحال من الاحوال، مما يزيد مشاكل الحركة التحررية في المغرب. فهؤلاء الاجانب، او اصحاب المصالح الثابتة منهم اذا اردنا الدقة، يحرصون على بقاء النفوذ الفرنسي، او الاسباني، وتقويته، لان في استقلال هذه البلاد إضعافاً لمركزهم، وحداً من مصالحهم، وتهديداً لكيانهم باسره. وهم يحرصون، بما يملكون من السيطرة على دفة الحكومة والاقتصاد، على توجيه هذه البلاد الى الذوبان في فرنسا واسبانيا، وإبعادها عن اي اتصال، او تقارب، بله الوحدة، مع العالم العربي. وهؤلاء المعمرون الاجانب هم الذين يملون على فرنسا، في الغالب، سياستها تجاه المغرب العربي.

ان قضية العرب الاولى هي قضية تحرر من النفوذ الاجنبي اياً كان شكل هذا النفوذ، والتخلص من كل الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المزرية التي اعاقت تقدم العرب وجعلت منهم شعوباً متأخرة، مفككة الاواصر. والتحرر والتقدم لا يتحققان الا اذا وحد السكان جهودهم، واجمعوا كلمتهم على التحرر والتقدم، عرباً كانوا ام غير عرب، مسلمين ام غير مسلمين. ولا يمكن للفرد ان يخلص للوطن، ويتعاون مع ابنائه الآخرين تعاوناً صادقاً،

الا اذا شعر بانـه محترم في هذا الوطن ، مصون الحقوق ، مساوٍ للآخرين .

ان منطق الحـوادث يملي على العرب الذين يجاهدون في سبيل حرية بلادهم وتقدمها ان لا يضطهدوا القوميات الاخرى التي تعيش بينهم في هذا العالم العربي منذ قديم الزمن . ومنطق الحوادث يملي على الحركات الوطنيـة العاملة في البلاد العربية ان تتفهم مطامـح الاقليات القومية وتعترف لها بحقوقها القومية الطبيعية ، وتعامـل ابناء الوطن جميعاً على قدم المساواة التامة ، اذا ارادت ان تحـل مشاكل العالم العربي المعقدة ، وتضمن تعاون السكان جميعاً ، واذا ارادت ان تبعد عن ابناء هذه الاقليات القومية الخوف من الذوبان في الاكثرية العربية .

١١. اختلاف الاهداف السياسية وتعددها

•

من عوامل ضعف القضية العربية ، ومن عوامل التباعد بين العرب اختلاف المشتغلين في القضايا السياسية عامة، والقومية خاصة، في أهدافهم البعيدة والقريبة ، واختلاف اساليبهم في تحقيق القضايا الوطنية والقومية . وتعدد الاهداف السياسية واختلافها امر طبيعي بحكم انقسام العالم العربي الى اقطار عديدة لكل قطر منها مشاكله الخاصة وظروفه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية الخاصة . وبحكم اختلاف المصالح الشخصية للقائمين على الحركات السياسية في البلاد العربية، واختلاف مصالحهم العائلية والطبقية. وبحكم النفوذ الاجنبي، او التحكم المحلي ، الذي يتيح الفرصة لبعض الآراء والاتجاهات السياسية ان تنتشر وتزدهر وتسيطر على الرأي العام وتوجهه ، ويقاوم الاتجاهات السياسية الاخرى ويضطهد القائمين بها والمنضوين تحت رايتها . يضاف إلى ما تقدم ، أو يجب ان يسبق ما تقدم إذا شئت ، ان المفهوم القومي مفهوم حديث النشوء ، لم تتوضح اهدافه وضوحاً كافياً للكثيرين من المشتغلين في القضية العربية. ثم ان اختلاف ثقافات المشتغلين في القضية العربية ، واختلاف بيئاتهم الاجتماعية والدينية والاقليمية يؤدي حتماً إلى اختلاف فهمهم

للاهداف القومية العربية ، ومن ثم يؤدي إلى اختلاف اساليبهم في الوصول إلى هذه الاهداف. وقد اتخذت هذه الخلافات في الأهداف الوطنية والقومية مظاهر شتى ، وبدت في صور متعددة ، سنجمل اهمها في الفصول التالية :

١ — الاقليمية

الاقليميـــة هي شعور سكان كل قطر عربي بان القطر الذي يسكنونه هو وطنهم الوحيد، الذي يجب ان يعتزوا به، ويحافظوا على استقلاله وسلامته . وان سكان البلاد العربية الأخرى ، وان كانوا عرباً مثلهم ، بعيدون عنهم ، لا ضرورة للاتحاد معهم ، او الأصح ان نقول ان هـذه الفكرة لم تجلب انتباههم ، ولم تصبح موضوعاً اساسياً لتفكيرهم . وسنبين في هذا الفصل طبيعة هـذه النزعة ، والعوامل التي كونتها ، ومدى تأثيرها في القضية العربية .

العالم العربي ينقسم الآن الى أقاليم ، او مناطق ، او أقطار ، او دول ، او سمها ما شئت ، متعددة . هذه الأقاليم ، وان كانت مطبوعة بالطابع العربي العام ، تختلف فيما بينها اختلافاً يسيراً في الأقاليم المتجاورة، واختلافاً ظاهراً في الأقاليم المنفصلة، المتباعدة . وهذا الاختلاف بين الأقطار العربية هو الذي يعطي لكل قطر عربي طابعه الخاص ، المميز له ، الى جانب طابعه العربي العام . وهـذا الاختلاف بين الأقاليم العربية ليس اختلافاً عرضيـــاً ، ولدته الظروف الطارئة ، وانما هو من خلق عوامل عديدة ، بعيدة الغور في التاريخ .

فقد قسمت العوامل الجغرافية ، التي تكلمنا عنها في الفصل الثاني ، العالم العربي الى اقاليم تفصل بينها صحارى وبوادٍ رملية مترامية الاطراف ، او جبال شاهقة القمم عصية المسالك والدروب كبادية الشام التي تفصل بين العراق وسورية ، والصحراء التي تفصل بين مصر وليبيا ، وصحراء جزيرة العرب التي تفصل بين سواحلها الشرقية والغربية ، وكجبال لبنان التي تفصل بين سورية الداخلية وبين البلاد الساحلية ، مثلاً . وقد قوى تأخرُ وسائل المواصلات في الماضي تأثيرَ هذا العامل الجغرافي . وكانت نتيجة ذلك ان اصبح كل اقليم ذا طابع خاص ، بحكم تعرضه لظروف معينة ، وخضوعه لعوامل معينة ، لم تكن في سواه . وما نقوله هنا عن تأثير العامل الجغرافي في انقسام العالم العربي الى مناطق كبيرة يصح على انقسام كل اقليم الى مناطق صغيرة ، لكل منطقة ميزاتها الخاصة وطابعها الخاص .. على ان الاختلافات بين المناطق الصغيرة في كل اقليم اخذت تزول بفضل ادخال طرق المواصلات الحديثة ، وقيام الحكومات الحديثة المركزية ، وارتباط الحياة الاقتصادية ، وانتشار التعليم الموحد ، وما الى ذلك ، بسرعة تفوق تلك السرعة التي تزول فيها الفروق القائمة بين كل قطر وآخر من الاقطار العربية.

يضاف الى هذا العامل الجغرافي ان هذه الاقاليم العربية المتعددة كانت تسكنها قبل الفتح العربي شعوب متعددة ، لكل منها لغتها ولهجاتها الخاصة ، وآدابها ، ودياناتها ، وخرافاتها الخاصة ، وعاداتها وتقاليدها الاجتماعية الخاصة ، وتكوينها العنصري الخاص . وعندما امتزجت هذه الشعوب بالعرب الفاتحين ، وتعربت ، لم تفقد خصائصها

العنصرية ، وتكوينها العقلي والنفسي والاجتماعي كلياً . فالحقيقة ان العرب اعطوا كل شعب امتزجوا به وعرّبوه طابعهم العام، ولكنه اعطاهم بدوره شيئاً من خصائصه ، يبدو ضعيفاً في حالات ، قوياً واضحاً في حالات اخرى . يظهر هذا فيما يبدو بين ابناء الاقطار العربية من فروق في سحنة الوجوه ، وهيئة الكلام ، او اختلاف اللهجات العامية ، وفيما يتميزون به من العادات الاجتماعية ، والرواسب الفكرية . فاللهجات العامية تختلف بين قطر عربي وآخر لاسباب عديدة منها ان القبائل التي سكنت هذه الاقطار لم تكن تتكلم لهجة واحدة. وان لغة الكلام العربية تأثرت باللهجات العامية للشعوب الساكنة في تلك البلاد سابقاً . فاللهجة السورية قد تأثرت باللغة الآرامية ولهجاتها المتعددة، التي كانت محكية في سورية قبل مجيء العرب، من حيث تركيب الكلمة، واشتقاقها، وتصريفها، ونطقها، وتركيب الجمل، وخاصة من حيث المفردات، تأثراً واضحاً، كما تأثرت اللهجة المغربية باللهجات البربرية المحكية في المغرب الاقصى، مثلاً . ثم ان العرب لم يستقروا باعداد متساوية في كل اقليم . فحيثما حلوا باعداد كبيرة نجد الطابع العربي أكثر بروزاً ، وأعظم وضوحاً . ثم ان كل قطر عربي متأثر بالأقطار التي تجاوره ، وبالدول التي حكمته بعد سقوط الدول العربية . فقد تأثر العراق مثلا بالأتراك والايرانيين أكثر من سواه لمجاورتهما له من جهة ، ولأن الايرانيين ، والأتراك خاصة حكموه أزماناً طويلة بعد سقوط الدولة المغولية . بينما لم يتأثر عرب المغرب بالأتراك إلا قليلا ، على حين تأثروا بالاسبان والبرتغال ، الذين حكموا قسماً

من هذه البلاد في فترات مختلفة بعد جلاء العرب عن الأندلس ، والذين كانت تربطهم بالمغرب علاقات تجارية واسعة ، وعن طريق تأثرهم بالعرب النازحين عن الأندلس الذين كانوا يحملون المؤثرات الاسبانية والبرتغالية . كما تأثر عرب المغرب بالشعوب الفرنسية والاسبانية والايطالية التي تدفقت على بلادهم مهاجرةً ، وغازيةً ، ومتاجرةً ، منذ أواخر القرن الثامن عشر .

وقد اثر الدين – بشعائره ، وتقاليده ، ومراكز عبادته – في بعض الأقاليم ، وطبعها بطابع خاص مميز . فالمسيحي الذي ولد وعاش طفولته وصباه وشيخوخته في قضاء كسروان من جبل لبنان مثلاً ، واختزن في روحه كل مؤثرات هذا الجو المسيحي الماروني – حيث تطالعه الكنائس والهياكل وايقونات المسيح والعذراء والقديسين أنّى ألقى نظره ، وتوجه خطاه في الحياة مواعظ القسس والرهبان وهذه التقاليد المسيحية المارونية التي تجمعت على مر الدهور في كسروان ، وترنّ في أذنيه اصوات النواقيس عندما ينبثق الفجر الطري المورّد ليوقظ القرى الجميلة الغافية في سفوح الجبال ومنحدرات الأودية وعندما تنساب العشية من بطون الأودية هادئة كئيبة لتلف الجبال بردائها الأسود ، وتنساب في نفسه حنيناً رقيقاً ورعا ، يوقظ فيها الذكريات البعيدة العذاب ، والورع المطمئن ، لا بد له أن يشعر بشيء من الغربة والتفاوت إذا ما انتقل إلى جو مكة أو النجف أو كربلاء بمآذنها الشامخة الوقور ، وبساطتها الصحراوية ، وسكانها المعممين ، وطابعها الاسلامي الصريح .

هذه العوامل وسواها من اختلاف طرق المعيشة ، واختلاف مستوى المعيشة والثقافة بين الاقطار العربية ، اعطت كل قطر طابعه الاقليمي الخاص ، الى جانب طابعه العربي العام ، وجعلت سكان كل قطر يشعرون بانهم وحدة ، وانهم اقرب الى بعضهم بعضاً منهم الى سكان الاقطار العربية الاخرى . وقد قوت هذه العوامل الاجتماعية والجغرافية عوامل سياسية مختلفة عملت ، وما زالت تعمل ، على تأكيدها . فقد كان العالم العربي منقسماً الى ولايات ، ومناطق ادارية ، تكاد تشبه هذه التقسيمات القائمة اليوم ، زمن الخلافة الاموية ، وحينما كانت الخلافة العباسية قوية عند نشوئها . وما ان ضعفت الدولة العباسية بعد قرن من تأسيسها حتى قامت في معظم الاقطار العربية دول مستقلة ، لا تربطها بالدولة المركزية رابطة ما ، اللهم الا التنويه بالخضوع للخليفة اسمياً . وفي بعض الاحيان كانت هذه الاقطار لا تعترف حتى بسلطان الخليفة. والحقيقة ان البلاد العربية لم تعرف الوحدة السياسية التامة الا في اوقات قصيرة لا تتعدى اواخر القرن الثاني الهجري. وحتى في تلك الاوقات كانت الوحدة ضعيفة اقرب ما تكون الى اللامركزية . وقد تركت كل دولة من هذه الدويلات طابعها الخاص في الاقليم الذي قامت فيه ، وخلفت فيه آثارها العمرانية والحضارية ، وذكريات حروبها ، مما ترك اثراً بارزاً في التاريخ الخاص لذلك الاقليم .

وكانت الانقسامات التي حلت بالعالم العربي منذ سقوط الخلافة العباسية ، وخاصة منذ الاحتلال العثماني ، اكثر اهمية ، واعظم

اثراً في الروح الاقليمية مــن كل انقسام سابق . دخل العراق وسورية (الطبيعيــة) في سلطان العثمانيين منذ منتصف القرن السادس عشر ، وبقيتا خاضعتين لهذا السلطان حتى اواخر الحرب العالمية الاولى ، ما عدا لبنان فقد كان يتمتع منذ منتصف القرن التاسع عشر ، بشيء من الاستقلال الذاتي والادارة المحلية . ومن قبل ذلك كان يحكمه امراء مستقلون عملياً عن الدولة العثمانيــة اشهرهم المعنيون والشهابيون. اما مصر فقد دخلت في حكم العثمانيين اسميــاً في التاريخ نفسه ولكنها كانت ، عملياً ، محكومة من قبل دول المماليك المختلفة ، وقد تأكد انفصالها عملياً عن السلطنة العثمانية في مطلع القرن التاسع عشر اي باعتلاء محمد علي باشا دست الحكم فيها. اما الجزيرة العربية فلم تخضع للسلطان العثماني الا اسمياً ،وفي مناطق محدودة فقط اي تلك القريبة من العراق وسورية . وكانت مستقلة عملياً ، خاضعة لأسر حاكمة عديدة من الشيوخ والامراء والائمة . اما مراكش فقد حكمتها الاسرة العلوية منذ مطلــع القرن العاشر الميلادي حتى الاحتلال الفرنسي والاسباني في مطلع القرن العشرين ، ومــا زالت هذه الاسرة تحكم مراكش شرعياً ، وان فقدت كل سلطان حقيقي . اما ليبيا وتونس والجزائر فكانت خاضعة للسلطان العثماني اسمياً، بينما كانت منفصلة عنه فعلياً،تحكمها اسر متعــددة : الدايات في الجزائر ، والبايات في تونس ، واسرة القرمنلي في الجزء الساحلي من ليبيا .

وجـاء الاستعمار الغربي فثبت هذه الاوضاع القائمة ، بل وزاد البلاد العربية انقساماً بان خلق اقطاراً جديدة لم تكن قائمة من قبل.

فقد عملت فرنسا واسبانيا ، ثم ايطاليا ، على توسيخ حكمها في الشمال الافريقي ، وعزلت اقطارها عزلاً تاماً عن بعضها ،وحالت بينها وبين الاتصال بالجناح الشرقي من العالم العربي بكل وسيلة . وقسمت البلاد ، التي كانت موحدة ولو شكلياً تحت الحكم العثماني ، الى ممالك وامارات ومناطق انتداب ، لكل منها كيانها القائم ، وحدودها المصطنعة ، ودولها الحاكمة . ولعل هذه الانقسامات السياسية التي حدثت منذ القرن التاسع عشر حتى تحقيق اتفاقية سايكس - بيكو كانت اخطر العوامل التي قوت الاقليمية ورسخت اسسها . فقد انفصل كل قطر عربي سياسياً عن الاقطار العربية الاخرى ، واتخذت فيه الحياة الاقتصادية والثقافية وجهة مختلفة من الاقطار الاخرى. ونشأت في كل قطر من هذه الاقطار المستحدثة طبقات حاكمة يهمها الاحتفاظ بالاقليمية ، والاستقلال عن بقية الاقطار العربية ، محافظة على زعامتها، ونفوذها، وسلطانها على البلاد . فعملت واعية وغير واعية ، على خلق الوعي الاقليمي بين الشعب . يدعم هذا الاتجاه ويزيده رسوخاً جميع العناصر التي يهم مصالحها ان تبقى البلاد العربية مفككة ، مجزأة ، والعناصر التي ترى ، عن اخلاص ، في الواقع الاقليمي الواقع الراهن الذي يؤكده التاريخ ، ويبرهن عليه طابع الاقليم وسكانه ، وواقع الحال .

لماذا اكدنا على هذه الانقسامات السياسية التي حدثت منذ القرن التاسع عشر ؟ ما بال هذه الانقسامات التي كانت قائمة في العالم العربي منذ نهاية القرن الثاني الهجري حتى ذلك التاريخ ؟ ألم

تكن مثل هذه الانقسامات في التأثير والاهمية ؟ لقد اكدنا على الانقسامات الحديثة لان مفهوم الدولة الحديث اخذ يتغلغل في البلاد العربية منذ القرن التاسع عشر . اما قبل ذلك فكان الشعور الديني الاسلامي هو السائد . كان الدين هو الوطن . وكان شعور الفرد القومي أو الوطني منحصراً في مدينته ، او قبيلته ، او عشيرته . فما كانت فكرة الامة ، والشعور القومي ، والمواطنة ، أو شعور الفرد بانه فرد من وطن كبير ، قد دخلت في وعي الفرد العربي . وما كان هذا الفرد ليحس تغيراً كبيراً إذا ما حكمته هذه الدولة الاسلامية او تلك ، او إذا زيدت رقعة بلاده او تقلصت . اما الآن ، فان هذه الدول العربية الحديثة ، بما ادخلت من نظم ، واصلاحات في المواصلات والاقتصاد والثقافة ، خلقت في البلاد ما يكاد يكون وحدة اقتصادية وثقافية الى جانب كونها وحدة سياسية . واخذ الفرد ينشأ على الشعور بان هذا الوطن وطنه ، وهذه الدولة دولته ، وهذه الامة امته . وكل شيء يوحي اليه بهذا الشعور : حكومته القائمة ، وحدود بلاده المعينة التي يتحتم عليه ان يحمل جواز سفر خاص ليجتازها ، والمدرسة التي يتعلم فيها ، والجريدة التي يقرأها ، بحيث اصبح التفكير في القضية العربية ككل ، وبالوحدة العربية ، او بان العرب امة واحدة تستطيع ، او يجب ان تكون ، دولة واحدة او متحدة ، يتطلب تربية خاصة ، وثقافة قومية معينة . لو لم يخلق الانكليز امارة شرق الاردن مثلاً ، ولو لم تلعب السياسة الدولية دورها في اقتطاع شرق الاردن من سورية ، لما شعر سكان شرق الاردن

الحاليون بانهم اردنيون ولتعودوا ان يشعروا بانهم سوريون .

وهكذا اصبحت الاقليمية حقيقة ، واقعة ، واضحة في وعي الفرد العربي ، او المشتغلين منهم في القضايا السياسية على الاقل . يزيد هذا الوعي الاقليمي قوة وتماسكاً ووضوحاً هذه الدعوات التي تنتشر في كل قطر للاعتراف بواقع الاقليمية ، والدفاع عنها . وسنتكلم في فصل قادم عن بعض الحركات المناهضة للحركة العربية الداعية الى التمسك بالاقليمية ، واقامتها على اسس تاريخية تتخطى التاريخ العربي الى تاريخ الشعوب التي كانت تسكنها قبل مجيء العرب . ونكتفي هنا بالاشارة الى قيام حركات واسعة النطاق ، تقوى حيناً وتضعف حيناً ، الى استبدال اللغة العامية الاقليمية باللغة الفصحى ، لان اللغة العامية ، بنظر مروجي هذه الدعوة ، اقرب الى طبيعة الشعب ، وادل على روحه ومقوماته القومية ، ولانها اساس في التعبير عن الفكر ، واجدر ان توصل الفكرة الى ذهن القارىء طبيعية ، سليمة ، حارة ، كما دارت بفكر منشئها ، وانطلقت في احساسه ، دون ان تبردها اللغة الفصحى التي يحتاج الكاتب بها الى إعمال الفكر ، واصطناع الروية ، عند استعمالها . تطالعك هذه الحركات في مصر ، ولبنان ، والجزائر ، مثلاً . ولكنها حركات محدودة النطاق خافتة الصوت الآن ، ان لم نقل في طريق الموت ، لم تلقَ صدى ايجابياً من الرأي العام ، ولم تستطع ان توقف تيار اللغة الفصحى ، وان اثارت في الماضي القريب وفي العقد الرابع من هذا القرن خاصة ، حرباً كلامية شعواء بين دعاتها ودعاة الفصحى ، وايقظت عنعنات اقليمية وشعوراً محلياً

ضيقاً . والجدير في قضية الدعوة للغة العامية، ان دعاتها والمروجين لها كانوا يدافعون عنها ، ويحثون الناس على استخدامها في الكتابة، بلغة فصيحة مبينة .

ما هو موقف الحركات القومية والوطنية من الاقليميـة ؟ ان الحركة الوطنية العربية بصورة عامة ، والقومية بصورة خاصـة ، متأخرة النشأة . لم تبدأ الا بعـد احتكاك الشرق العربي بالغرب الفاتح . وعندما وعت هذه الحركات ذاتها وجدت ان الاقليميـة امر قائم بالفعل ، وعلى هـذا فقد اتخذت هذه الحركات شكل الحركات الاقليمية بطبيعة الحال . فقد كان عليها ان تواجه مشاكل الاقليمية المحلية المتعددة : من كفاح ضد الدول المحتلة ، ومناهضة للحكومات القائمة ، ومطالبة بالاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والدستورية وما اليها . وقد انصرفت معظم هذه الحركات عن القضية العربيـة الكبرى بفضل العوامل المتقدمة ، وبفضل فقدان الاتصال المباشر بين الاقطار العربية الذي فرضـه الاستعمار والحكومات المحلية. واصبح همّ الحركات السياسية في كل قطر هو انتزاع استقلال ذلك القطر ، وصيانة حدوده ، وتوطيد سلامته ، واصلاح احواله . وكان سلاح هذه الحركات الاقوى هو بثّ الوعي القومي والمحلي ، في نفوس الشعب، وتذكيره بامجاده القومية والحديثة ، واستثارة حميته الوطنية بمختلف الطرق . والشعب اسرع للاستجابة الى حل مشاكله الآنية المباشرة الملحة ، منه الى الاستجابة الى امانٍ بعيدة التحقيق ، بعيدة عن فهمه .

لقد نشأت الحركة الوطنية في مصر قبل البلاد العربية الاخرى،

ومنفصلة عن البلاد العربية الاخرى ، منذ ان اصبح لمصر كيان سياسي محدد في عهد محمد علي باشا ، وقد شغلت مصر باحداثها الداخلية ، واهمها مشكلة الاحتلال البريطاني وعلاقتها بالسودان ، وانصرفت لها انصرافاً كلياً . والحقيقة ان اتجاه الحركة القومية في مصر كان ، وما زال ، اتجاهاً مصرياً اسلامياً الى حد بعيد . وان مصر لم تخرج من عزلتها وتتبنى قضية العروبة بشكل واضح فعال الا منذ العقد الرابع من هذا القرن . وحتى هذا الوقت الحاضر ما زال الطابع الاسلامي ، والطابع المصري ، اغلب على الحركة القومية في مصر . وقل مثل هذا عن الحركات الوطنية في الشمال الافريقي فهي حركات تتميز بكفاحها للاستعمار ، وطابعها الاسلامي ، واقليميتها الواضحة .

والحقيقة ان الحركة الوطنية العربية لم تتخذ شكل حركة عربية عامة الا في بلاد معينة ، وفي فترة محدودة من الزمن ، نعني في العراق والاقطار الشامية . وذلك ان الحركة الوطنية نشأت في هذه البلاد ، واتخذت شكلاً واضحاً ، في مطلع القرن العشرين عندما كانت هذه البلاد خاضعة للسلطنة العثمانية ، وفي غمرات الكفاح الوطني ضد هذه السلطنة ، وعندما كان الفرد من سكانها يعرف بعربي اكثر مما كان يعرف بسوري او فلسطيني او عراقي . او على الاصح انه كان يعرف ببغدادي أو موصلي ، أو حلبي ، أو بيروتي ، اكثر مما كان يعرف بعربي أو سوري وما الى ذلك . ولكن ما ان انقسمت هذه البلاد الى اقطار عديدة حتى انصرف المشتغلون بالقضية العربية الى معالجة شؤون اقطارهم المحلية ، وشغل المخلصين

منهم النضالُ ضد الاحتلال عن القضية العربية الكبرى فلم يعيروها إلا جهوداً عابرة . ومهما يكن من شيء فقد بقي الشعور العربي قوياً في هذه الاقطار ، وظلت فكرة الوحدة العربية ، والتضامن العربي ، في العراق والاقطار الشامية اقوى مما هي عليه في الاقطار العربية الاخرى .

ان الحركة القومية التي ابتدأت قوية في البلاد ، تناولها الضعف فترة من الزمن ، لتشتد منذ الحرب العالمية الثانية ، ولكن لتصطدم هذه المرة بالروح الاقليمية وقد تبلورت ، وتقوت ، واصبحت أكثر رسوخاً في الوعي الشعبي ، وتحولت ، في بعض المناطق ، الى « شوفينية » اقليمية قوية .

عرضنا في هذا القسم العوامل التي تثبت فكرة الاقليمية في وعي الفرد العربي . وكنا عرضنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب العوامل التي تهيء الفرد العربي لتخطي الشعور الاقليمي ، وتبني فكرة الوطن العربي الكبير . هذه العوامل جميعاً ، سواء منها ما يعمل على توسيع آفاق الفرد العربي القومية او ما يعمل على جعل آفاقه القومية لا تمتد الى أبعد من حدود الوطن الصغير الذي يعيش فيه ، تعمل في آن واحد ، وتتزاحم على الغلبة على ضمير الفرد العربي ووعيه . على انه مهما كانت عوامل الاقليمية قوية ، فان عوامل التقريب بين العرب لا تقل عنها قوة إن لم تفقها . ومهما كان الطابع الاقليمي ظاهراً فان الطابع العربي العام أبعد غوراً ، وأرسخ جذوراً ، وأشد وضوحاً . والحقيقة ان العوامل التي تعمل على تقريب البلاد العربية قد تركت آثارها

الواضحة في الحركات القومية ، وأخذت توجهها أكثر فأكثر الى الناحية العربية العامة . نذكر منها ازدياد الاتصال الثقافي والقومي والاقتصادي بين البلاد العربيـة ، وتعاظم الوعي الوطني والنهضة التحررية ، وتكتل الدول الاستعمارية ضد البلاد العربية مما يدعو هذه البلاد ، او شعوبها على الأقل ، الى الشعور بوحدة مصيرها ، ويدفعها للتقارب والتكتل والاتحاد دفاعاً عن نفسها ومقومات وجودها . لقد فشلت جامعة الدول العربية في معالجة كثير من القضايا العربية الهامة ، وبان ضعفها وركاكتها أمام كثير من المشاكل القومية ، ولكنها خدمت الفكرة العربية بان وضعت هذه الفكرة بصورة عملية أمام الشعوب العربية ، وبان أدخلت في وعي العرب ، المهتمين بالقضايا العربية وغير المهتمين ، ان قضايا البلاد العربية وحدة متماسكة لا تحل إلا بالجهود المشتركة ، والتعاون التام ، والكلمة الموحدة .

٢ — الشعوبية الجديدة

قام الموتورون من الفرس بالحركة الشعوبية في أوائل العصر العباسي ليحاربوا بها العرب الحاكمين : بالتوهين من شأنهم ، وتحقير تاريخهم ، والحط من تراثهم الفكري ، وإنكار مشاركتهم الفعالة في الحضارة الاسلامية الناهضة . والغرض الأساسي من ذلك إضعاف الاسلام ، الذي أزال دولتهم وهدم عزتهم القومية ، عن طريق إضعاف العرب : قوام الاسلام ومادته حينذاك . وقد أسمينا الحركات الجديدة ، التي سنتناولها فيما يلي ، بالشعوبية الجديدة لأنها

في جوهرها لا تخرج عن كونها رد فعل ، واعياً او غير واع ، على اليقظة الاسلامية ، والتخوف من بعث إسلامي جديد ، وعلى الحركات القومية ، التي يراها دعاة هذه الحركات الشعوبية ، مرادفة للاسلام ، او قناعاً يتخفى تحته الاسلام . ولم تأت هذه اليقظة الاسلامية عفواً ، ولم تخلُ من نتائج عميقة الآثار في تفكير عامة المثقفين العرب ، مسلمين وغير مسلمين . جاءت هذه اليقظة الاسلامية نتيجة لتحدي الدول الغربية للعرب المسلمين ، واقتحامها بلادهم تستعمرها اقتصادياً وسياسياً ، وتغزوها ثقافياً . واتخذ رد الفعل على هذه اليقظة الاسلامية ، وعلى العوامل التي هيأتها ، مظاهر شتى . فقد اتجه المثقفون بالثقافة الحديثة من العرب ، وبينهم عدد كبير من المسيحيين وخاصة مسيحيي لبنان ، اتجاهاً قومياً عربياً . فعملوا على إحياء التراث الفكري العربي ، ونشر اللغة العربية وآدابها ، وأهابوا بالعرب أن يعوا ذواتهم ، وينهضوا بأنفسهم ، ويسترجعوا مجد أمتهم السليب ، ويصونوها من الأتراك المتسلطين ، والغربيين المستعمرين . وقد اتجهت هذه الفئة من المفكرين العرب اتجاهاً علمانياً صريحاً حيناً ، ممتزجاً بالدين في أغلب الأحيان . والحق ان كثيراً من حملة راية القومية العربية وباعثي التراث العربي القديم في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، كانوا من المفكرين المسيحيين : اللبنانيين والسوريين .

على ان هذا الاتجاه القومي العربي لم يطمئن قلوب فئات من المثقفين العرب ، وخاصة المسيحيين ، لأنهم لم يثقوا بالقومية العربية ، ولم يأمنوا ان تسلك طريقاً علمانية صريحة . وكانوا يشكون في

مقدرة القومية العربية على الاستقلال عن الدين ، ويرونها ستاراً رقيقاً يختفي تحته الدين الاسلامي الذي يخافون انبعاثه ، إما لعصبية دينية، او لمخاوف تاريخية أصيلة او مصطنعة او متوهمة ، اولاعتقاد مخلص بان الدين انقضى دوره ولم يعد يصلح أساساً لكيان قومي تقدمي مكين في هذا العصر الحديث . وقد اتخذت حركات هذه الفئات من المثقفين مظاهر شتى فكرية وسياسية ، أهمها الفرعونية في مصر ، والفينيقية ، والقول بثقافة البحر المتوسط ، والقومية الاجتماعية السورية في لبنان . وقد عمل الاستعمار الغربي على تقويتها ، وتغذيتها مباشرة وغير مباشرة، بواسطة مدارسه المنتشرة في البلاد العربية ، وخاصة في لبنان ، وبواسطة جرائده ، وبعض المستشرقين والمفكرين الغربيين .

(أ) الفرعونية

في الوقت الذي انبعثت فيه اليقظة الاسلامية قوية نشيطة في مصر ، وفي الوقت الذي أخذت فيه الفكرة القومية العربية تتغلغل فيها، يذيعها وينشرها الصحفيون والمفكرون السوريون واللبنانيون، وفي الوقت الذي أخذ فيه الاستعمار الانكليزي يثبت أقدامه فيها ويمكّن لبقائه بالفكر والسوط وتفريق كلمة الامة ، أخذ علماء الآثار يكشفون عن آثار مصر الخالدة، ويؤلفون الكتب وينشرون المقالات عن عظمة الحضارة المصرية ، أمّ حضارات الدنيا . وكان لا بد لهذه الاكتشافات الأثرية في الحضارة المصرية الفرعونية أن تترك آثارها العميقة في نفوس الشبان المصريين ، وتلهب إحساسهم الوطني،وتحرك غرورهم القومي.وقدسلك الاعجاب بحضارةالفراعنة

سبلاً شتى ، تتراوح بين الهوس الجامح والتفكير الواقعي الرصين .

اخذ الاعجاب بحضارة الفراعين ، الذي تبلور فيما بعد بالحركة الفرعونية، طابعاً قوياً عند بعض المصريين المثقفين بالثقافة الحديثة، والاقباط منهم خاصة، وعلى الاخص منذ مقتل بطرس غالي باشا . ومما ساعد على نشر هذه الفكرة بين اوساط المثقفين المصريين ، ان معظم المثقفين ثقافة عصرية من المسلمين المصريين كانوا في ذلك الحين من ابناء الاسر التركية المستوطنة في مصر ، الذين يستصغرون العرب ويكرهون الدعوة العربية المنطلقة حديثاً لما فيها من خطر على الدولة التركية التي يريد العرب التخلص من حكمها . وكان دعاة الفرعونية ينادون بان مصر فرعونية اصلاً ، وان الشعب المصري ما زال محتفظاً بآثار اجداده الفراعين في هيئة الجسم ، وسحنة الوجه ، والتكوين العقلي والنفسي ، والاتجاهات العاطفية ، والعادات الاجتماعية . وان اثر العرب في المصريين اثر سطحي اذا ما قورن بعمق الاثر الفرعوني . ونادى اولئك المثقفون بضرورة إحياء الآثار الفرعونية ، وبعث الادب المصري القديم ، واقامة الادب المصري الحديث على اسسه ، وتمجيد مصر الفرعونية، والفراعين العظام ، والآلهة الخالدين، والتبرؤ من العرب والحضارة العربية ، والقول بان لمصر كياناً انسانياً وحضارياً وثقافياً خاصاً وانها لا تمت الى بقية الاقطار العربية الا بصلات واهية واهمها الدين، والدين في سبيل الانهزام من الحياة الاجتماعية في هذا العصر الحديث، واللغة التي لا تجعل وحدها من المتكلمين بها امة واحدة. وقد اثارت هذه الحركة ضجة عالية، وحرباً فكرية طاحنة، لم تخمد

نارها الا في العقد الخامس من هذا القرن ، على قلة القائلين بها من المثقفين المصريين ، لنفوذ اصحابها في الاوساط الادبية والفكرية المصرية ، ولرد الفعل الذي احدثته في الاوساط الاسلامية والعربية داخل مصر وخارجها، بحيث جاءت فترة من الزمن كان القوميون العرب ، والمشتغلون في القضايا العربية عامة ، ينظرون فيها الى مصر نظرة شك وريبة من الناحية القومية العربية .

وكان الاستعمار البريطاني يغذي هذه الحركة ويشجعها ، ويمهد لها بالعون الأدبي وسواه ، ليضعف قوى الوطنيين ويبعثرها ، ويحولها الى غير اتجاهها ، وليشق جبهة الشعب المصري الناهض ضده ، ويلهيه عن ذات نفسه ، وليعزل مصر عن العالمين الاسلامي والعربي. على ان هذه الحركة الفرعونية المغالية ما لبثت ان ضعفت ، وخفتت أصوات المنادين بها ، وأوشكت ان تموت منذ أوائل العقد الخامس من هذا القرن ، نتيجة لضعف أسسها الفكرية والتاريخية ، وقوة الحركة الوطنية ، وتعاظم الوعي العربي في مصر ، وقوة الانبعاث الاسلامي فيها الذي لا يمكن ان ينفصل في أذهان السواد الأعظم من المصريين عن العرب ، وتقرّب مصر من الأقطار العربية . كفكف كثير من دعاتها من غلوائهم ، وتحول بعضهم عن أفكارهم المغالية واتجهوا اتجاهاً عربياً ، أو إسلامياً ، أو مصرياً معتدلاً ، كما انهمك بعضهم في الحركات السياسية والقضايا الاقتصادية والاجتماعية الحديثة .

اما الاعجاب الهادىء الرصين بمصر الفرعونية فقد رسخ في الحياة الفكرية ، واصبح جزءاً من الحياة المصرية المعاصرة . فقد

استغل الزعماء السياسيون، والكتاب والشعراء عظمة مصر الفرعونية ليستثيروا همم الشعب المصري الذي خدرته اجيال متطاولة حافلة بالذل والجهل والفقر والعبودية، ويوحوا اليه الثقة بنفسه، والاعتزاز بكرامته القومية، واتخذوا من عظمة الحضارة الفرعونية حجة دامغة يردون بها تجني الانكليز على المصريين الاحياء، ووصمهم بالتخلف عن ركب الانسانية، والتأخر الحضاري. وتلمس اهتمام المصريين بمصر الفرعونية في هذه المؤلفات العديدة التي تبحث عن مصر والمصريين القدماء، والتي تدرس للطلاب، وتنشر لعامة المثقفين. وفي هذه المتاحف التي أقامتها الحكومة المصرية للآثار القديمة، وفي هذه التسهيلات التي اعدتها لمشاهدة الآثار الفرعونية في مواضعها الاصلية كالاقصر والاهرام وسواها. وفي هذه الاتجاهات التي يحاولها قسم من الفنانين الشباب لاحياء طريقة الفن الفرعوني، وتقليدها، واصطناع اساليبها وروحها. وفي اقبال الامراء والموسرين على زخرفة قصورهم بلوحات فنية تصور مختلف مظاهر الحياة الفرعونية باسلوب فرعوني صميم، وتأثيثها بطراز الاثاث الفرعوني القديم.

الحق أن في مصر اليوم الى جانب الاتجاه الاسلامي القوي الصريح، والاتجاه القومي العربي المتعاظم باطراد، اتجاهاً قوياً نحو الاعتزاز بالتراث الفرعوني، واعتباره عنصراً حياً من العناصر التي خلقت الشعب المصري وكيّفت العقلية المصرية. وهذا الاتجاه الاخير الذي يغرس في أذهان الشعب باستمرار واصرار، من العوامل التي تعطي مصر طابعا خاصا، بالاضافة إلى طابعها العربي

العام ، ومن العوامل التي تقوي الاتجاه إلى القومية المصرية البحتة ، التي تقر بصلتها بالعرب وتعتز بالعروبة ولكنها تعتبر نفسها ذات كيان خاص مستقل على كل حال . لقد اتخذت مصر رمزاً لنهضتها الحديثة فلاحة مصرية توقظ أبا الهول من سباته الحالم ، وأبو الهول عنوان مصر القديمة ، ورمز روحها العميقة الغامضة . وقد أصدرت حكومة الانقلاب في مصر، حديثاً ، أوراقاً نقدية على جانب منها رسم احد الفراعين العظام ، وعلى الجانب الآخر مسجد تحفه زهرة اللوتس المقدسة عند قدماء المصريين. كما اصدرت مجموعة من طوابع البريد العادية يحمل أولها صورة أبي الهول ، ويحمل الثاني صورة نفرتيتي ، وعلى الثالث صورة توت عنخ امون . وهذا علي ماهر ، رئيس الاتحاد العربي في مصر، يقول في خطبته التي حلل فيها فلسفة الانقلاب : « لقد تنوعت أهداف تلك النهضات المتتابعة ... وكانت في مجموعها صرخات مدوية في وجه الظلم والبغي أياً كان مصدرهما وبراهين دامغة على ان ميراث الحضارات العريقة والمدنيات العظيمة يجري في دمائنا وأن هذه الملايين من أفراد الشعب هم أبناء المجد الراسخ على ضفاف النيل الذي وطد دعائمه الفراعين الجبابرة والعرب الأمجاد . »[1] ويقول طه حسين في مقاله « يقظة »[2] : « ... كنا نبذل الجهد كل الجهد ونحتمل العناء كل العناء لنشعر المصريين بان وطنهم لم يصبر قط على الضيم ولم يذل قط للخطب ولم يستكن قط للمعتدين. كنا نقول ذلك للمصريين لنرد

(١) الاهرام ١٩٥٢/١١/١٥
(٢) الاهرام ١٩٥٢/١٠/١١

اليهم الثقة بانفسهم ، وكنا نقول ذلك للاجانب لنرد اليهم الثقة بمصر ونأخذهم باحترامها ، وكنا نتتبع التاريخ المصري منذ العصور القديمة فنرى أن مصر ثارت بالفرس فلم ترح ولم تسترح حتى خلصت منهم وثارت بالمقدونيين فلم ترح ولم تسترح حتى مصّرتهم وجعلت بعد ذلك تمصر كل من أغار عليها من الخارج حتى تجعلهم من أبنائها وتتخذهم وسائل إلى استقلالها ، فعلت ذلك في عصورها المختلفة فحفظت شخصيتها ولم تفن في أمة صغيرة أو عدو متسلط وإنما فني فيها من أغار عليها أو حاول لها استغلالاً واستعماراً . »

(ب) الفينيقية وحضارة البحر المتوسط

ان الفئات التي اعتنقت هذه الفكرة تقول ان اللبنانيين ليسوا من حيث الجنس عرباً بل فينيقيين ، اما حضارتهم فحضارة البحر المتوسط ، وهم لا يمتون للعرب بصلة وقربى الا باللغة . ولم تظهر هذه الفكرة علانية الا بعد الثورة السورية حين اخذت تتسرب الى بعض الأوساط حديثاً للموائد . وبقيت مقتصرة على ذلك الى سنوات . غير ان بدءها يعود الى اوائل الانتداب الفرنسي على لبنان . فما كادت فرنسا تنال الانتداب على سورية ولبنان حتى اخذت تسلك مع سورية سياسة ومع لبنان اخرى . وكانت ترمي من سياستها السورية الى اضعاف ما حسبته معقل المقاومة ، ومن سياستها اللبنانية الى تعزيز ما حسبته حصن التعاون . فكان لبنان الكبير ، وكان بين ليلة وضحاها اربعة سناجق مستقلة في سورية . غير ان الخوف من اتحاد كلمة البلاد ، على الرغم من هذا الامعان

في التقسيم ، حدا بالدولة المنتدبة ان توجد اساساً امتن لوجودها . وظهرت قبيل ذلك الفكرة الفرعونية في مصر ، فاوحت الى الفرنسيين فكرة الفينيقية . ثم ارتفع في اوائل العقد الثالث من هذا القرن صوت موسوليني في رومة ينادي بالمتوسط Mare nostrum واوجد جمعية لرفع لواء حضارته فاعتنقها دعاة الفينيقية دعامة لتسند جدران الفينيقية الضعيفة الاركان . وقام عمال الدولة المنتدبة الفكريون بايعاز منها بنسج لباس لهذه الفكرة . ولم يكمل هذا اللباس الا في منتصف العقد الثالث من هذا القرن عندما عُرضت الفكرة متلفعة به في كتاب تاريخي موجز [٣] . وقد نشط دعاة الفكرة يبينون طابع لبنان الخاص ، ويدعون الى انفصاله عن البلاد العربية ، ويشيدون بعظمة الفينيقيين ، ويتغنون بامجادهم ، بشعر عربي فصيح ، متقن الصنعة ، جميل اللغة ، رائع الخيال ، كقدموس سعيد عقل ، ويحاولون بعث اللغة العامية واتخاذها اداة للكتابة . وقد لاقت الحركة نجاحاً محدوداً في اوساط معينة ، جلها من المثقفين المسيحيين ، خريجي المدارس اليسوعية . وما لاقته هذه الحركة من نجاح محدود لدى بعض الفئات يعود الى فكرة خاطئة . فهذه الفئات قد ترى خطأ ان للعرب اليوم قبلتين : الصحراء والشرق قبلة ، والمتوسط والغرب قبلة اخرى . وتخشى هذه الفئات ان يولي العرب وجوههم شطر الصحراء . واذ فشل اصحاب هذه المحاولة في جر الكافة الى حركتهم عادوا الى العمل يدفعهم حقد الهزيمة وخبرة الميدان الى جهود جديدة جبارة في سبيل الوصول

---

(٣) اسد رستم وفؤاد افرام البستاني – طبعة ٢ (بيروت ، ١٩٣٧)

الى غايتهم وانصرفوا بعد ان ادركوا عقم الهجوم المباشر الى اساليب غير مباشرة فقالوا ان البلاد تدين بفكرتين : الديموقراطية والثيوقراطية . وقالوا بالطابع الخاص ، واخذوا يلفعون هذه الفكرة الانعزالية بجلباب العلم والادب في سلسلة من المحاضرات ترمي الى تعزيز الاتجاه الذي توخاه «تاريخ لبنان الموجز» . وحقيقة الامر ان العرب لم يولوا وجوههم شطر الصحراء البتة ، وجميع الدلائل تشير الى انهم لن يفعلوا ذلك في المستقبل القريب او البعيد. ومنذ خرج العرب من الصحراء قبل ثلاثة عشر قرناً ، ووجوههم مصوبة نحو الغرب لا الشرق . ولم يكن للصحراء اثر محسوس في ثقافتهم وحضارتهم واتجاهاتهم السياسية والاجتماعية منذ نقل علي بن ابي طالب عاصمته الى الكوفة . ولما اكتسحوا الهلال الخصيب ومصر وورثوا ثقافتها دخلوا في التاريخ العالمي ، ودخلوا حوض البحر المتوسط ، وساروا في مجرى حضارته .

اما الدعوة الفينيقية فلا تستحق النقاش الطويل . فان الفينيقيين على الرغم من تسربهم الى بعض مراكز التجارة في الداخل استوطنوا الساحل لا الجبال . وكانت الجبال آنئذ مكسوة بالغابات الغضة التي كانت مأوى للوحوش ومكامن للصوص . زد على ذلك ان كل محاولة لرفع بناء القوميات على العنصرية والجنس لا محالة فاشلة . لان الاصالة العنصرية اليوم معدومة ، لا وجود لها حتى بين القبائل الهمجية في أواسط افريقية . فلمَ نحاول ان نوجدها في بوتقة العناصر والاجناس ، حيث امتزجت دماء الفاتحين العرب بدماء السكان الاصليين وحيث اعطى العرب لهؤلاء السكان ، الى جانب دمائهم ،

لغتهم وحضارتهم وادبهم ونظمهم الاجتماعية ؟

ولنرجع الى حضارة البحر المتوسط التي اخذها البعض مطية للفصل بين قطر وقطر من الاقطار العربية ، لان للعرب ، على زعمهم ، حضارة اخرى مختلفة . ولنتساءل : وهل هنالك يا ترى حضارة عربية وغيرها اسلامية واخرى اوربية الى ما هنالك من الحضارات المزعومة ؟ ان في العالم ثلاث حضارات رئيسية حية : الحضارة الصينية ، والحضارة الهندية ، وحضارة ثالثة ينتمي اليها ما بقي من العالم المتمدن . هذه الحضارة مزيج من عناصر مختلفة اختلط بعضها ببعض مرة بعد اخرى . ولعل هذا الاختلاط سر نجاحها وقوتها . ومن هذه العناصر ما هو مصري ومنها ما هو سومري او ايراني او بابلي او يوناني او روماني او عربي . فلا يحق لنا اذن ان نطلق عليها اسم عنصر من هذه العناصر ولا نقدر ان ندعوها آرية او سامية . كما لا نستطيع ان نسميها وثنية او يهودية او نصرانية أو اسلامية . فكل هذه صفات مفردة من صفاتها غير انها ليست كافية او شاملة . اما افضل الاسماء التي يمكن ان تطلق على هذه الحضارة فهو حضارة البحر المتوسط لان حوضه وان لم يكن مهدها ، كان مكان امتزاجها ونموها . ولحوض البحر المتوسط وحدة جغرافية ، وتجارية ، واجتماعية ، وفكرية . وقوام الوحدة الفكرية ثلاثة لا رابع لها — الفكر اليوناني ، والنظام الروماني ، والدين السامي . ولكل من هذه عناصر شتى ساهم في ابداعها اقوام مختلفة : الفينيقيون ، اصحاب الفضل في استنباط الحروف الهجائية من نماذج مصرية ونشرها ، واليونان ، والفرس ،

والرومان وسواهم .

وفي القرن السابع دخل العرب معترك التاريخ وكانت فاتحة اعمالهم ان قضوا على امبراطورية الفرس وزعزعوا اركان الامبراطورية البيزنطية ، فجردوها من اغنى ولاياتها ، وما لبثوا ان نازعوا الروم وما بقي من الرومان على ملاحة البحر المتوسط وتجارته وانتزعوها منهم . ولم يقض العرب في ذلك على وحدة البحر المتوسط الاقتصادية والثقافية كما يزعم بيرن (٤) بل عززوها . لان البحر المتوسط اصبح بحراً عربياً وبقي كذلك من القرن الثامن الى القرن الحادي عشر . ونشر العرب ما ورثوه من الفرس وما اقتبسوه من البيزنطيين والاقباط ، وما اخذوه من النصارى واليهود وصابئة حران الوثنيين في جميع انحاء حوض البحر المتوسط ، وبكلمة اخرى حمل العرب لواء حضارة البحر المتوسط كما تسلموها وزادوا عليها ونشروها في انحاء امبراطوريتهم من الاندلس غرباً الى حدود الصين شرقاً ، ومن بحر الخزر شمالاً الى منبع النيل . استولى العرب على ملاحة البحر المتوسط وجعلوا البحر بحراً عربياً غير ان حضارته استولت عليهم فدخلوا في مجراها وصبوا فيها ما كانوا قد استقوه من مياه الثقافات الاخرى ، فتعاظم النهر ، وارتفعت مياهه بعد ان كادت تنضب . ورفع العرب للحضارة المشتركة هذه ابراجاً في حواضر حوض المتوسط – في بغداد ودمشق والاسكندرية والقاهرة وتونس وفي مدن الاندلس

---

(٤) Henri Pirenne. (Mahomet et Charlemagne 7 th ed. (Brussels, 1935)

الرئيسية – طليطلة وقرطبة واشبيلية – وفي صقلية وجنوبي ايطاليا، فأصبحت هذه قواعد لنشر عناصرها المادية وغير المادية . فالدور الذي قام به العرب تجاه هذه الحضارة هو هو الدور الذي قام به من قبلهم ممن سبقهم من شعوب البحر المتوسط . والحق ان العرب لم يدخلوا في التاريخ العالمي الا عندما خرجوا من الصحراء ودخلوا في حوض البحر المتوسط وساروا في مجرى حضارته . ومنطق الحقائق هذه يدفعنا الى الاقرار بان العرب جزء لا يتجزأ من حضارة البحر المتوسط ، وعنصرٌ مهم في تكوينها وبقائها . ولا تصلح ولن تصلح قضية لفصل العرب عن باقي الشعوب الغربية من حيث الثقافة والحضارة ، كما لا تصلح لفصل قطر من الاقطار العربية عن سواه[٥] .

(ج) الحركة القومية الاجتماعية (الحزب السوري القومي)

إن هذه الحركة التي سنتناولها بالبحث الموجز هنا هي أنشط الحركات المناوئة للقومية العربية، وأوضحها هدفاً ، وأقواها تنظيما. وإذا كانت الحركات السابقة عبارة عن حركات فكرية تتخذ الفكر المجرد ميداناً لنشاطها، والكتابة والكلام وسيلة للتأثير في الجمهور، فان الحركة القومية الاجتماعية جمعت بين الفكر والعمل السياسي المنظم . وقد قام بالحركة انطون سعادة في أوائل العقد الرابع من هذا القرن . وظهرت حركته إلى الوجود حين أسس « الحزب السوري القومي » في لبنان .

---

(٥) انظر نبيه امين فارس ، العرب الاحياء (بيروت ، ١٩٤٧) قد نقلنا معظم مادة هذا الفصل عن الفصل المعنون « العرب وحضارة البحر المتوسط».

وهذه الحركة لا تختلف في جوهرها عن الحركات القوميــة الاخرى ، التي قامت في اوروبا وفي الشرق . فهي مثلهـا تؤكد على ذات الأمة ، وعلى وحدتها المتولدة من تاريخ طويل ، وعلى أن مصلحة الأمة فوق كل مصلحة ، وعلى أن الأمة مجتمع واحد : متحد المصلحة والغاية والشعور ، ولذلك فهي ترفض ، نظريـــاً ، الطائفية والعنعنات الدينية المفرقةوالاقليمية الانعزالية الضيقة، ولا تعترف بالطبقية ، إلى ما هنالك من المفاهيم العامــة المشتركة بين الحركات القومية البرجاسية (البورجوازية) . على أن الجديد في هذه الحركة هو القول بقومية سورية خاصة ، مستقلة عن القوميــة العربية. وهذه الفكرة هي لبّ الحركة ، والمحور الذي تدور عليه، وقد روّج لهذه الفكرة قبل انطون سعادة بعض الكتاب الفرنسيين وأخصهم بالذكر « لامنس » في كتابه « سورية » .

يذهب انطون سعادة إلى أن السوريين أمة تامة . وان القضية السورية هي قضية قومية قائمة بنفسها ، ومستقلة كل الاستقلال عن أي قضية اخرى. وان الأمة السورية هي وحدة الشعب السوري، والمتولدة من تاريخ طويل ، يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي. والوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الأمة السورية. وهي ذات حدود جغرافية ، تميزها عن سواها ، تمتــد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياري في الشمال الشرقي إلى قناة السويس والبحر الأحمر في الجنوب شاملة شبه جزيرة سينـاء وخليج العقبة . ومن البحر السوري في الغرب شامــلة جزيرة قبرص، إلى قوس الصحراء العربية وخليج العجم في الشرق . وعبر

عنها بلفظ عام : الهلال الخصيب، ونجمته جزيرة قبرس.[٦]

يقيم سعادة حركته على ان السوريين امة واحدة تامة ، لا تمت إلى الأمة العربية إلا بصلات واهية أهمها صلة اللغة . وهو يرى أن الأمة العربية شيء غير قائم في الواقع ، وإنما هنالك شعوب متعددة تتكلم اللغة العربية فحسب ، مختلفة اجتماعياً واقتصادياً وعقلياً . وقد تكونت هذه الأمة السورية في التاريخ ، وحافظت على شخصيتها المستقلة، رغم تعدد الفاتحين لها، فلما فتحها العرب لم يؤثروا فيها تأثيراً يذكر ، بل على العكس من ذلك هي التي أثرت في العرب وطبعتهم بطابعها الخاص ، وذوبتهم في كيانها . وهو يرى ان العرب جنس منفصل عن السوريين ، أقل حيوية ، وأحط حضارة . وان العرب حين دخلوا سورية لم يُدخِلوا معهم المدنية العربية بل على العكس من ذلك ان لباب مدنيتهم إنما هو أثر من آثار المدنية السورية وسواها . « إن اليرموك كانت باب العرب لسورية ولكنها لم تكن قط باب « المدنية العربية » . إن مدنية الاقوام التي دخلت نطاق الاسلام المحمدي، التي تطلق عليها أحياناً التسمية اللغوية فيقال «المدنية العربية» هي مدنية السوريين والفرس والأفريك في اللغة العربية ». [٧] وقد كان سعادة يمجد ماضي الاقوام التي استوطنت سورية كالآراميين والفينيقيين ، ويشيد بحضاراتهم الراقية ، ونشاطهم الشامل، ويهاجم فكرة العروبة، ودعوة القومية العربية ، والعرب هجوماً عنيفاً . وفي هذا الصدد يقول ساطع

---

(٦) انظر مبادىء الحزب.

(٧) انظر النظام الجديد الحلقة الثانية عشرة ، تشرين الثاني ١٩٥٠ ص ٣٨

الحصري [٨] : « وقد علمت ان الدافع الاصلي لذلك كان إساءة فهم المعنى المقصود من كلمة « العروبة » ومن تعبير « القومية العربية ». لأني لاحظت بكل وضوح ، ان فكرة العروبة كانت تختلط في ذهن انطون سعادة مع معاني البداوة والصحراوية من ناحية ومع الحزبية المحمدية من ناحية اخرى. قد توهم الرجل ان فكرة « الوحدة العربية » ما هي إلا قناع يتقنع به دعاة الطائفية الاسلامية . ولذلك اخذ يحمل عليها ، كما كان يحمل على الطائفية بوجه عام .. هذه هي « خميرة الضلال » التي عملت عملها في مشاعر زعيم الحزب ، وافسدت عليه تفكيره العلمي والاجتماعي والسياسي .. »

ويرى سعادة ان قضية الامة السورية يجب ان تستقل عن القضية العربية ، لان القضيـــة العربية هي قضية خاسرة ، وقـــد انزل ارتباطها بالقضية العربية ضرراً بليغاً بها ، واخر نموها ، وافقدهـا كثيراً من مقوماتها وحيويتها ، واضـاع عليها اجزاء مهمة من الوطن السوري . وهـو يقول في هذا الصدد : [٩] « لم يخامرني قط شك في ان العروبة — عروبة « الوطن العربي » الممتد شريطة طويلة ملتفة ومتمعجة على شواطيء غرب آسية وشمال افريكة ، وعروبة « الامـة العربية » الموجودة في جماعات مختلفة الاجناس المتفرقـة والبيئات المتباعدة ، والنفسيات المتباينة ، وعروبة « المجتمع العربي » الذي تنقصه كل خصائص المجتمع الصحيح الحي الفاعل وكل عوامل الاتحـاد الاجتماعي ، وعروبة الاربعين او الخمسين مليون عربي —

(٨) العروبة بين انصارها ومعارضيها ص ٧٣—٧٤

(٩) من مقال « افلست العروبة » النظام الجديد الحلقة الثانية عشرة ص ٩.

قضية خاسرة في سورية – ، مضيّعة لكل مجهود تقوم به الامة السورية لحفظ كيانها ووطنها وتحقيق مطالبها في الحياة . وقد جزمت ، بعد درس نفسية العروبة المذكورة في سورية – نفسية « القومية العربية » – في انها مرض نفسي شوه العقل السوري والادراك والمنطق . » على ان سعادة لا يستطيع ان ينكر الصلات القائمة بين الاقطار العربية ، نكراناً تاماً ، ولا يستطيع ان يتغافل عن الفوائد التي تجنيها من التعاون ، فيقول بالتعاون معها ، ولكن بعد ان تنهض سورية بنفسها ، لتقود هذه الجبهة المتعاونة . ولكن هذه الجبهة لا تتكون من شعوب يمتون الى امة واحدة ، بل من شعوب متقاربة المصالح ، كما يدعو الداعون الى تكوين جبهة بلقانية مثلاً : « ان واقع العالم العربي هو واقع امم ومجتمعات يسهل تعاونها وتشكيل جبهة تعاونية منها . لا واقع امة واحدة ومجتمع واحد . وعلى سورية ان تنهض بنفسها اولاً ، لتتمكن من الاشتغال في قضايا العالم العربي ، ولتكون قوة فاعلة في تكوين الجبهة العربية » [١٠]

لا نريد ان نناقش هنا الاسس التي قامت عليها الحركة القومية الاجتماعية . ففي القسمين الأول والثاني من هذا الكتاب ، وفي ردنا لدعاوى الفينيقية ، مناقشة واضحة لها ، وان كانت غير مباشرة ، ورد لدعواها ، وتفنيد لحججها . وانما يهمنا ان نبين اثرها في تقوية فكرة التباعد بين اقطار العالم العربي ، وعرقلة فكرة التعاون العربي ، وخاصة في لبنان . لاقت الحركة نجاحاً ملحوظاً في لبنان . وقد

(١٠) المصدر السابق ص ١٠ .

كان لشخصية زعيمها القوية ، وايمان مريديه به ايماناً يشبه التقديس اثر في هذا النجاح . على ان نجاحها في لبنان يرجع الى عوامـــل اخرى بالاضافة الى ما تقدم اهمها تأصل العداء للعروبة والاسلام في نفوس فئات من اللبنانيين ، وتمهيد الدعوة الفينيقية وحضارة البحر المتوسط اذهان قسم من الشباب لتقبل الفكرة . يضاف الى ذلك ان قسماً من الشباب المستائين من الطائفية المدمرة ، والانعزالية الضيقة،الحاقدين على العروبة والاسلام في الوقت نفسه ، اوالخائفين من العروبة والاسلام ، وجدوا في هـذه الحركة راحة نفوسهم ، والعقيدة الروحية والسياسية التي توصلهم الى اهدافهم . وقد قامت الحركة القومية الاجتماعية ـ الى جانب الانعزاليةالضيقة التي تسيطر على عقول فئـــات من اللبنانيين تمثل « الكتائب » و « الكتلة الوطنية » او« الكتلة الادية » المتطرفين منهم الذين يؤمنون بقومية لبنانية خاصة ، وكيان لبناني قائم يخافون عليه من اي وحدة ،او اتحاد ، او مجرد تقارب ، عربي ، والى جانب الدعوة الفينيقية ـ بدور مهم في إبعاد الناس عن فكرة القومية العربيـة ، والتقارب العربي ، وتشغلهم بقضايا لا اسس تاريخية لها ، بعيدة عن واقـــع الحياة العربية الذي هو واقع تحررمن الاستعمار الأجنبي ،والطغيان الداخلي ، والتقدم في مجالات الاقتصاد والثقافة .

اما في سورية ، التي انتقل اليها نشاط الحزب العلني بعد مقتل سعادة فكان نجاح الحركة ضئيلاً . وليس أدل على ذلك من ان القوميين السوريين تبنوا انقلاب ١٩ كانون الأول ١٩٤٩،وأيدوه، واعتبروا الانقلاب جزءاً من حركتهم . وقد بدا في أول الامر

ان القائمين بهذا الانقلاب كانوا يميلون الى الحركة ، ويعطفون عليها، ويتبنون اسسها ، ويستخدمون اعضاءها . ولكنهم ما لبثوا ان اعلنوا تمسكهم بالعروبة،وايمانهم بالقومية العربية وبالوحدة العربية، فاسسوا «حزب التحرير العربي » . ليس المهم هنا ان يكون هؤلاء صادقين في دعواهم العربية او غير صادقين ، فالأمر الجدير بالنظر انهم إنما فعلوا ذلك لأن جمهور الشعب في سورية مسلم حريص على اسلامه ، عربي متمسك بعروبته ، حريص على امجاده القومية العربية ، شاعر باواصر الأخوة والوحدة التي تشده إلى العرب في اقطارهم جميعاً . وأما في العراق ـ الجناح الشرقي من سورية بنظر الحركة ـ فقد قابلت القلة من المثقفين التي اطلعت على أسس الحركة هذه الدعوة بالسخرية . لأن العراقي يستطيع ان يفهم بانه عراقي بحكم معيشته في القطر العراقي ، وبانه عربي بحكم انتمائه الى الأمة العربية ومشاركته في الحضارة والتراث العربي ، ولكنه لا يستطيع ان يفهم بانه سوري ، او سرياني ، باي حال من الاحوال، لأن فئة من الناس تريده ان يكون كذلك .

لقد عملت هذه الحركات ، المعادية للعرب وللقومية العربية ، على بلبلة الفكر السياسي في سورية ولبنان ، وعملت على غرس فكرة التباعد في اذهان فئة من الشباب ، وهدرت جهوداً عظيمة في مكافحتها ، ومناقشتها ، وتحمل هجماتها ، كان يمكن ان تبذل في مكافحة الاستعمار ، وعوامل التأخر والتفكك ، في العالم العربي. ولكنها ادت من جهة ثانية خدمة للقومية العربية ، بان حركت العاملين في القضية العربية من خدرهم ، ونبهتهم الى ضرورة توضيح

اهدافهم ، وتوحيد صفوفهم ، وإلى اهمية التنظيم والعمل الايجابي النشيط بين جمهور الشعب.

٣ — العربية والاسلامية

تتفق الحركات القومية العربية والحركات الاسلامية في امور وتختلف في امور . وتلتقي في بعض الغايات القريبة والبعيدة ، وتفترق في بعضها افتراقاً بعيداً . ويأتي هذا الاتفاق بين الحركات القومية والاسلامية من طبيعة الدين الاسلامي نفسه ، ومن طبيعة القومية العربية ذاتها . فالعرب انما دخلوا التاريخ العام ، واصبح لهم وجود تاريخي كأمة ، وشاركوا في الحضارة الانسانية مشاركة نيرة بظهور النبي محمد بن عبد الله مبشراً برسالة الاسلام . وإذا كان المسلمون يعتبرون محمداً رسول الله الاعظم ، وخاتم النبيين ، فان العرب يعتبرونه بطلهم القومي ، واعظم انسان أخرجته هذه الامة العربية . وإذا كان المسلمون يقدسون القرآن الكريم لانه كلام الله الموحى به الى رسوله محمد ، فان العرب يعتبرونه مثال البلاغة العربية الاعلى ، وانموذج الكلام المبين ، والحارس الامين الذي حفظ عليهم لغتهم سليمة من العجمة والركاكة والاندثار والذوبان في اللهجات العامية الاقليمية على الرغم من الانحلال الذي اصاب العرب ، ومن الامم الاجنبية التي اخضعت العرب لسلطانها . وإذا اعتز المسلمون بالحضارة الاسلامية ومجدوا ابطال المسلمين الخالدين ، وخلفاءهم الهادين العادلين ، فان العرب يعتزون بهذه الحضارة لان عبقرية امتهم العربية كان لها

النصيب الاكبر في خلقها ، ولان لغتهم العربية كانت القالب الذي ظهرت فيه ، ويمجدون هؤلاء الابطال لانهم ابطالهم القوميون ، ويفاخرون باولئك الخلفاء العظام لانهم من ابناء العرب . ولما كانت العربية هي قوام الاسلام ومادته ، ولغة قرآنه ونبيه ، فقد امتد اعجاب المسلمين الى كل ما هو عربي ، والى كل عربي خدم اللغة العربية ، واغناها بفيض ذهنه ، وشارك في الحضارة العربية ، مسلماً كان ام غير مسلم . فقد عكفوا على الشعر الجاهلي يجمعونه ، ويشرحونه ، ويقلدونه اسلوباً ومعنى ، وان كان قائلوه من المشركين الكفار ، الذين جاء الاسلام لمحو آلهتهم واوثانهم ، وطمس اساطيرهم واوهامهم ، وردهم الى سواء السبيل . ما كانوا يسألون عن دين الاخطل المسيحي ، وانما يعجبون بشعره . ولا يحفلون بعقيدة حنين بن اسحق ، وثابت بن قرة ، وموسى بن ميمون ، وانما يقرأون ما ترجموه من فلسفة اليونان وما الفوه من بنات افكارهم ، ويحمدون لهم هذا الجهد النبيل . وهكذا تتشابك العربية والاسلامية في التاريخ القديم تشابكاً عضوياً متفاعلاً لا مجال الى فصل الواحدة عن الاخرى . ومن ذا الذي يستطيع ان يفصل عمر ابن الخطاب عبقري العرب في القيادة والسياسة والادارة عن عمر خليفة المسلمين ومدبر الفتوحات ؟ ومن ذا الذي يستطيع ان يفصل علي بن ابي طالب امام المسلمين الشهيد عن علي امام البلاغة والفصاحة العربية ؟ هيهات !

وكذلك تتشابك الاسلامية والعربية في التاريخ الحديث تشابكاً عضوياً متفاعلاً لا مجال إلى فصل الواحدة عن الأخرى في نفوس

كثير من القادة والقوميين بله جمهور العرب المسلمين . وهل كانت النهضة العربية الحديثة إلا تياراً من النهضة الاسلامية في القرن التاسع عشر ؟ ألم يكن الحسين بن علي – بطل العرب القومي في العصر الحديث ، وقائد ثورتهم الكبرى ضد الأتراك ، والعامل على تأسيس دولة عربية موحدة – سادن الحرمين الشريفين، وشريف مكة، وسليل الرسول ؟ ألم يبايعه جماعة من المسلمين خليفة للمسلمين عموماً فيقبل البيعة مغتبطا بها ، حريصا عليها ؟

ولكن هنالك اختلافاً أساسياً بين الحركات السياسية الاسلامية الناشطة اليوم ، وبين الحركات القومية العربية . فالحركات القومية العربية ، عموماً ، تقوم على أساس ان العرب امة، متميزة بمقوماتها الأساسية عن الامم الاخرى . وهي تدعو إلى الوحـدة العربية ، وتريد ان تقيم الدولة على أسس عصرية ، علمانية مستقلة عن الدين ، وإن كانت جميعها تقر بحق الافراد في ممارسة شعائرهم الدينية في حرية تامة . وتدعو إلى اصطناع القيّم من الحضارة الحديثـة ، في العلم ، وأساليب الانتاج ووسائله ، وفي نظم الحياة الاقتصاديـة والاجتماعية . وإذا كانت تعتز بالابطال العرب المسلمين الذين انتجوا التراث العربي الاسلامي القديم فهي إنما تفعل ذلك لان هذا التراث عربي ، ولان الذين انتجوه ، في الغالب ، عرب وحسب . كما يعتز الفرنسي بالكتاب والشعراء الذين أقاموا مجد اللغة الفرنسية وشادوا صرح الامة الفرنسية، وإن كان كثير منهم من الكاثوليك المغالين، وكان هو من غلاة الملحدين .

لقد قلنا « الحركات القومية العربية » ولم نقل الحركة القوميـة

العربية . لانه لا توجد ، في الحقيقة ، حركة قومية واحدة في البلاد العربية موحدة الغايات والاساليب . إنما هنالك تيارات قومية عديدة تشترك في اشياء وتختلف في اشياء . فهنالك تيارات عربية ما زال الطابع الاسلامي فيها قوياً واضحاً . وتيارات قومية تدعو إلى القومية العربية البسيطة، الغامضة، التي كان يبشر بها شبان العرب قبيل الحرب العالمية الاولى ، والتي تنحصر غايتها في استقلال البلاد وتوحيدها ، واستعادة مجد العرب . وتيارات قومية فاشية ونازية تعاظم مدها في العقد الرابع ومنتصف الخامس من هذا القرن ، وما زالت آثارها عالقة في تفكير بعض الشبان والساسة القوميين بعد ان دالت دولتا الفاشية والنازية في اوربا .

وهنالك تيارات قومية تقدمية عديدة تتراوح بين الاشتراكية التطورية المعتدلة التي تخضع النظرية الاشتراكية للمفاهيم القومية وتصبغها بالتقاليد القومية العربية ، وبين الاشتراكية الماركسية التي تهدف إلى خلق قومية عربية متحررة متعاونة مع القوميات الاخرى ، والتي تفهم الثقافة القومية على انها قومية في القوالب والاشكال ، أممية في المعنى والمحتوى . وإذا كانت بعض الحركات القومية ، وخاصة التقدمية ، قد اتخذت موقفاً صريحاً من الاسلام، ألا وهو الاستقلال عنه ، فيما يختص بتنظيم الدولة والمجتمع والاقتصاد، استقلالاً تاماً ، فان موقف الحركات الاخرى ما زال غير واضح ولا صريح . ومرجع ذلك ، في رأينا ، الى عدم وضوح المفاهيم القومية عند قادة هذه الحركات ، وإلى تشابك المفاهيم القومية والاسلامية في تفكيرهم ، والى قوة النزعة الاسلامية عند عامة

الجمهور . الم تر ان الدول العربية – ومعظمها ذو كيان عصري ، على الاقل نظرياً – تنص في دساتيرها على ان دين الدولة الرسمي هو الاسلام ؟

اما الحركات السياسية الاسلامية فتعتبر المسلمين امة واحدة مهما اختلفت اجناسهم ، وتباينت لغاتهم ، وتباعدت اوطانهم . وتسعى الى توحيدهم في دولة اسلامية كبرى ، او جمعهم في رابطة اسلامية محكمة الاواصر . فالدين الاسلامي ، بنظر هذه الحركات السياسية ، هو الوطن الذي يجمعهم ، والراية التي توحدهم . وهي تريد ان تقيم الدولة والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية ، على اساس من تعاليم الاسلام[1] . هذه الغاية البعيدة للحركات السياسية الاسلامية الناشطة اليوم هي اساس الخلاف بينها وبين الحركات القومية والوطنية عموماً . وهي التي تبعث الخوف في قلوب ابناء الطوائف غير المسلمة من العرب ، وتدفعهم الى تبني

(١) جاء في الاخطار الخاص ، الذي قدمه الاخوان المسلمون في مصر الى الحكومة ، باعادة تكوين هيئتهم : « ولما كان الاخوان المسلمون بحسب نظامهم الاساسي هيئة اسلامية جامعة تعمل لتحقيق الاغراض التي جاء من اجلها الاسلام الحنيف فهي تتوخى كل الاهداف التي جاء بها الاسلام. واهداف الاسلام وغاياته تشمل شؤون الحياة كلها ، ويدخل تحتها كل دقيق وجليل من امر الفرد والجماعة . والاسلام لا يفرق بين الدين والدولة ، ولا يفصل بين الدنيا والآخرة ، وانما هو دين ودولة وعبادة وقيادة . ولقد امر الله ان يؤخذ هذا الدين جملة وجعله كلا لا يتجزأ ، فما يجوز ان نؤمن ببعضه دون بعض ، او ان نأخذ بعضه ونترك البعض الآخر : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب ».

(الاهرام ٩/١٠/٥٢)

الحركات القومية الصريحة ، او الحركات المعادية للعروبة والاسلام جملة . وهي التي تبعث الخوف في قلوب فئات من المسيحيين اللبنانيين وتجعلهم مغالين في انعزاليتهم ، حريصين على استقلال لبنان عن البلاد العربية استقلالاً تاماً . فالمسيحي اللبناني الذي ضمن له الكيان اللبناني المستقل كرامته كمواطن ومسيحي يخشى ان يعيش في دولة اسلامية الاسس ، إن عاملته بالرفق وصانت حقه بالعدل ، فهي لن تعتبره اكثر من « ذمي » ليس له ان يتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها المواطن المسلم. وهذه الحركات هي التي تثير مخاوف جمهور من الساسة والمثقفين الذين يؤمنون بالحضارة الحديثة ويسعون الى بناء المجتمع العربي الحديث على اسسها ، ويحرصون على الاحتفاظ بالقيّم من مظاهر هذه الحضارة الحديثة التي دخلت الى العالم العربي في مجالات الاقتصاد والسياسة والفكر والمجتمع ، والذين يرون ان الاسلام ، وان ادى دوره التاريخي العظيم في الماضي وقاد الامة العربية الى المجد ، لن يصلح اساساً للحياة العربية في الوقت الحاضر والمستقبل . شاع في مصر ان الازهر تقدم الى حكومة الانقلاب العسكري بقوانين عدة لحكم البلاد حكماً اسلامياً . فأحدث الخبر دوياً وبلبلة في الاوساط المصرية وغير المصرية . فرح به فريق ، وتخوف منه فريق وانكره . ورأت الحكومة المصرية رد الفعل العنيف ، والبلبلة المتعاظمة ، فأعلن اللواء محمد نجيب ان هذه ليست الا « دسيسة » تتحرك في هذه الايام وتمشي بين الناس في ثوبها البراق الخادع لغرض معين ، ولغاية تستهدفها . ثم جاء فضيلة الاستاذ الأكبر شيخ الجامع

الازهر فأعلن في وضوح ان الازهر « لم يتقدم الى الحكومة بهذه القوانين الاسلامية » التي قيل انه تقدم بها ، بل انها لم توضع ولم توجد حتى الآن . فظهر للناس جلياً انها فرية لا ترجع الى رغبة في استقرار الحكم في مصر على نحو معين ، وانما ترجع ، قبل كل شيء الى اثارة الغبار امام المسؤولين بعرض يجذب القلوب ويخدع الابصار[2] . وانتقد الشيخ احمد حسن الباقوري وزير الاوقاف مروجي هذه الشائعات ، وبيّن شرائط الدولة الدينية ، واشار الى ان الظروف الحاضرة لا تجيز قيامها[3] .

ولئن اختلفت الحركات الاسلامية والحركات العربية في الغايات البعيدة ، فهي تلتقي معها في الغايات الآنية القريبة . واولى هذه الغايات ، واخطرها شأناً ، هي قضية تحرير البلاد العربية من الاستعمار ، ومن كل نفوذ اجنبي ، التي هي اساس كل حل لمشاكل العالم العربي . فالحركات الاسلامية ، كالحركات القومية والوطنية عامة ، تضع قضية تحرير البلاد العربية في مقدمة اعمالها السياسية . وثاني هذه الغايات جمع شمل الاقطار العربية ، وتوحيد كلمتها ، وتنظيم مواردها الاقتصادية بما يضمن مصلحة الجميع ، والسعي لاقامة وحدة عربية كاملة ، او اتحاد عربي متين الاواصر . جاء في اخطار الاخوان المسلمين الذي اشرنا اليه آنفاً ، ان الاخوان المسلمين : « هيئة اسلامية جامعة تعمل لتحقيق الاغراض التي جاء من اجلها الاسلام وما يتصل بهذه الاغراض .. وتنمية الثروة

---

(٢) الاهرام ١٩٥٢/١١/٢٠
(٣) المصدر السابق .

القومية والعمل على رفع مستوى المعيشة وتحقيق العدالة الاجتماعية والتأمين الاجتماعي لكل مواطن ، والمساهمة في الخدمة الشعبية ومكافحة الجهل والمرض والفقر والرذيلة وتشجيع اعمال البر ... » « وكذلك في مقدمة ما يعمل له الاخوان المسلمون تحرير وادي النيل والبلاد العربية والوطن الاسلامي كله من السلطان الاجنبي، ومساعدة الاقليات الاسلامية في كل مكان وتأييد الوحدة العربية تأييداً كاملاً ، والسير الى الجامعة الاسلامية.. »[٤] . تسعى الحركات الاسلامية لتحرير البلاد العربية وتدعو الى الوحدة العربية لأنها تعتبر البلاد العربية جزءاً اساسياً من الوطن الاسلامي، ولأنها ترى تحرر البلاد العربية واتحادها خطوة لتحرير البلاد الاسلامية وتكوين الجامعة الاسلامية المنشودة . يقول سيد قطب : «.. ان الاستعمار يجثم على صدورنا اليوم ويخنق انفاسنا بعنف . والواجب يقتضينا ان نوجه المقاومة الايجابية للاستعمار، والمقاومة الفكرية للديمقراطيات الشعبية . والراية التي تجمعنا لنكافح .. هي وحدها راية الاسلام. ان بعضنا يؤثرون ان يتجمعوا تحت الراية العربية.. وانا لا اعارض ان يكون هذا تجمعاً وقتياً يهدف الى تجمع اكبر منه ، فليس هناك تعارض جدي بين القومية العربية والوطنية الاسلامية اذا نحن فهمنا القومية العربية على انها خطوة في الطريق . ان ارض العرب كلها جزء من ارض الاسلام ، فاذا نحن حررنا الارض

(٤) الاهرام ٩-١٠-٥٢ . وتجد هذه المعاني نفسها في المنهاج القديم لجماعة الاخوان المسلمين . انظر اسحق موسى الحسيني ، الاخوان المسلمون (بيروت، ١٩٥٢) ، ص ٦٨-٦٩ .

العربية فاننا نكون قد حررنا بضعة من جسم الوطن الاسلامي ، نستعين بها على تحرير سائر الجسد الواحد الكبير . والمهم ان نتجمع اليوم ونتساند كما يتساند العالم الحر ضدنا فكل بلد صغير لا يستطيع وحده ان يكافح عالماً . والسياسة القصيرة النظر التي تريد ان تحصرنا في حدودنا الجغرافية المصطنعة هي سياسة حمقاء ، فالعالم يسير نحو التكتل في الشرق والغرب سواء . ومن واجبنا ان نتكتل على الاقل تمشياً مع منطق العصر ، إن لم يكن تمشياً مع منطق الاسلام ٥ . »

وبعد . اين يتجه العالم العربي ؟ أيتجه نحو اقامة مجتمع قومي يتبنى الخالد النافع من الحضارة العربية ، والقيّم من الحضارة الحديثة ، وينظم حياة الفرد والمجموع على اساس العلم والعدالة ، ويفصل بين الدين والدولة ، ويترك للافراد عبادة ربهم كما يشاءون ؟ ام يتجه نحو إقامة مجتمع ديني اسلامي ، تطبق فيه تعاليم الاسلام ونظمه تطبيقاً كاملا ؟ نحن نرى ان العرب قد ساروا في الطريق الاولى ، وقطعوا منها مسافات طويلة في بعض الاقطار العربية ، قصيرة في بعضها الآخر ، ولكنهم سائرون فيها على كل حال . وما نراهم إلا مكملين سيرهم في هذه الطريق الرحبة الواضحة المعالم ، طريق الامم المتمدنة في هذا العصر الحديث . لقد تغلغلت الحضارة الاوربية

---

(٥) الرسالة عدد ١٠١٨ الصادر في ١-١-١٩٥٣ (مبادىء العالم الحر !) وانظر في هذا المعنى مقال احمد حسن الزيات (الجامعة الاسلامية هي الغاية) الرسالة عدد ٧٣٠ الصادر في ٣٠-٦-١٩٤٧ . ومقال علي الطنطاوي (العربية والاسلامية) الرسالة عدد ١٠١٩ الصادر في ١٢-١-١٩٥٣

تغلغلاً عميقاً في العالم العربي . وقد اتجه هذا العالم ، اتجاهاً لا شك فيه ، نحو اصطناع وسائل هذه الحضارة المادية وانظمتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . وقد تقبّل العرب المسلمون هذه الامور بشيء من الاستنكار والتحفظ والتخوف اول الأمر ، ثم ما لبثوا ان اعتادوها ، ورأوا فائدتها ، واطمأنوا اليها ، وسلموا بها ، وطلبوا المزيد منها .

لم يعد الناس يجادلون في فائدة الآلة ، وضرورة استخدام السماد الصناعي ، وتجرع حبات الكينا لمقاومة الملاريا . ولم يعد الناس يجادلون في اهمية السيارة والقطار ، ولم يعد الناس يجادلون في فائدة التنظيم الاقتصادي ، وتأسيس الشركات التجارية ، وإقامة المصارف المالية. ولم يعد الناس يجادلون في هل تصطنع الحكومات العربية السلاح الحديث ام تحافظ على السيوف المشرفيّة والدروع السوابغ . ولم يعودوا يتساءلون عن العلوم الطبيعية ، والفنون التقنية ، اكفر هي ام ايمان ؟ ولم يعودوا يتساءلون عن امور كثيرة في السياسة والاقتصاد والاجتماع يرونها قائمة بينهم حين يصبحون ، وتطالعهم حين يمسون . لقد اصبحت كل هذه الأمور حقائق واقعة في دنياهم ، اعتادوا عليها ، وهم ان طلبوا شيئاً فانما يطلبون الأصلح منها ، ويطلبون الاكثار من هذا الاصلح المفيد. ولم يعد الناس يختلفون حول الاسس المادية للحضارة الغربية ، وحول العلوم والفنون التجريبية والنظرية التي قامت عليها هذه الحضارة، وإنما يختلفون حول الاسس الاخلاقية التي تقوم عليها هذه الحضارة. وليسوا هم الوحيدين الذين يجادلون في اسس هذه الحضارة

الأخلاقية ، ويختلفون فيها . فالغربيون انفسهم قد جادلوا في هذه الأسس، واختلفوا فيها، وما زالوا يجادلون ويختلفون، ويبتكرون السبل والوسائل لاقامة المجتمع على اساس مكين من العدالة . وما الحركات الشيوعية، والاشتراكية، والفاشية، والنازية ، والحركات الاصلاحية المسيحية السياسية عموماً ، الا نتيجة للشك في الأسس الأخلاقية والمجتمعية التي تقوم عليها هذه الحضارة الغربية .

لقد سار العالم العربي في طريق هذه الحضارة التي يسميها الناس الحضارة الغربية، وما هي الا حضارة انسانية استمدت اسسها من حضارات انسانية عديدة، ومنها الحضارة العربية الاسلامية، وساهم ويساهم ، في اغنائها شرقيون وغربيون ، ملاحدة ومؤمنون . ولا رجوع للعالم العربي عن طريق هذه الحضارة ولا نكسة . وما نرى جهود هؤلاء الباحثين الغربيين والشرقيين الذين يصرفون اعمارهم ، ويشغلون قراءهم ، في بحث موقف الاسلام من الحضارة الغربية ، (فمنهم من يرى الاسلام مناقضاً لهذه الحضارة معادياً لها ، ومنهم من يزعم ان العرب لا يمكن ان ينهضوا الا اذا تخلوا عن دينهم هذا تخلياً تاماً ، وابتعدوا عنه ابتعاداً)، الا جهوداً ضائعة ، ومحاولات هي الى السخف الهازل اقرب منها الى البحث الرصين . فالعرب المسلمون ، عموماً، قد تقبلوا الحضارة الغربية، وألفوها، واعتادوها، وهم ينظمون احوالهم ، او يجهدون في تنظيم احوالهم ، على ضوء العلوم والفنون التي انتهجتها هذه الحضارة، ويحاولون ان يغنوا حياتهم بهذه الوسائل المادية التي اتاحتها هذه الحضارة لأبنائها ، لا يسائلون انفسهم لحظة من زمان إذا كان عملهم هذا موافقاً للاسلام

ام مخالفاً . ومن وراء هذه الوسائل المادية في الصناعة والفن العلوم المجردة والتجريبية ، لا تُنال تلك بدون هذه والعرب مقبلون عليها جميعاً لا يتساءلون اذا كانت هذه النظرية او تلك تخالف الدين او توافقه ، واذا كان هـذا الاسلوب في التطبيق مأثوراً عن العرب الاقدمين أم غير مأثور .

١٢ — التباين السياسي

●

رأينا ، فيما تقدم ، ان الاقطار العربية تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً في النواحي السياسية سواء كان ذلك من حيث السيادة ، او من حيث شكل الدولة وتكوينها . ففي العالم العربي اقطار « مستقلة » هي العراق ، وسورية ، ولبنان ، والمملكة الاردنية الهاشمية ، والمملكة العربية السعودية ، واليمن ، ومصر ، ومملكة ليبيا المتحدة . واقطار خاضعة للحماية البريطانية في الظاهر ، واقعة تحت سلطانها المباشر فعلاً ، هي الكويت ، والبحرين ، وقطر ، ومشيخات الساحل المهادن ، وسلطنة مسقط وعمان ، ومحمية عدن (حضرموت) . ومثل هذا يقال عن تونس ومراكش الخاضعتين للحماية الفرنسية ، او السلطان الفرنسي المباشر ، ولا فرق . (ما عدا ذلك الجزء من مراكش المسمى بالريف الخاضع لسلطان اسبانيا الفعلي . وطنجة الواقعة تحت سلطان مجموعة من الدول الغربية ابرزها اسبانيا من حيث السيطرة الفعلية .) وهنالك عدن . وهي مستعمرة بريطانية رسمياً ، مرتبطة بالتاج البريطاني ارتباطاً مباشراً . والجزائر التي تعتبرها فرنسا جزءاً من الارض الفرنسية رسمياً . والسودان الموضوع تحت الحكم الثنائي : البريطاني والمصري

رسمياً ، والذي تديره بريطانيا وتسيطر على مقدراته فعلاً — وخاصة منذ مقتل السردار لي ستاك في تشرين الثاني ١٩٢٤ — كما تدير أية مستعمرة من مستعمراتها الاخرى . وهنالك فلسطين وقد احتلها الصهاينة ، واستعبدوا قسماً من سكانها العرب ، وشردوا الباقين . وهنالك الاسكندرونة التي ضمتها تركيا لبلادها . ومنطقة عربستان العربية التي هي الآن جزء من ايران رسمياً .

ان معظم الاقطار العربية مسلوبة السيادة بالكلية ، تتحكم في مقدراتها دول اجنبية متعددة . وحتى الاقطار التي قلنا عنها انها « مستقلة » لا تتمتع بالسيادة السياسية الكاملة ، اي بالسيادة التي تتمتع بها الاقطار المستقلة استقلالاً حقيقياً . فالعراق والاردن مرتبطان ببريطانيا بمعاهدات ، فرضت عليهما بالاكراه فرضاً ، تنتقص من سيادتهما ، وتبيح لبريطانيا اتخاذ اراضيهما وموانيهما قواعد لقواتها الجوية والبرية والبحرية في وقت السلم والحرب . وقد فعلت ذلك حقاً . ففي العراق القاعدتان الجويتان الكبيرتان : الشُعيبة والحبانية . ولها السيطرة المطلقة على ميناء البصرة البحري ، قاعدة الخليج الفارسي الكبرى . ولها في الاردن المطارات الضخام . بل لها الجيش العربي كله . وما زالت القوات البريطانية معسكرة في منطقة قناة السويس . وليبيا مثل شرق الاردن في تغلغل السلطان البريطاني فيها ، وان كانت تزيد عنها في وجود النفوذ الفرنسي في بعض اقسامها ، وسيطرة اميركا على بعض مطاراتها وموانيها سيطرة تامة ، وبقاء آثار سيطرة ايطاليا الاقتصادية عليها . ولم تأل الدول الغربية — بريطانيا وفرنسا واميركا واسبانيا —

جهداً في التدخل في شؤون الأقطار العربية ، المستقلة وفاقـدة الاستقلال ، تارة بحكم مصالحها الاقتصادية المتنامية فيها ، وفي مقدمتها النفط ، وتارة للمحافظة على وضع إسرائيل الدولي بعد ان خلقتها، وتارة للافادة من موقع هذه الأقطار الستراتيجي في إعداد مشاريعها السياسية والعسكرية المتعددة . وقد تقدم معنا ما بين هذه الدول من تنافس وتصادم في المصالح . وتقدم معنا الجهود التي بذلتها هذه الدول لأعاقـة اي تقارب عربي حقيقي . ومن البديهي ، إذن ، انه لا يمكن قيام اي اتحاد عربي سليم ، او اي تقارب عربي حقيقي ، او اية جبهة عربية متراصة ، بله الاتحاد او الوحدة التامة ، ما لم تصبح الاقطار العربية تامة السيادة ، مطلقة الحرية في تصريف شؤونها ، وتقرير مصيرها ، واختيار اسلوب الحياة الذي يلائمها .

واما من حيث نظام الحكم فهنالك حكومات دينية شكلاً ، يسود فيها الحكم الفردي المطلق واقعياً ، وهي اليمن والمملكة العربية السعودية . وحكومات ملكية دستورية وهي مصر والمملكة الاردنية الهاشمية ، والعراق ، ومراكش . وحكومة ملكية اتحادية هي ليبيا . وحكومات جمهورية ديموقراطية وهي سورية ولبنان . وإمارات ومشيخات يصرف شؤونها الداخلية شيوخ وأمراء ويحكمونها حكماً قبلياً ، وهي المشيخات المحميات الممتدة على طول سواحل الخليج الفارسي والبحر العربي . اما الاقطار العربية الاخرى الخاضعة للسلطان الاجنبي فالحكم فيها للمتسلطين الاجانب : هم يسمونه ديمقراطياً عصرياً ، ويسميه الواقع

تحكماً قسرياً ، لا سلطان فيه للمحكومين ولا إرادة .

ان أساس الحكم في الاقطار العربيـة « المستقلة » هو النظام الديموقراطي نظرياً ، او النظام الثيوقراطي الاسلامي الشوري في السعودية واليمن . على ان الاقطار العربية لم تعرف من الديمقراطية إلا اسمها فحسب . ويعاني الحكم الديمقراطي ، في العالم العربي كله ، أزمة معقدة ، ومحناً شداداً ، آلمها ان كثيراً من المثقفـين ، والمعنيين بالسياسة ، اخذوا يشكون في أسس النظام الديمقراطي الغربي ، او في إمكان تطبيقه في العالم العربي . واسباب ازمـة الديمقراطية ، في نظرنا ، تعود الى تغلغل النفوذ الاجنبي في الاقطار العربية من جهة ، والى ان الذين أدخلوا النظام الديمقراطي الى هذه الاقطار لم يكونوا يؤمنون به ايماناً صحيحـاً ، فلم يمهدوا الارض قبل ان يضعوا عليها أسس هذا النظام الغربي الجديد على هــذه الاقطـار .

لقد قام النظام الديمقراطي في الغرب نتيجـة لنضال استمر قرونا بين الشعب والحاكمين المستبدين ، من رجـال السياسة والاقطاع والمال والدين . ولم ترسخ قدم الديمقراطية في الغرب إلا بعد ان حطّم سلطان الاقطاعيـين ، وألغي النظام الاقطاعي ، وشاع التعليم العام بين السكان ، ونالت جماهير الشعب حرية التعبير عن آرائها بصراحة ، وحرية الانتظام في نقابات عماليـة واحزاب سياسية . فالنظام الديمقراطي يبقى واهي الاسس ، اسمياً ، ما لم يدعمه جمهور مثقف ، حر في التعبير عن رأيه ، مريد لما يعمـل ، مكفي العيش ، آمن من الخوف ، مطمئن على حياته وماله ورزقه .

ولكن الدول المنتدبة والمستعمرة التي ادخلت هذا النظــام الديمقراطي الى العالم العربي ، او الاسر العربية الحاكمة التي اقتبسته لم تفكر في اقامة هذا النظام على اسس مكينة سليمة . فما كان همها منصرفاً الى اقامة نظام حكم سليم في البلاد ، يخدم مصالح شعبها ، ويعلي شأنها ، وانما كانت تريد ان توهم الشعب المحكوم بانه السيد الحاكم ، وتموه على الشعوب المتمدنة المعنية بامر العرب فتوحي لها بانها تعمل لتحضير هذه الشعوب العربية المتأخرة ، وتأخذ بيدها في طريق الحكم الصالح ، والمدنية العصرية المتقدمة . لقد قوت الدول المحتلة والمنتدبة ، والاسر الحاكمة العربية ، الاقطاعية ، والقبليـة والطائفية ، ومدت في نفوذ ارباب المال والزعامة والدين ، وانفقت موازنات البلاد على الشرطة والجيش والعرضي من الأمور بدل ان تنفقها على تعليم الشعب ، وتحسين صحته ، ورفع مستوى معيشته ، هذا الشعب الذي ما زالت اغلبيته أمية ، مريضة ، فقيرة ، مستسلمة للخرافات وتضليل الزعماء والمتنفذين والمتحكمين . لقد عرفت الشعوب العربية التزوير في الانتخابات ، والضغط على الناخبين ، وتهديدهم في أرواحهم وأرزاقهم . ولم تعرف البرلمان الصالح الذي يسقط الوزارات الجائرة ، ويدافع عن حقوق الشعب المهضومة ، ويحقق له مصالحه ورغباته . وان فقــدان النظام الديموقراطي الصحيح ، وضعف الأسس التي يرتكز عليها ، والتدخل الأجنبي الخفي والسافر جعلت الحكم في معظم الاقطار العربية حكماً فردياً ، أو حكم مجموعة من الاسر المتنفذة ، وأبعدت الشعب عن التأثير في مجرى الحوادث السياسية . ونتيجة لهذا النظام الديمقراطي المنحل ،

ولتذمر الشعب، وفقدان الحريات الاساسية، تعرضت بعض الاقطار العربية لهزات سياسية عنيفة ، لعل اهمها هذه الانقلابات العسكرية التي حدثت في جملة من الاقطار العربية ، فألغت ما كان قائماً من مظاهر الحكم الديمقراطي من دساتير مدونة ، وأحزاب سياسية ، ومنظمات عمالية ، وجرائد ، والتي تبرر موقفها بانحلال النظام الديمقراطي وانهيار اسسه ، وفساد ضمائر القائمين عليه . وتزعم انها إنما تعدّ البلاد لحكم أفضل ، وتدرب الشعب على ممارسة حقوقه في المستقبل بممارسة ديموقراطية فعلية ، كأن من طبيعة الدكتاتوريات العسكرية ان تدرب الشعب على الحكم الديمقراطي السليم .

ان نظام الحكم في الاقطار العربية ، بالاضافة الى تنوع اشكاله ، القائم على تحكم القلة في السلطان السياسي ، وإبعاد الشعب عن ممارسة حقوقه في توجيه سياسة الدولة ، من العوامل التي تحول دون قيام جبهة عربية موحدة الكلمة ، متراصة الصفوف . فاذا اضفنا إلى هذا تصادم مصالح الدول الاجنبية في العالم العربي ، وتنافس الاسر العربية الحاكمة ، أدركنا مجمل عوامل تفكك الجبهة العربية .

١٣ . التباين الاقتصادي والاجتماعي

•

تتفاوت الاقطار العربية ، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية تفاوتاً عظيماً حيناً ، يسيراً حيناً آخر . فبعضها ما زال يسير على الاساليب القديمة في الزراعة والاستفادة من مواردها صناعياً . بينما اخذ بعضها ، كمصر وسورية ولبنان والعراق وشمال افريقية ، في اساليب الزراعة الحديثة ، وادخل الآلة الى الانتاج الزراعي ، وان كان استعمال الآلة واتباع الطرق الفنية ، ما زال محدود النطاق بالنسبة لجمهور الزراع . وقد اخذت بعض الاقطار العربية – كمصر وسورية ولبنان والعراق – باسباب الصناعة ، وان كانت الصناعة العربية ما زالت ضيقة النطاق ، محدودة الانتاج . اما الاقطار الاخرى فمحرومة من الصناعات الحديثة ، وخاصة الضخمة ، تعتمد في سد حاجاتها على البضائع المستوردة ، او على منتوجات الحرف اليدوية المحلية البسيطة . وكذلك تتفاوت الاقطار العربية من حيث تقدم التجارة ونشاطها . فقد تقدمت التجارة في بعضها – كلبنان وسورية ومصر – تقدماً عظيماً ، بحيث اصبحت هذه الاقطار اسواقاً تزود الاقطار العربية الاخرى بمنتوجاتها المحلية وبالبضائع التي تستوردها من البلاد الاجنبية . بينما ظلت التجارة

في الاقطار الاخرى محلية النطاق ، متأخرة الاساليب . وقد ادت هذه العوامل التي ذكرناها - يضاف اليها اختلاف الاقطار العربية في مصادر الثروة الطبيعية ، وفي خصوبة الارض ، ووفرة المياه ، وفي عدد السكان حيث تزدحم بعض الاقطار بالسكان الى حد الاختناق بينما تشكو الاقطار الاخرى من ضآلة عدد السكان وقلة الايدي العاملة - الى قيام هذا التفاوت في مستوى معيشة السكان في الاقطار العربية ، وان كان هذا التفاوت ضئيلاً بصورة عامة ، فمعدل دخل الفرد العربي منخفض انخفاضاً بيّناً بالنسبة لدخل الفرد في معظم اقطار العالم المتحضر ، والى قيام هذا التباين في نوع معيشة السكان . فبينما نجد اقطاراً عربية يسودها نظام المعيشة القبلي ، نجد اقطاراً زراعية ، واقطاراً اخرى اخذت تنمو فيها طبقة رأسمالية كبيرة ، صناعية وتجارية .

على ان الانقسام السياسي هو من أهم العوامل التي تفرق بين الاقطار العربية اقتصادياً ، ان لم يكن اخطرها جميعاً . فقد ولد هذا الانقسام السياسي انقساماً اقتصادياً عميقاً . فلكل قطر عربي حواجزه الجمركية ، وعملته ، وتشريعاته الضريبية ، وأنظمته الخاصة للاستيراد والتصدير وانتقال رؤوس الاموال والاشخاص وما الى ذلك . هذه الحدود الاقتصادية المنتصبة بين الاقطار العربية حدود مصطنعة ، لم تعرفها ايام كانت معظم هذه الاقطار جزءاً من الامبراطورية العثمانية . وقد خلقتها الدول المستعمرة التي تقسمت هذه البلاد ، وساعدت على ابقائها الطبقة الصناعية والتجارية التي نمت في هذه الاقطار والتي تستفيد من هذا الانقسام الاقتصادي في تضخيم

اموالها، وتوسيع مصالحها . وقد كان من نتائج هذا الانقسام الاقتصادي الخطير تقلص الاسواق العربية، وقيام المنافسة التجارية بينها، وانعدام الاختصاص الاقليمي في الانتاج، وصعوبة قيام اي تخطيط اقتصادي انشائي على مدى يشمل المنطقة كلها، في هذا العصر الذي تهدف فيه معظم الدول الى التخطيط الاقتصادي الشامل .

ان العالم العربي غني بالامكانيات الاقتصادية الهائلة . ففيه من الاراضي الزراعية الخصبة ما يكفي لاعاشة اضعاف سكانه الحاليين معيشة رفيعة المستوى لو استغلت هذه الاراضي استغلالاً فنياً، ووزعت توزيعاً عادلاً على السكان. وفيه من المياه الظاهرة والجوفية ما يكفي لري أراضيه الواسعة، واستخراج الطاقة الكهربائية، لو استغلت استغلالاً علمياً . وفيه المقادير الهائلة من النفط الذي يساعد على قيام الصناعة في هذه البلاد حيث يمدها بالطاقة المحركة من جهة، ويوفر لها الرساميل الضرورية لقيامها، والحقيقة ان اختلاف الاقطار العربية في مواردها الطبيعية، وفي قابليتها الاقتصادية، مما يستوجب التقارب الاقتصادي بينها، بدل ان يكون سببا لتباعدها، وتزاحمها، وقيام القطيعة بين بعضها، وما يشبه القطيعة بين بعضها الآخر . فاختلاف البلاد في مواردها وقابلياتها الاقتصادية مما يعين على التخصص الاقليمي من حيث تمركز الانتاج الزراعي والصناعي والخدمات التجارية في الجهات التي تلائمها كلياً او نسبياً . وفي التخصص في الانتاج توفير للجهود والنفقات، وتحسين للمنتوج، وإضعاف للمزاحمة التجارية الضارة . وهذا

التفاوت الاقتصادي يساعد الاقطار العربية على الاكتفاء الذاتي من حيث ان منتوجات احدها ستكون متممة لمنتوجات الاخر في سد حاجة السكان بصورة عامة، وتضع موانيها وطرق مواصلاتها في خدمتها جميعاً . والوحدة الاقتصادية الكاملة ، او الوحدة الجمركية على الاقل ، تؤدي الى توسيع السوق العربية ، الذي هو من اهم عوامل قيام الصناعة الضخمة في البلاد . فالسوق الواسعة تمتص منتوجات هذه الصناعة ، وتساعد على تخفيض نفقات الانتاج بتوسيع نطاقه ، وتعينها على مقاومة المزاحمة الاجنبية المتغلبة . ان التصنيع ضروري للبلاد العربية اذا ارادت ان تنهض ، وتحل مشكلة الفقر الذي تعانيه جماهيرها ، ومشكلة السكان المتزايدين باطراد . والتصنيع لا يمكن ان يقوم بدون سوق واسعة . فتقسيم العمل ، الذي هو من مقومات التصنيع ، يعتمد على اتساع السوق اعتماداً اساسياً . واذا كانت بعض الاقطار العربية ، التي اخذت في سبيل التصنيع ،تجد من صالحها اقامة الحدود الاقتصادية بينها وبين الاقطار العربية الاخرى ، حماية لصناعتها الناشئة ، فلسوف تجد نفسها بعد حين مضطرة الى الغاء هذه الحدود ، سعياً وراء سوق عربية واسعة تستوعب منتوجاتها الوافرة ، ورساميل ضخمة لا يستطيع ان يوفرها القطر العربي الواحد بمفرده.

ان البلاد العربية ، بصورة عامة ، بلاد زراعية . الزراعة عماد اقتصادها او « صناعتها الرئيسية » كما يعبر الاقتصاديون ، حيث يعتمد السكان اعتماداً رئيسياً ، مباشراً او غير مباشر ، على ماتنتجه الارض . وتقوم الزراعة على الاساليب القديمة في الانتاج . ونظام

الملكية الشائع هو النظام الاقطاعي . ويقوم هذا النظام على وجود طبقة ضخمة من السكان لا تملك ارضاً ، وتعيش عيشة بائسة ، قوامها الفقر والجهل والمرض ، وطبقة صغيرة من الناس تعيش مرفهة من كدّ الكادحين . على حين يرهق التشريع المالي الطبقات الكادحة ، حيث يتألف معظم دخل الدولة من الضرائب غير المباشرة التي يقع عبئها على الطبقة الفقيرة . وهذا النظام الاقطاعي هو من اهم عوامل انخفاض مستوى الانتاج ، الفردي والعام ، وبالتالي انحطاط الدخل القومي . فالعوامل التي تسبب ضعف انتاجية الارض وقلة غلتها عديدة اهمها الاساليب الزراعية القديمة ، ونقص السيطرة على المياه وضعف اهتمام الفلاح بالأرض الناتج عن نظام الملكية الذي يسرق منه الاقطاعي بموجبه معظم منتوجه ، وضعف كفاءة الفلاح الزراعية . وهذا النظام الاقطاعي من أهم العوامل التي تسبب هذا التباعد بين اقطار العالم العربي . ان ضعف الطاقة الشرائية عند جمهور الفلاحين العرب ، وهم اغلبية السكان ، يعيق تقدم الصناعة الضخمة في البلاد ، وبالتالي يحول دون قيام التبادل التجاري النشيط بينها . والنظام الاقطاعي يعزل جمهور الفلاحين عن المشاركة الفعالة في الحكم ، ومن ثم عن التفكير في مصير بلادهم ، بله مصير الأقطار العربية الأخرى ، اي انه يشل اغلبية الأمة عن العمل القومي . وقد ذكرنا مراراً ، ولا بأس ان نعيد ما ذكرنا ، بان « القومية » لا تقوم على اتحاد الشعب في اللغة والتاريخ والتقاليد والوطن فحسب ، وإنما هي إلى ذلك قضية « ارادة مشتركة » في الحياة تنبثق في وعي الأفراد ، وشعور « بالمصير الواحد » يهيمن على تفكيرهم ، ويدفعهم للعمل

الموحد على اخراج الكيان القومي من حيز الامكان الى حيز الواقع، او من القوة إلى الفعل كما يقول الفلاسفة. ولا يستطيع ان يرقى الفلاح العربي الى هذا الشعور القومي وهو يعيش في ظل النظام الاقطاعي محروماً من الثقافة، محفوفاً بالخرافات، معزولاً عن العالم الخارجي، يهدر كرامته الانسانية في سبيل الحصول على اللقمة، ويسيره زعماؤه كما يشاءون قطيعاً بشرياً فاقد الارادة والحرية والتفكير.

وفي العالم العربي اقطار يكوّن البدو الرحل جزءاً مهماً من سكانها كالعراق والأردن وسورية ومراكش وليبيا مثلاً، او معظم سكانها كالمملكة العربية السعودية. والنظام القبلي اشد من النظام الاقطاعي إعاقة للانتعاش الاقتصادي، ولنمو الشعور القومي، ومن ثم لتكوين رأي عام موحد في الأقطار العربية، يدفع حكامها الى تحقيق المصلحة العربية العامة. فالبدو كمنتجين لا يقومون إلا بدور ضئيل في الاقتصاد القومي. وحتى هذه الحيوانات التي يعنون بتربيتها لا تستوفي الشروط المطلوبة في المواشي في الوقت الحاضر من حيث النوعية والعدد نتيجة لعدم اتباعهم الطرق العلمية في التغذية والتربية والانتاج. وهم كمستهلكين لا يفيدون اقتصاديات البلاد إلا إفادة ضئيلة جداً، نتيجة لضآلة مواردهم، وبساطة حياتهم التي يمكن سد حاجاتها بأقل السلع وأبخسها ثمناً. وأفق البدوي محدود بقبيلته، لا يعرف وطناً، ولا يطيق قيود الدولة. فما يهم البدوي اذا كان عراقياً، او نجدياً او سورياً، وما يهمه اذا كان القائم على الحكم ملكاً او دكتاتوراً، او رئيس

جمهورية ديمقراطياً . وانما تهمه الأرض الخصبة يُسيم فيها إبله ، لا يبالي في اية دولة تقع هذه الأرض ، فهو لا يفهم « الحـــدود » الرسمية ، ولا يعترف بالخرائط الجغرافية الملونة . وعـــلى ارض الاقطاعية والقبلية يرسخ الحكم الفردي ، ويقوى نفـــوذ الأسر الحاكمة. وعلى هذه الأرض نفسها ساخت أسس النظام الديمقراطي ، وتهلهل بنيانه .

١٤ . التباين الثقافي

●

تتباين الاقطار العربية ، ثقافياً ، تبايناً واضحاً . فبينما تسير الثقافة سيراً حسناً في بعض الاقطار – كسورية ولبنان ومصر والعراق والمملكة الهاشمية – حيث يزداد عدد المتعلمين والمثقفين باطراد ، وتزدهر المدارس والكليات والجامعات ، وتنتشر المكتبات ، ويقبل الناس على ثمرات المطبعة ، نجد الامية والجهل يسودان معظم الاقطار العربية الاخرى . ولا يقوم هذا التباين الثقافي بين قطر وقطر فحسب ، بل انه ليبدو واضحاً وضوحاً مؤلماً بين اجزاء القطر الواحد نفسه . فاذا كانت الثقافة تتقدم في المدن ، والمدن الكبرى خاصة ، فان الريف العربي ، بصورة عامة ، يكاد يكون محروماً منها اطلاقاً . والى جانب هذا التباين في مدى انتشار الثقافة يقوم تباين واضح في نوع الثقافة التي يتلقاها الطالب – علمية ، دينية ، وطنية ، اجنبية – والاسلوب الذي يتلقى به هذه الثقافة [1] ، والجهة التي يتلقى الثقافة على حسابها ، وفي

---

(١) للاطلاع على مدى التباين في مناهج التربية والتعليم في الاقطار العربية راجع كتاب « التربية في الشرق الاوسط العربي » للدكتورين رودريك ماتيوس ومتى عقراوي و « حولية الثقافة العربية » لساطع الحصري القاهرة ١٩٤٩ ،

مدى انتشار المدارس الاهلية ، والطائفية ، والاجنبية . والمناهج الجامعية المستقرة المركزة تكاد تكون معدومة . فهناك جامعات وكليات تأخذ بالاساليب والمناهج الانكلوسكسونية ، واخرى تأخذ بالمناهج اللاتينية ، وهناك جامعات وكليات ، وهي الاكثر ، ضائعة بين الاثنين .

ولم تكن هذه المشكلة خافية على المعنيين بشؤون التربية من المربين العرب . فقد طالما ارتفعت اصواتهم ، وما زالت ترتفع ، بالدعوة الى توحيد التعليم في العالم العربي . ولكن هذه الدعوات لم تحقق الا الجزء اليسير من غايتها رغم هذه المؤتمرات الثقافية العديدة التي ما يكاد ينقطع مدها ، ورغم تأسيس الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية . وكيف يوحد التعليم في العالم العربي

وخاصة ص ٢١ — ٣٩ . و « نظرة في التربية الحديثة في المملكة العربية السعودية » بقلم بيلي وبندر (مجلة الابحاث ، المجلد ٤ ، الجزء ٢ ، بيروت ١٩٥١) . ولنقتبس من حولية الثقافة ، ص ٢٣ ، مثالا على الاختلاف بين المناهج في قضية من اهم القضايا التربوية الا وهي تدريس اللغة العربية واللغات الاجنبية في المدارس الابتدائية . يبلغ مجموع الساعات الاسبوعية المخصصة لتعليم اللغة العربية وقواعدها طوال سني الدراسة الابتدائية ٣٢ في لبنان ، ٥٥ في العراق ، ٥٩ في سورية ، ٧١ في الاردن ، ٧٢ في مصر . ويبدأ تعليم اللغة الاجنبية في لبنان من السنة الاولى ، وفي الاردن وفلسطين من السنة الرابعة ، وفي مصر تدرس اللغة الاجنبية في السنتين الاخيرتين من المدارس الابتدائية ، ولا تدرس في المدارس الاولية . واما في سورية فلا تدرس لغة اجنبية في المدارس الابتدائية . ويبلغ مجموع الساعات الاسبوعية المخصصة لتدريس اللغة الاجنبية طوال سني الدراسة الابتدائية ١٢ في العراق ، ١٦ في مصر ، ٢٥ في لبنان ، ٢٨ في الاردن .

ومعظم الاقطار العربية خاضع لدول اجنبية متعددة توجه كل منها التعليم الوجهة التي تحقق مصالحها وتثبت نفوذها في البلاد؟ وكيف نتوقع من الدول العربية ، التي ما فتئت تختلف في كل امر حيوي من امور الوطن العربي ، ان تتفق على توحيد التعليم ، وتتعاون على نشر الثقافة ؟

المشكلة الثقافية هي من المشاكل الكبرى التي يعانيها العالم العربي اليوم . وهذه المشكلة لا تقتصر على ما قدمنا من الاختلاف في مناهج التربية واساليبها وغاياتها ، بل انها لتكاد تنحصر في انعدام الثقافة في معظم الاقطار العربية . وفي عالم متحضر يستخدم فيه المتغلبون العلم للسيطرة على الشعوب المستضعفة كيف يرجى للاقطار العربية ، المتخلفة ثقافياً وحضارياً ، تحررٌ ، ووحدة ، وتقدم ، دون تعميم الثقافة بين جماهير الشعب ؟ بل كيف نأمل ان يحسّ الفرد العربي، الامي الجاهل، بكرامته الانسانية المهدورة، وكرامة وطنه العربي المجزأ المظلوم ؟ ولم تكن مشكلة انعدام الثقافة في معظم الاقطار العربية بنت اليوم ، ولا هي من خلق المستعمرين ، والاقطاعيين ، والحكام المتسلطين ، فحسب ، بل ان جذورها لتمتد بعيداً ، بعيداً ، في تاريخ الشعوب العربية . فقد كانت جماهير الشعب ، في هذه الاقطار العربية ، امية ، جاهلة ، منذ ان كان التاريخ . ولكن كان على القائمين على امر هذه الشعوب ، في هذا العصر الحديث ، ان يحلوا هذه المشكلة ، بل ويلغوا وجودها الغاء . فلم تكن جماهير الشعب في اوربا واميركا متعلمة ، مثقفة ، قبل قرن ، او قرنين ، من الزمن ، ولكنك قلما

تجد امياً من الراشدين في تلك الاقطار اليوم .

ماذا فعل المستعمرون لتثقيف الشعوب العربية التي اخضعوها لسيطرتهم بحجة تثقيفها ، وتمدينها ، واعدادها لحكم نفسها بنفسها ؟ لا شيء . او الشيء القليل جداً . فما زالت جماهير الشعب في اقطار سواحل الجزيرة العربية والسودان امية ، جاهلة ، كما كانت يوم احتلتها بريطانيا . وقامت فرنسا بنشر الثقافة بين « المتوطنين » الفرنسيين في المغرب العربي ، وانفاق ميزانية البلاد على تعليم ابنائهم ، وابقاء الشعب العربي في المغرب امياً جاهلاً ، واضعاف اللغة العربية ، وتحقير شأن التاريخ العربي في نفوس الطلاب العرب الذين يتاح لهم الوصول الى المدارس الحكومية[2] .

---

(٢) في العام الدراسي (١٩٤٩ – ٥٠) كان عدد الطلاب في سن الدراسة ، في تونس ٦٠٠،٠٠٠ . يسرت الحكومة اماكن لـ (١٣٤،٠٠٠) طالب وطالبة في المدارس الابتدائية ، بالاضافة الى ٣٠،٠٠٠ طالب في المدارس الخاصة . ومعنى هذا ان واحداً من كل اربعة او خمسة اولاد استطاع ان يتعلم . وحكم على اغلبية الاولاد بالامية والجهل . كان مجموع الطلاب في الدراسة الابتدائية ١٤٣،١١٥ طالباً ، ٢٥،٨٩٦ منهم فرنسيون . وفي الدراسة الثانوية ١٠،٥٧٦ طالباً ، ٥١٩١ منهم فرنسيون . وفي التعليم الفني ١٠،١٩٥ طالباً ، ٣،٣٥١ منهم فرنسيون . وفي التعليم العالي ٧٠٢ طالباً ، ١٤٣ منهم فرنسيون . فالطلاب الفرنسيون يزيدون على ٢٢ بالمئة من مجموع الطلاب في المدارس الرسمية ، بينما عدد الفرنسيين في تونس كلها لا يزيد على ٥ بالمئة من عدد السكان . ويبلغ عدد الطلاب الجزائريين ، بنين وبنات ، ٢١٢،٥٧٢ . وعدد الطلاب الفرنسيين ١٣٨،٣٨٢ . ومعنى هذا ان كل ثلاثة طلاب جزائريين في المدارس يقابلهم طالبان افرنسيان . مع ان نسبة السكان العرب الى الفرنسيين هي ٦ – ١ . وتبلغ نسبة البنات الجزائريات في المدارس الى البنين ١ – ٣ . اما في حالة الفرنسيين فتبلغ ١ الى ١ . وقدر عدد البنين

اما في الأقطار العربية المستقلة فقد حصل تقـدم ملحوظ في الثقافة والتعليم منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى اليوم . ولنأخذ العراق مثلا . كان عدد المدارس الابتدائية للبنين والبنات ، في عام ١٩٢٠ – ١٩٢١ ، ٨٨ ، وعدد المعلمين ٤٨٦ ، وعدد الطلاب ٧٤٥٢ [٣] . فأصبح عدد المدارس الثانوية والابتدائية الأهليـة والرسمية ، في عام ١٩٥٠ – ٥١ ، ١٤٧٩ ، وعـدد المدرسين والمدرسات ٩١٩٦ ، وعدد الطالبات والطلاب ٢٤٣،٢٧٩ [٤] . وقد حدث في لبنان وسورية ومصر والمملكة الهاشمية مثل هـذا التقدم الثقافي ، او اعظم منه . ولكن هذا التقدم ، وإن بـدا واضحاً ، ما زال بطيئاً بالنسبة الى حاجات البلاد ، والظروف المواتية التي يتيحها العصر الحديث ، وموارد البـلاد الاقتصادية والبشرية . فما زال عدد كبير من الأولاد في السن المدرسيـة لا يجدون المدرسة التي يتعلمون فيها [٥] . ومن أهم اسباب بطء هـذا التقدم الثقافي ان الحكومات العربية لا تعير التعليم ، وخاصة في المناطق الريفية ، الاهتمام اللازم . وتكاد حصة المعارف لا تتعدى

والبنات (من الجزائريين في سن التعليم الابتدائي لسنة ١٩٥٠) بنحو مليون . ومعنى هذا ان واحداً من كل خمسة يجد مـكانا له في المدارس . بينما الفرنسيون جميعهم يجدون في المدارس متسعاً لاولادهم . اما في المدارس الثانوية فنسبة الطلاب الجزائريين الى الطلاب الفرنسيين نحو ٩ فقط . انظر نقولا زيادة ، « ليبيا وتونس والجزائر » (بيروت ، ١٩٥٢) ص ٣١ – ٣٢ ، ٦٢ – ٦٣ .

(٣) حولية الثقافة ص ١٩٦ .

(٤) وزارة المعارف العراقية ، التقرير السنوي عن سـير المعارف لسنة ١٩٥٠ – ١٩٥١ ص ٣ .

(٥) انظر التربية في الشرق الاوسط العربي ص ٧٠٩ .

١٠ بالمئة من الميزانية العامة في البلاد [٦] . ولا تقتصر المشكلة الثقافية على تعليم الأجيال الناشئة فحسب ، وانما تتعداها الى ضرورة تعليم الأميين البالغين . وقد كانت الجهود التي بذلتها الحكومات العربية لمكافحة الأمية جهوداً ضئيلة ، سطحية .

والحق ان مشكلة الثقافة في العـــالم العربي مرتبطة بمشاكله الأخرى ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ارتباطاً عضوياً فلا يمكن حلها نهائياً إلا إذا حلت جميعاً . فالفـلاح العربي ، بصورة عامة ، نتيجة لنظام ملكية الارض ، ولتأخر وسائل الزراعة ،فقير معدم يضطر الى تشغيل ولده معه في الحقل ، او في رعي الماشية ، بدلاً من إرساله الى المدرسة . وهذا الفلاح اجير يعتمد بقـاؤه في الارض عـلى رغبة المالك وعلى ارتياحه هو من معاملة المالك له ، ولذا نراه غير مستقر ، يتنقل من قرية الى اخرى . وعدم استقرار الفلاحين مما يحول دون نجاح التعليم الريفي . والاقطاعيون وملاكو الاراضي كثيراً ما يحولون دون إنشاء المدارس في قراهم لعلمهم بان الفلاح المتعلم لا يمكن استغلاله بالسهولة التي يستغلون بها الفلاح الجاهل ، ولعلمهم بان المدارس تحرمهم من أيد عاملة يريدونها نشيطة في مزارعهم وحقولهم . وماذا تجدي الثقافـة الفلاح ؟ اين النوادي الثقافية في القرى ؟ اين المكتبات في القرى ؟ بل اين المكتبـات المتنقلة توزع الكتب والمجلات والجرائد على الفلاحين ؟ ان العلم

---

(٦) انظر حوليـة الثقافة ص ٧٤ ، ١٩٤ ، ٣١٢ ، ٣٥٦ ، وانظر « نظرية في التربية الحديثة في المملكة العربية السعودية » ص ٦ وانظر التقرير السنوي عن سير معارف العراق السابق ص ٢ .

والثقافة لم يصبحا حاجة ضرورية عند الفلاح . وما لم يصبح العلم ضرورة ، ما لم يجد الفلاح نفسه بحاجة الى التعلم ، لا يقبل على العلم ولا يرى فائدة من إرسال ابنائه الى المدرسة .

ومثل هذا يقال عن مشكلة مكافحة الامية . فهذه المشكلة ترتبط بالوضع الاقتصادي والاجتماعي ارتباطاً وثيقاً ، ولا يمكن القضاء عليها نهائيا الا اذا بُدلت اوضاع الناس الاقتصادية ، وتحسنت ظروفهم الاجتماعية. فان الثقافة والعلم لا يتأتيان للانسان الا مع الفراغ والرفاه المادي . وما دام الفلاح والعامل وكثير من الكسبة في المدن فقراء معدمين ، يكدحون طول يومهم بوسائلهم البدائية للحصول على اللقمة ، فلن يدركوا فائدة العلم ، ولن يهتموا بالحصول عليه ، ولن يجدوا متسعاً من الوقت للتعلم ان ارادوا . وكيف يتعلم البدوي وهو ينتقل وراء ماشيته من ارض الى ارض سعياً وراء العشب والماء ؟ واية رغبة يحس للعلم ؟ وهل يشعر الفلاح الامي الفقير المتعب بحاجة الى التعلم في محيط لا يرى فيه كتابا ؟ لقد وجد الناس آباءهم أميين فألفوا الجهل ولم يجدوا فيه غضاضة . ان تغيير هذا الوضع الاقتصادي السيء للسواد الاعظم من السكان الى جانب كونه سيرفع مستوى معيشتهم ، ويزيد استقرارهم الاجتماعي واطمئنانهم النفسي ويطيل اوقات راحتهم وفراغهم سيحدث تغييراً عاماً في عقليتهم ، وهزة في نفوسهم ، ويعيد اليهم ثقتهم بانفسهم وشعورهم بذواتهم كأناس احرار ، ويجعلهم اكثر استعداداً لتلقي العلم والاستفادة منه في حياتهم . ولكن هذا لا يعني ان يقف المصلحون مكتوفي الايدي ،

مستسلمين لليأس ، منتظرين انتظام الاوضاع الاقتصادية وتحسن احوال الناس المادية ليشرعوا في محو الامية ونشر التعليم بين الناس . فالحياة الاجتماعية وحدة مترابطة الاجزاء . فكما ان اعادة تنظيم الحياة الاقتصادية يسهل حل مشكلة الامية فان تعليم العامة من الشعب وتثقيفهم يساعد مساعدة اساسية في انتظام الحياة الاجتماعية وتقدم الحالة الاقتصادية . وعلى هذا يجب ان تبذل الجهود المنظمة لمحو الامية الى جانب العمل على رفع مستوى معيشة السكان بصورة عامة . وذلك يتطلب خطة مدروسة ، ومعلمين معدين إعداداً خاصا . ويجب ان تعد لهؤلاء الاميين كتب خاصة تناسب عقليتهم ، كما يجب ان توفر لهم وسائل الراحة في مراكز المكافحة ، بحيث يجد العامل المتعب ، والفلاح المكدود ، مشوقاً للذهاب اليها . على ان هذا يحتاج الى مبالغ جسيمة من المال ، والى حكومة تشعر شعوراً عميقا بضرورة تعليم جمهور الشعب . وهنا تطالعنا المشكلة المالية ، ومشكلة جهاز الدولة القائم ، وعلاقة الحكومة بالشعب المحكوم .

وقد اتجهت البلاد العربية بالتعليم اتجاهاً خاطئاً منذ البداية . فقد كان همّ الدول العربية ان تخرج موظفين مدنيين ، ثم كان همّ المثقفين ان يصبحوا موظفين حكوميين ، بحيث اصبحت الوظيفة الحكومية قبلة المثقف وغاية حياته . فاذا لم يجد وظيفة حكومية يعيش على راتبه منها اصبح من العاطلين . وهكذا اخذ عدد المثقفين العاطلين عن العمل ، بعد ان اتخمت دوائر الدولة بالمتعلمين ، يزداد ازدياداً خطراً على مرور الايام . على ان البلاد في امس الحاجة

الى عمـــال فنيين ، وخبراء في الصناعة والزراعة اي الى مثقفين مهنيين. وهذا يتطلب من الحكومات العربية ان تقيم التعليم الصناعي والزراعي على اسس وطيدة فتشيد المدارس الصناعية والزراعية ، وتوسع الموجود منها الآن ، وتجهزها بما تحتاجه من معدات فنيـة ومعامـــل وحقول للتجارب ، وان ترسل البعوث الى المدارس الزراعية والصناعية في الخارج . على ان هذا وحده لا يكفي . اذ يجب ان تقوم الحكومة بتيسير سبل العمل والعيش لهؤلاء الفنيين الزراعيين والصناعيين الذين تخرجهم هـذه المدارس ، وذلك عن طريق تشغيل الحكومة لهم في المؤسسات الاقتصادية الحكومية ، واجبار الشركات الاجنبية على تفضيلهم على العمال الفنيين الاجانب ، وعن طريق قيام الحكومة بالمشاريع الزراعية والصناعية الكبيرة التي تفيد البلاد اقتصادياً ، وتوفر العمل للكثيرين من ابناء البلاد ، وعن طريق تنظيم الحياة الاقتصادية بصورة عامة .

وقد اهملت المجتمعات العربية المرأة ، وما زالت تهملها ، فبقيت اميـة ، جاهلة ، مهدورة الكرامة ، مشلولة عن المشاركة في حيـاة البلاد الاقتصادية والسياسية والعمرانية ، وهي نصف المجتمع ، وامّ الاجيال العربية الناشئة . ان مركز المرأة في المجتمـــع من ادق المقاييس التي يحكم بها على طبيعة حضارة ذلك المجتمع . وان درجة تحررها لهي المقياس الطبيعي الذي يقاس به مدى تحرره . لا عجب ان نجـد المجتمع العربي متأخراً ، مقيداً بتقاليده البالية ، يعرج في موكب الانسانية . فاذا اريد للمرأة ان تتحرر تحرراً تاماً من هذه القيود التي تخنق حيويتها ونشاطها المبدع ، واذا اريد لها ان تكون

عضواً حراً، نشيطاً، مثقفاً، في المجتمع،فيجب ان يتحرر الرجال، عامة الرجال، مما ينوءون به من قيود الجهل والتعصب الاعمى، ومن هذه الاوضاع الاقتصادية الطاغية التي تشل الارادة، وتفسد طعم الحياة، وتخمد جذوة الروح. فاذا ما تثقف الرجل، وصقلت الحضارة نفسه، وادرك عن وعيٍ حقيقة ذاته، قرب يوم تحرر المرأة. على ان هذا لا يعني ان يصرف المصلحون، الآن، الجهد عن قضية المرأة، ويلغوا الكفاح في سبيل حقوقها، منتظرين تحرر الرجال، واستقامة الحال في المجتمع. فالواجب يحتم على كل رجل واع، وكل امرأة مثقفة، ان يبذل كل ما في وسعه في سبيل هذه القضية العادلة. ان تحرر المرأة، وانطلاق قواها المبدعة من اسارها، سيعينان تطور المجتمع، ورقيه، وتقدم الحضارة فيه، اعانة عظيمة. وكلما نالت المرأة جزءاً من حريتها وحقوقها مكنت لنفسها في المجتمع، واصبح بامكانها ان تخطو خطوة اخرى، ارحب واثبت. ان المرأة الغربية لم تنل ما تنعم به الآن من حرية وكرامة واحترام الا بعد ان تقدمت الحياة الاقتصادية، وارتقى المجتمع عامة، وتحرر الرجل من قبضة الجهل والتعصب الأعمى، وإلا بعد أن جاهدت في سبيل حريتها جهاداً مثابراً، منظماً.

لقد تكلمنا عن الثقافة المدرسية وبينّا يسيراً من مشاكلها. وما كانت الثقافة الشعبية لتعتمد على المدارس فحسب. فانما مجالها الأوسع الجريدة، والمجلة، والكتاب، والراديو والسينما، والجمعيات والنوادي الاجتماعية والسياسية والعمالية والثقافية. على ان الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وخاصة السياسية، قد فرضت على وسائل

الثقافة هـذه ان لا تؤدي غايتها المرجوة منها . فالصحافة تخضع لقيود ثقيلة تشل حريتها ، وتحد من آفاقها ، وتسيرها في ركاب الحاكمين . وما تكاد الصحافة تتفلت من قيود قوانين المطبوعات، المعطلة لكل حرية قول ، حتى تبتلى بالرقابة ، وما تكاد تخلص من الرقابة حتى تنوء باعباء الأحكام العرفية ، وحالة الطوارىء ، التي يفرضها الحاكمون لسبب وجيه ، ولغير سبب وجيه . ونحن نكتب هذا الفصل وثلاثـــة اقطار عربية ، مستقلة كبرى ، تخضع لقيود الاحكام العسكرية . وفي مثل هـذا المناخ الفكري لا ينمو الا الجرائد المأجورة ، التي تسبّح بحمد الحاكمين ، وتخـدر الشعب ، وتلهيه عن آلامه وآلام وطنه . وأمـا الراديو فملك الدولة تسيره الحكومات القائمة لتحقيق الغاية التي تريد . وأما السينما العربيـــة الناشئة فهمُّ اصحابها الاثراء الواسع السريع على حساب اخلاق الشعب ، واعصابه وتفكيره السليم . اما قضية الكتاب العربي — نعني الكتاب الحر الذي ينتقد ، ويصلح ، ويهدي ، وينـير — في يومنا هذا فهي قضية الفكر العربي الاولى والاخيرة. وقضيةالفكر العربي هي قضية الحرية — حرية التفكير والتعبير . فعلى الرغم من جميع مظاهر التقدم المادي في وسائل التأليف والطباعـة والنشر والترويج ، لا يزال الكتاب العربي مهدداً بالمصادرة والاضطهاد إذا لم يلتزم سبيل الاتـباع . فالكتاب العربي لا يستطيع ان يخرج بسهولة واطمئنان ، عما يفرضه تعصب المتزمتين من رجال الدين ، وأهواء الحكام المستبدين ومصالحهم ، وتقاليد العامة من الشعب . فرجال الدين من جميع الملل والنحل يخشون الكتاب الحر الطليق

لا خوفاً على كتبهم المنزلة ، بل خوفاً على هيمنتهم القائمة في أغلب الاحيان على الجهل والظــلام . والحكام يخشون الكتاب لان سلطانهم قائم على القوة والاكراه لا على الحرية والاختيار . واما سواد الشعب فجاهل لم يفسح له المسيطرون مجــالاً الا للتعلل بخرافاته ، والحفاظ على تقاليده الباليــة . وصراع الكتاب العربي هو صراع الحق الاعزل ضد الطغيان المسلح ، صراع العــلم ضد الاباطيل والخرافات. ان الكتاب لا يحيا الا في الآفاق الواسعة، والفكر لا يعيش وينمو الا في الاجواء الحرة . ولا يجرأ عــلى التفكير الحر والتعبــير الحر والقراءة الحرة الا الانسان الحر . وبالتفكير الحر ، والتعبير الحر فقط يستطيع الكتاب العربي ان يؤدي الرسالة المرجوة منه في بعث روح الحرية والانطلاق وتغذيتها لدى العرب حتى تستقيم للعرب مكانتهم في التاريخ، وتتفتح امامهم الفرص للمساهمة الحرة في بنيانه . وعلى الكتاب العرب ان يثابروا على الجهاد في سبيل حرية الكتاب العربي المطلقة مهما يعترهم من مصاعب وعقبات ومهما يعن المسيطرون من رجال الدين والحكام في التنكيل بهم ومصادرة كتبهم حتى يتثقف الشعب ويصبح الدعامة الكبرى في حرية الكتاب والضمانة الاولى والاخيرة للمحافظة عليها .

ان قضية العالم العربي ، اليوم ، انما هي قضيــة تحرير معظم اقطاره من الاحتلال الاجنبي ، وتخليص فلسطين من اسرائيــل الصهيونية . قضية تقدم في النواحي الاقتصادية ، والاجتماعيــة ، والفكرية . قضية استعادة الفرد العربي لكرامته الانسانية المسلوبة

واسترجاع الوطن العربي لكرامته الدولية المهدورة . وهذه القضية الكبرى لا ينهض باعبائها الا شعب متعلم تعلماً يمكنه من وعي ذاته ، ووعي مشاكله، ويهديه الى طريق حلها . وان بين المتسلطين الذين يجهدون في ابقاء الشعب العربي امياً جاهلاً ، وبين المستنيرين من الوطنيين الذين ينهضون بقيادة الشعب الى الحرية والنور والسعادة ، لصراعاً مستَعِراً أليماً . ولكن البقاء للأصلح دائماً . والحياة والمستقبل والنور للقوى النامية من ابناء الحياة والمستقبل والنور .

فهرست الاعلام

محتويات الكتاب

القسم الثالث

عوامل التباعد والتفريق

٥٣/٥/١٧٩

DATE DUE

